الدكتور عماد الدين خليل
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
في كلية الآداب بجامعة الموصل

التفسير الإسلامي للتاريخ

دار العلم للملايين
بيروت

التفسير الإسلامي للتاريخ

الدكتور عماد الدين خليل

التفسير الإسلامي للتاريخ

دار العلم للملايين
ص.ب : ١٠٨٥ - بيروت
تلكس : ٢٣١٦٦ - لبنان

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو

ص.ب ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩

برقياً: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

لايجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل - سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها - دون إذن خطي من الناشر.

الطبعة الأولى: ١٩٧٥

الطبعة الخامسة

آذار / مارس ١٩٩١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن ثمة حقيقة أساسية تبرز واضحة في القرآن الكريم ، تلك هي أن مساحة كبيرة في سوره وآياته قد خصّصت (للمسألة التاريخية) التي تأخذ أبعاداً واتجاهات مختلفة وتتدرج بين العرض المباشر والسرد القصصي (الواقعي) لتجارب عدد من الجماعات البشرية ، وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التي تحكم حركة الجماعات عبر الزمان والمكان ، مروراً بمواقف الإنسان المتغيرة من الطبيعة والعالم ، وبالصيغ (الحضارية) التي لا حصر لها والتي تتأرجح بين البساطة وبين النضج والتركيب .. وتبلغ هذه المسألة حداً من (الثقل) و (الاتساع) في القرآن الكريم بحيث ان جلّ سوره لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية ، أو اشارة سريعة لحدث ما أو تأكيد على قانون أو سنّة تتشكل بموجبها حركة التاريخ .

إن هذا أمر منطقي تماماً ، ينسجم بالكليّة مع إعجاز القرآن وتوزيعه الفذّ لمساحات آياته وسوره لتغطية كافة المسائل الأساسية في حياة البشرية .. ولقد أخذت تزداد اتضاحاً يوماً بعد يوم أهمية (الدراسة التاريخية) ، أو ضرورتها بالأحرى ، لمسيرة كل جماعة بشرية تسعى إلى ان تقبس الأضواء التي أشعلتها الوقائع الماضية ، لكي تنير لها الطريق

الطويل الذي يتوجّب عليها أن تقطعه ، متجاوزة أكبر قدر ممكن من العقبات والعثرات والمنحنيات، ملتزمة — من جهة أخرى — بأكبر قدر ممكن من الأساليب والنظم التي توصلها إلى أهدافها بجهود أقل وسرعة أكبر . تلك الأساليب والنظم التي كانت حركة التاريخ حقلاً لتجاربها وميداناً لإثبات عناصر القوة والضعف فيها .. إذ ان بدء التجربة دائماً من نقطة الصفر ، دونما التفات إلى مردوداتها التاريخية ، يضيّع على الجماعة جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً ما كان لها أن تضيّعهما لو التفتت إلى الماضي تستمد منه المواقف والاشارات ..

والعالم الطبيعي الذي لا ينظر إلى معطيات من سبقه من العلماء في مجال تخصصه ويسعى — دائماً — إلى أن يبدأ من جديد ، ليس بعالم أساساً . ولو ان علماء الطبيعة سلكوا هذا البرنامج الخاطىء لما بلغت نتائج البحوث الطبيعية هذا المبلغ من النضج والتقدم ، ولما قدمت للبشرية هذه الحصيلة الضخمة من المبتكرات والكشوف .

وما يصدق على (البحث العلمي) يمكن أن يصدق على (البحث عن المستقبل الأفضل) الذي لن يتحقق الا بتفحّص الماضي الذي هو تيّار دفّاق يصب دائماً في الحاضر ، ويرفده بكل مكوناته الأساسية ، ويدفعه نحو المستقبل وهو يحمل الكثير من هذه المكونات .

وإذا ما أضفنا إلى المساحة (التاريخية) الواسعة في القرآن مسألة أخرى ترتبط بالتاريخ ارتباطاً عضوياً لأنها ملامسة وتعقيب وتعليق وإعادة صياغة وتوجيه لحشد من الوقائع التاريخية ، تلك الآيات والمواقف القرآنية التي يحدثنا عنها المفسرون في موضوع (أسباب النزول) والتي جاءت في أعقاب عدد كبير من أحداث (السيرة) لكي تعلّق وتفنّد وتلامس وتبني وتوجه وتصوغ ، انطلاقاً من هذه الأحداث التي لم تبرد دماؤها بعد ، سواء على مسرح الأرض أم في حسّ الجماعة والإنسان المسلم .. إذا ما أضفنا

هذه الآيات المنبثّة في ثنايا القرآن ، والتي تختص بها أحياناً مقاطع طويلة وسور كاملة ، استطعنا أن نتبيّن أكثر فأكثر أبعاد المساحات الشاملة التي منحها القرآن الكريم للمسألة التاريخية .

إن (الرؤية التاريخية) ترتبط بالقرآن الكريم ارتباطاً وثيقاً .. أي سورة قرأت ، أي صفحة شاهدت، طالعتك هذه العروض والاشارات المسهبة أو الموجزة ، إلى مواقف تاريخية . لا ريب أنها تشكل بمجموعها نسقاً رائعاً ومتكاملاً للتفسير الإسلامي للتاريخ . ومن أجل تواجد هذه المساحة الواسعة ، عن هذا الجانب الحيوي في القرآن كان التفسير الإسلامي أمراً محتماً ، ما دام كتاب الله يضرب دوماً على هذا الوتر الحسّاس ، ويدعو المتأملين والدارسين إلى الخروج ، في أعقاب مطالعاتهم التاريخية، بنتيجة نهائية عن مصير الحركة البشرية في الزمان والمكان ، ودور الإنسان والقوى الكونية في أمدائها القريبة والبعيدة .

إن جانباً كبيراً من سور القرآن وآياته البينات ينصبّ على اخطار البشرية بالنذير الالهي، وينبثق عن رؤية وتفحّص التاريخ ، وان أشد نداءا ت المفكرين المعاصرين عمقاً ووضوحاً تلك التي تحدثنا عما يحيط بالمسيرة البشرية في حاضرها ومستقبلها من أوضاع وعما تتطلبه من شروط ، وتنبثق هي الأخرى عن رؤية التاريخ . ونحن إذا نظرنا إلى التجارب الأوروبية المتلاحقة في عالمي الفكر والحياة لرأيناها تمدّ بجذورها إلى أعماق التاريخ باحثة عن المبررات والحجج والأسانيد ، متطلعة إلى (الصيغة) الأكثر علمية وانطباقاً على واقع المسيرة البشرية من أجل أن تعتمد في التحرك على أرضية الواقع صوب المستقبل . وليست تجارب الثورات الفرنسية ، والعسكريات الألمانية ، والاشتراكيات الطوباوية والماركسية ، في أبعادها الفكرية (الايديولوجية) والواقعية العملية ، الاّ نماذج فحسب لمدى الارتباط بين الفكر والتجربة المعاصرتين وبين الرؤية التاريخية .

إن القرآن الكريم لا يقدم (قصصه) و (صوره) و (**مشاهداته**) لمجرد ترف ذهني أو اشباع حاجة المؤمنين إلى القصص والصور والمشاهدات ، ولا لنزعة (أكاديمية) فيه تسعى إلى تتبع (ما حدث فعلاً) بأكبر قدر من الأمانة . ودون اكتراث للمدلولات الكبرى لهذا الذي (حدث) وإشاراته الأخلاقية .. إن القرآن يجيء بمعطياته التاريخية تلك من أجل أن (يحرّك) الانسان صوب الأهداف التي رسمها الإسلام ، ويبعده — في الوقت ذاته — فرداً وجماعة ، عن المزالق والمنعرجات التي أودت بمصائر عشرات بل مئات من الأمم والجماعات والشعوب .. كما يجيء بها من أجل أن يبرز الفروق الحادّة بين المجتمعات الوضعية والإسلامية (بعموم معنى الإسلام) ، كأنه يريد أن يقول للانسان الواعي ان أمامك صيغتين للعمل في العالم ، لا ثالثة لهما ، وان عليك أن تختار : إما هذه أو تلك ..

فالحركة .. لا مجرد الاستقصاء الاكاديمي أو السرد الفني ، الذي هو مجرد أسلوب أو وعاء لغوي ، كانت أبداً هدف العروض التاريخية للقرآن ، كما انها — في الوقت نفسه — هدف الايديولوجيات المعاصرة التي سبرت — بدرجة أو أخرى — أغوار التاريخ البشري ، وقدمت برامجها ومخططاتها وفق التعاليم التي تمخضت عن تلك الرحلات الطويلة في ميادين التاريخ : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ؟ ! هذا بيان للناس وهدىً وموعظة للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »[1] !! .

إن القرآن الكريم يقدم أصول (منهج) متكامل في التعامل مع التاريخ البشري ، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب ، إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية — التاريخية ،

---

١ آل عمران ١٣٧ — ١٣٩ .

كما فعل (ابن خلدون) على سبيل المثال ، فأعطى بذلك الإشارة لغيره من فلاسفة التاريخ الذين ما تلقوا اشارته تلك وبنوا عليها إلا بعد انقضاء خمسة قرون . وهذا يتمثل بالتأكيد المستمر في القرآن على قصص الأنبياء وتواريخ الجماعات والأمم السابقة وعلى وجود (سنن) و (نواميس) تخضع لها الحركة التاريخية في سيرها وتطورها وانتقالها من حال إلى حال .

ولقد وقع كثير من الباحثين وفلاسفة التاريخ المعاصرين في خطأ القول بأن (ابن خلدون) هو أول من مارس هذا (المنهج) وانه لا توجد قبله أية محاولة في هذا السبيل ، ومن عجب ان ابن خلدون نفسه — هذا العقل الفذّ — وقع في الخطأ ذاته عندما أكّد في (مقدمته) انه لم يعثر على أية محاولة في هذا المجال ، وكان أحرى به أن يبيّن ما يتضمنه القرآن من إشارات تدلّ على الطريق .

إن (المنهج) الحديد الذي يطرحه القرآن يؤكد ، أكثر من مرة ، على ان (التاريخ) لا يكتسب أهميته الايجابية الا بأن يتخذ كميدان للدراسة والاختبار ، تستخلص منه القيم والقوانين التي لا تستقيم أية برمجة للحاضر والمستقبل إلا على هداها ، وليس الأسلوب الفني في العرض والتحليل سوى جسر تحمل عليه العروض والنتائج النهائية لأية ممارسة في حقول التاريخ . ولسنا ندري سبباً صدّ المسلمين الأوائل عن اكتشاف هذا المنهج والتعامل معه سوى ان الفكر البشري عامة ، والفكر التاريخي على وجه الخصوص ، ما كان قد بلغ درجة من النضج والتطوّر تتيح له ذلك أساساً .

والقرآن الكريم نفسه يلقي ضوءاً ايضاحياً على هذه المسألة ، ففي الآية الثالثة والخمسين من سورة فصلت نقرأ (سنريهم آياتنا في الآفاق ، وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق) [٢] ، وهنالك حديث شريف

---

٢ فصلت ٥٣ .

يصف القرآن بأنه (لا تنقضي عجائبه) فكلا النصين يشير إلى ان مرور الزمن يقف دائماً إلى جانب (التفسير) لأنه يتيح من الوسائل والامكانات ما يلقي أمام المفسرين مزيداً من الأضواء والايضاحات تجاه آيات القرآن ومراميه وأبعاده . وها هي علوم الطبيعة والاجتماع والآثار والنفس والسياسة والاقتصاد ... تقدم للباحثين ، يوماً بعد يوم ، مزيداً من الأدوات والحقائق التي يمكن للمفسرين أن يجدوا بواسطتها طريقهم إلى التفسير القرآني بشكل أقل صعوبة وأنفذ ادراكاً .. ومن ثم يجب ألا نلقي اللوم ، في مجال فلسفة التاريخ وتفسيره ، على بعض المفسرين (كالطبري) و (الزمخشري) و (ابن كثير) وغيرهم ممن اضطروا إلى استخدام توضيحات وتفاصيل موارد أهل الكتاب (الاسرائيليات) بما تحمله من مبالغات وتهاويل وأخيلة تقف والبحث العلمي على طرفي نقيض ، لتفسير قصص القرآن وجوانبه التاريخية واشاراته الزمنية ، وهذا يعني أيضاً ان تلك الوسائل غير ملزمة على الاطلاق الا بقدر ما تقرب من مفهوم الآية القرآنية أو تبعد عنها . وهل ينكر أحد ان علوم الاجتماع والآثار والتاريخ ، تقدم لنا الآن وسائل أكثر علمية وموضوعية لتفسير تلك الجوانب القرآنية ، من تلك التي قدمتها لنا (الاسرائيليات) يوم كان الخيال والدوافع الذاتية والمبالغة والتهويل من أهم عناصر كتابة التاريخ ؟ وهل يرفض أحد – كذلك – الحاجة الماسة في عصرنا هذا للقيام بنشاط علمي جماعي في مجال الدراسات القرآنية ، يستهدف استئصال المواقف الاسرائيلية من تفاسيرنا استئصالاً ؟

إن (الموقف) الإسلامي من التاريخ يتميز بمرونته وبعده عن التوتر أو التأزّم المذهبي الذي يسعى إلى قولبة الوقائع التاريخية وصبّها في هيكله المسبق ، واستبعاد أو تزييف كل ما لا ينسجم وهذا الهيكل ، الأمر الذي يوقع التفاسير الوضعية في كثير من الأخطاء والانحرافات . هذا إلى أن الفكر الوضعي لا بدّ وأن يتأثر بطبيعة العصر الذي يعيشه سلباً وايجاباً ،

وبدرجة أو أخرى . وهذا (التأثير) المحتوم ينعكس ولا ريب على معطياته الفكرية سواء كانت (صيغة) هذا التأثر بشكل (تقبّل) لقيم العصر وأوضاعه ومناهجه ورؤاه ، أو (رفض) لها وتمرد عليها . ففي كلتا الحالتين يلعب الجانب التأثري الانفعالي ، والاسقاطات الظاهرة والخفيّة ، في الوعي واللاوعي ، دوره في الرؤية التي يمارسها المفكّر تجاه الأوضاع والأحداث والأشياء .

فاذا ما حدث وكان المفكر مفسراً للتاريخ ، وتفسير التاريخ – كما نعلم – توسيع للتحليل صوب الماضي والمستقبل اللذين يندّان كثيراً عن الحصر والضبط والتحديد ، فان لنا أن نتصوركم سيجيء هذا التفسير مطبوعاً بطابع العصر الذي يعيشه المفسر ، وكيف ان الأشياء والوقائع والأحداث . في الماضي والمستقبل . ستأخذ اللون الذي يجد المفسر نفسه مضطراً إلى النظر من خلال زجاجته التي أسقطت عليها مواضعات العصر الظلال والأضواء . وهذا يؤدي إلى أن تبعد التفاسير الوضعية ، بدرجة أو أخرى ، عن العلمية والموضوعية والحياد .

أما التفسير الإسلامي ، الذي يستمد من رؤية الله التي تعلو على الزمان والمكان وتتجاوز مواضعات العصر النسبية ، فانه ينظر بانفتاح تام إلى الأحداث ، ويسلّط الأضواء على مساحاتها جميعاً ، دون أن يقتصر على الأحمر أو الأخضر لكي تبدو حمراء أو خضراء .. إن رؤيته للأحداث رؤية واقعية شاملة في امتداداتها الزمنية الماضية والحاضرة والمستقبلة .. فيما كانت عليه ، وما هي عليه ، وما سوف تكون عليه . إنه – مثلاً – يعترف بالتمايز القومي ، ويعطي لهذا العامل (الواقعي) حجمه الحقيقي رغم نزعة الإسلام العالمية واستعلائه على الكيانات المحدودة المنغلقة على الاقليم أو اللون أو الجنس .. ويؤكد على ضعف الإنسان وتقلبه وعجلته ، رغم انه جاء بنظرية (الخلافة) عن الله التي رُفع بها الإنسان إلى أعلى

منزلة ، وحتّم على الملائكة أن تسجد له .

وهذا يقودنا إلى حقيقة أساسية ، وهي أن التفسير الإسلامي تفسير (واقعي) لا يتأثر بقيمه ومثالياته الممكنة الوقوع أساساً ، في تفسيره للواقع — كما يفعل هيغل وماركس على سبيل المثال — انما يتكلم على الواقع كما هو ، دون تبرير أو تعديل أو تحوير ، ولكنه من خلال حركته على أرض الواقع هذه ينطلق إلى أهدافه ومثالياته وآفاقه .. انه يسمي معركة (حنين) هزيمة وفراراً ويخاطب مهزومي (أحد) بأنهم هم كانوا السبب وراء تلك الهزيمة ، ويعلم المسلمين من خلال واقعيته هذه ، ألا يبرروا أخطاءهم وينحرفوا في تفسير الأشياء والوقائع ، ولكنه يعلمهم — في الوقت نفسه — أن يفيدوا من هذه الرؤية الواقعية للتاريخ لصياغة العالم المرتجى .

وهكذا فان ثمة فرقاً (منهجياً) حاسماً بين المذاهب الوضعية وبين المذهب الإسلامي في تفسير التاريخ .. في الأولى تصاغ حقائق التاريخ وفق المذهب (المصنوع) سلفاً فتقسر على الانسجام مع وضعية المذهب وتساق للتدليل عليه وتأكيده . وهذا الخطأ يجيء من حقيقة ان وقائع التاريخ سبقت في الزمن تخطيط المذاهب ، ومن ثم فان المذاهب جاءت كقضية (بعدية) تسعى إلى أن تجبر (القبليّـات) على التشكل بها .

وهذا التأزّم المذهبي ، هذا التحديد الصارم للنظم التي تتبعها الوقائع التاريخية في سيرها ، هذا التوتر في التزام هيكل نظري مسبق ، تساق أحداث التاريخ للتدليل عليه بالحق والباطل ، والذي بلغ أقصى حدته في المادية التاريخية التي رسمها (ماركس وأنكلز) ، دفع عدداً من المفكرين الأوروبيين إلى اتخاذ موقف معاكس تماماً ، يمثل رد فعل ازاء الموقف السالف ، بحيث انهم رفضوا القول بخضوع الحركة التاريخية لأي ناموس أو سنّة ، ومسيرتها وفق أي نظام مهما كان .. وقد بلغ هذا الموقف ،

غير الموضوعي ، هو الآخر ، أقصى حدته على يد (كارل پوپر) في كتابه (عقم المذهب التاريخي) .

أما في القرآن فان التفسير ينبثق عن رؤية الله سبحانه ، وهي تختلف عن الرؤية الوضعية في أنها تحيط علماً بوقائع التاريخ ، بأبعادها الزمنية الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل ، وببعدها الرابع الذي يغيب كثيراً عن ذهن الإنسان مهما كان على درجة من اللماحية والبصيرة والذكاء ، البعد الذي يغور في أعماق النفس البشرية فيلامس فطرة الإنسان وتركيبه الذاتي . والحركة الدائمة في كيانه الباطني ، وينسرب بعيداً صوب اهتزازاته العقلية والعاطفية والوجدانية. وارادته المسبقة ، وما تؤول اليه هذه جميعاً من معطيات تمنح حركة التاريخ أبعادها الحقيقية ، وتمتد كذلك لكي يشتبك في العلاقات الشاملة للمصير . ذلك انهـــا رؤية الذات الالهية التي وسعت كل شيء علماً ، والتي صنعت الواقعة التاريخية ووضعتها في مكانها المرسوم من خارطة التاريخ البشري والكوني على السواء .

ومن ثم فإن التفسير القرآني ليس أبداً مجرد مسلّمات بعدية تسعى إلى أن تقولب حوادث التاريخ القبلية في إطارها المعتسف وإنما هو مذهب ينبثق وفق أسلوب موضوعي (عما حدث فعلاً) لا (عما يجب أن يكون) وعن طبيعة التصميم التاريخي للبشرية ، فهو إذن تبلور للخطوط الأساسية لحركة التاريخ يصوغها القرآن الكريم في مبادىء عامة يسميها (سنناً) ويعتمدها المفسرون الإسلاميون منطلقاً – لا لتزييف التاريخ – وإنما لتفسيره وفهمه وادراك عناصر حركته ومصائر وقائعه ومسالكها المعقدة المتشعبة . وهو – إذن – تفسير شامل محيط ، يعطي أصدق صورة للسنن التي تسيّر هذا التاريخ ، وبما ان هذه السنن من صنعه تعالى ، ارادة وعلماً ومصيراً ، فان هذا الموقف القرآني من حركة التاريخ وتفسيره يأخذ صفة الكمال .

الرؤية الوضعية تمتد إلى الماضي لتقبس منه و (تختار) ما يعزّز وجهات نظرها المسبقة ، والرؤية القرآنية تحيط بالماضي لكي تكتشفه في قواعد وسنن تطرح أمام كل باحث في التاريخ يسعى إلى فهمه ، وإلى أن يرسم على ضوء هذا الفهم ، طرائق حياته الحاضرة والمستقبلة ، باعتبار أن الأزمان الثلاثة انما هي وحدة (حيوية) تحكمها قوانين واحدة كتلك التي تحكم الحياة سواء بسواء .

من أجل هذا يغدو (التاريخ) في القرآن الكريم وحدة زمنية .. تتهاوى الجدران التي تفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل ، وتتعانق هذه الأزمان الثلاثة عناقاً مصيرياً .. حتى الأرض والسماء ، زمن الأرض وزمن السماء ، قصة الخليقة ويوم الحساب .. تلتقي دائماً عند النقطة الحاضرة في عرض القرآن .. فهذا الانتقال السريع بين الماضي والمستقبل ، بين الحاضر والماضي ، وبين المستقبل والحاضر ، يوضّح حرص القرآن على ازالة الحدود التي تفصل بين الزمن باعتباره وحدة حيوية متصلة ، فتغدو حركة التاريخ ، التي يتّسع لها الكون ، حركة واحدة تبدأ يوم خلق الله السموات والأرض وتتجه نحو يوم الحساب .

إن الحياة الدنيا (فعل) تاريخي مستمر يتشكل من الماضي والحاضر ويرتبط بمستقبل يوم الحساب الذي هو بمثابة المصير النهائي لفاعلية الإنسان في العالم ، ولهذا يقدم لنا القرآن الكريم وصفاً رائعاً ، يتميز بالحيوية والتدفّق لمجرى التاريخ البشري،وبهذا التوافق بين الماضي والحاضر والمستقبل وينقلنا بخفة وإبداع بين الآونات الثلاث حيث تذوب الفواصل والحواجز وتسقط الجدران .

وتبدو نزعة الإسلام الشمولية ، والموضوعية في الوقت نفسه ، بانفتاحه الكامل على كافة (القوى الفاعلة) في التاريخ ، المنظورة وغير المنظورة ، العقلية والوجدانية ، الروحية والمادية ، الطبيعية والغيبية ، وبعدم تجزيء

الرؤية وعزل الأرض عن موقعها الصحيح في الكون وارتباطاتها الشاملة بما حولها .

لقد شنّ فلاسفة التاريخ الغربيون حملة قاسية على (ارنولد توينبي) في كتابه الشهير (دراسة للتاريخ) ووصفوه بأنه مفكر لاهوتي مزج استنتاجاته الفكرية بكثير من القيم والرؤى الروحية . والحقيقة ان خطوة توينبي تعتبر فتحاً جديداً في مجال التفسير التاريخي ، كما كان كتاب (شبنغلر) : (سقوط الحضارة الغربية) قد شكل جزءاً كبيراً من هذا الفتح . ولكن خطوة (توينبي) هذه ، ومن قبله (شبنغلر) ، فيها نوع من التأرجح وعدم الاتزان ، أو بالأحرى نوع من الانفصاليـــة (العلمانية) بين القيم العقلية والروحية ، ومن هنا استطاع العقليون والماديون والطبيعيون أن يجدوا ثغرات واسعة للطعن ضد (توينبي) .

إن معظم مذاهب التفسير التاريخي ، وضعية كانت أم دينية ، قدمت معطياتها متخطية الإجابة عن هذا السؤال المهم : ما هي العلاقة بين الله سبحانه وبين الطبيعة ، بما فيها القوى المادية ، والإنسان ، بما أنه روح ومادة ، في صنع التاريخ وإقامة الحضارات ؟ وهل من المحتم أن تتكىء أحداث التاريخ على عامل واحد من بين هذه العوامل الثلاثة ويلغى العاملان الآخران ، أو على الأقل يغدوان ظلالاً باهتة لفاعلية العامل الرئيسي ؟ ولماذا هذه الجدران التي أقيمت بين الله والطبيعة والإنسان ؟

إن معظم مذاهب التفسير تخطت الاجابة عن هذا السؤال ، تاركة في طريقها ثغرة عميقة، ومنغلقة، في بحثها على الفرضية التي تمنح صفة الفاعلية لعامل واحد وتلغي العوامل الأخرى إلغاء .. ومن ثم برز التفسير السحري (الميتافيزيقي) للتاريخ ، وتطور ليعبر عن نفسه بالتفسير (اللاهوتي) الذي ساد تفكير مثقفي العصور الوسطى الأوروبية ، كما برز التفسير

الفردي (البطولي) للتاريخ ، والتفسيرات الطبيعية التي بلغت أقصى حدتها (بالمادية التاريخية) التي يصفونها (بالعلمية) ! !

ولقد أدرك بعض فلاسفة التاريخ المعاصرين ، وعلى رأسهم (شبنغلر) و (توينبي) و (كيسرلنج) والناقد (كولن ولسون) ، وغيرهم ، أبعاد هذا الخطأ ، فعادوا خطوة متمعنة إلى الوراء لكي يجيبوا عن السؤال الأول ، ويجتازوا — من ثم — طريقاً مرصوفاً لا ثغرات فيه . والحق أن (التفسير الحضاري) تقدم خطوات في هذا المجال ، خطوات تتسم بقدر من الموضوعية والشمول الذي يستند إلى نظرة كلية وادراك عميق لمقومات الحدث التاريخي . ولكن الموقع الذي رصد منه هؤلاء التاريخ ، وفلسفوا حركته ، تقف أمامه كثير من المرتفعات كسدود وحواجز تمنع الرؤية الكاملة والحكم الشامل الصحيح . كما أن التجربة النفسية التي لامسوا بها احداث التاريخ تحمل الكثير من عناصر (الذاتية) المزدوجة والتأثيرات العلمانية ، لذا فانهم لم يقدروا على اعادة الالتئام الكامل بين فاعلية العوامل الثلاثة ، وأبقوا بعض الجدران المزيفة ، مرئية وغير مرئية ، بين الحضور والغياب ، والله والإنسان ، والمادة والروح ، والطبيعة وما وراء الطبيعة .

صحيح أنهم أعلنوا ان الحدث التاريخي لا يمكن أن تصنعه قوة واحدة ، أو أن يصدر عن طرف واحد ، لأن أية (حركة) تاريخية انما هي نتاج لقاء خلاّق بين الله والإنسان والطبيعة ، بما فيها الزمن، ولأن إغفال أي عنصر منها انما هو جهل بالأسس الحقيقية لحركات التاريخ .. لكنهم لم ينجوا من الوقوع في أسر المذهبية المحدودة ، والنظرة الذاتية ، واضطراب التجربة النفسية في عملية الاستشراف والاستقراء التاريخي ، الأمر الذي أدى إلى تأرجح مواقع رؤياهم والوقوع بالتالي في كثير من الأخطاء التي سنعرض لبعضها في دراستنا هذه .

ان تفسير التاريخ البشري يجب أن ينبثق عن موقف موضوعي شامل ، يربط ويوازن ويدرك العلاقة المتبادلة بين سائر القيم التي تصنع التاريخ مادية وروحية ، طبيعية وغيبية ، ولن يتحقق هذا بطبيعة الحال الا في نطاق (الموقف الإسلامي) حيث لن يستطيع مفكر أو ناقد أن يجد أي مجال للطعن ضد القيم الروحية ، إذ هي هنا ليست منفصلة عن (المادية) و (العقلية) ، وهي تعمل بانسجام وتوافق مع سائر القوى الطبيعية ، في تحريك وتوجيه الأحداث التاريخية . ذلك ان القيم الروحية في الإسلام ليست مجرد ممارسات فردية شعائرية ، بالمعنى اللاهوتي ، بل هي قيم ذات جذور عريضة وارتباط متين بقلب العالم ، وحركة التاريخ ، وبواقع الحياة البشرية والوجود الجماعي على السواء .

* * *

لقد أدركت من خلال تدريسي مادة (مناهج البحث وفلسفة التاريخ) لطلبة كلية الآداب مدى ضرورة عرض التفسير الإسلامي للتاريخ ، في بحث موسّع شامل يستمد رؤيته من كتاب الله مباشرة ، ويتجاوز — كلية — معطيات الفلاسفة والمفكرين القدماء والمحدثين ، الذين تأرجح كثير منهم بين تهاويل الخيال القصصي الاسرائيلي وبين أطروحات الفلسفة اليونانية ، ذات التصوّر الوثني ، وبين النزعات العقلية والطبيعية التي سادت القرنين الأخيرين . ولقد قادهم هذا التأرجح والجنوح إلى مواقع ومواقف ما تلبث أن تتفكك ويبدو زيغها واصطناعها الكيفي بمجرد عرضها على المعطيات القرآنية مباشرة .

وما دام الأمر يستهدف عرض وتحليل الموقف الإسلامي من حركة التاريخ ، فان لنا ، إذا ما توخينا الدقة والموضوعية ، ألا نرجع إلا إلى مصدره الأول والأخير : القرآن. وهكذا وجدتني ملزماً أن أقف، بالصرامة

التي يتطلبها منهج البحث العلمي ، عند معطيات هذا المصدر اليقيني الثابت ، منذ أول خطوة في البحث وحتى آخر كلمة فيه .. وأرجو أن أكون قد أسهمت — بجهدي هذا — في ميدان خصب، عميق ، لا يزال ينتظر الكثير الكثير من البحث والدراسة والتحليل .

إن أية نظرة سريعة تجاه معطيات الفكر الفلسفي الراهن وعروض المكتبة المعاصرة تطلعنا على حشد كبير من الأبحاث والمؤلفات المتعلقة بنظريات التفسير الوضعي للتاريخ ، وبخاصة التفسير المثالي (لهيغل) والمادي (لماركس) و(انكلز) والحضاري (لشبنغلر) و (توينبي) ، ويمكن أن نضيف إليها التفسير الجنسي (لسيغموند فرويد) .. لكننا لا نجد ازاء هذا كله دراسات منهجية متكاملة لعرض التفسير الإسلامي للتاريخ ، من خلال الرؤية القرآنية ، عرضاً تحليلياً مستقلاً .

هنالك شذرات عن المسألة في كتاب محمد اقبال (تجديد الفكر الديني في الإسلام) يطغى فيها التحليل العقلي على الاستمداد الموضوعي من القرآن ، وبحث التفسير الإسلامي في كتاب عبد الحميد صديقي (تفسير التاريخ) لا يعدو أن يكون محاولة مستعجلة لتقديم بعض ملامح الموقف ، تفتقد في كثير من جوانبها العمق المنهجي والتماسك ، على ما فيها من جدة وجرأة في طرق باب جديد ، أما كتاب راشد البراوي (التفسير القرآني للتاريخ) فهو مجموع دراسات اقتصادية في القرآن الكريم لا علاقة لها بتفسير التاريخ اللهم الا الصفحات الأخيرة من الكتاب ، والتي يمر فيها بالمسألة مروراً سطحياً سريعاً ، وكان أحرى أن يسمى الكتاب (دراسات اقتصادية في القرآن) بدلاً من تسميته تلك . ونجد في كتاب ويدجري (المذاهب الكبرى في التاريخ) ، صفحات خمساً أو ستاً يستلهم فيها كتاب (اقبال) آنف الذكر أكثر مما يستلهم القرآن .

ويبقى المثقف المسلم ، والمؤرخ المتخصص ، والطالب الجامعي — بعد

هذا – في حاجة إلى مرجع منهجي يرتبط بالقرآن ارتباطاً عضوياً ، ما دام يسعى إلى كشف الرؤية القرآنية نفسها تجاه حركة التاريخ . ويستمد مادة بنيانه من معطيات القرآن ذاته ، ويعتمد المنهج الحديث للبحث ، بادئاً بتجميع كافة (النصوص) المتعلقة بالموضوع . منسقاً إياها بعد هذا وفق بنيتها وارتباطاتها ، محللاً ، في نهاية الأمر ، مضامينها المتنوعة المتشابكة ، مقطعاً مقطعاً وفصلاً فصلاً ، من أجل أن يظل البحث متماسكاً مترابطاً يخدم هدفه الواحد وهو البحث عن الخطوط الشاملة للتفسير الإسلامي للتاريخ من خلال الرؤية القرآنية . وما هذه الدراسة ، التي بين يدي القارىء ، سوى محاولة أولية في هذا السبيل ، أرجو أن يتجاوز الباحثون في المستقبل القريب ، أخطاءها وسلبياتها من أجل الوصول إلى الأحسن والأكمل باذن الله .

وإذ آثرت عبر فصول البحث كله إجراء مقارنات بين كل نظرة أو موقف اسلامي إزاء التفسير التاريخي وبين ما يقابله من نظرات ومواقف في التفاسير الوضعية وبخاصة (المثالية) و (المادية) و (الحضارية) .. فقد وجدت لزاماً عليّ أن أعرض على القارىء في فصل تمهيدي – وبإيجاز تام – الخطوط العريضة لتلك المذاهب ، والنقد الموجّه اليها ، لكي يكون على بيّنة من أمره ، ويقدر على متابعة المقارنات المنبثّة في صفحات الكتاب . ومن ثم فان هذا الفصل (التمهيدي) لا يعدو أن يكون تلخيصاً وتركيزاً ، مع اضافات وتعليقات خاصة ترد بين الحين والحين ، لأبحاث عدد من الكتّاب والمفكرين وبخاصة : أطروحة (مُنح خوري) القيّمة عن (التاريخ الحضاري عند توينبي) وكتاب (توينبي) الملخّص نفسه (مختصر دراسة التاريخ) و (مدخل لفلسفة التاريخ عند هيغل) – (لهيبوليت) ، والمحاضرتين القيّمتين : الثانية والثالثة من كتاب (صدّيقي) (تفسير التاريخ) واللتين يتناول فيهما تفسيري (هيغل)

و (ماركس) على التوالي ، وكتاب (التفسير الاشتراكي للتاريخ) (لفردريك انكلز) .

وأعترف بأنني لم أبذل في هذا الفصل (التمهيدي) جهداً يذكر ازاء ما بذلته في تعقّب (النظرية) عبر القرآن نفسه ، اللهم الا جهد التلخيص والتركيز والتنسيق ، حسبما يسمح به الموقف ، فضلاً عن تحديد الانتقادات الأساسية التي لن ينجو منها أي جهد وضعي يعتمد الطاقات البشرية النسبية وحدها ، ولا يستمدّ من الله .. « أفمن أسّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرفٍ هار فانهار به في نار جهنم ؟ والله لا يهدي القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم ، الا أن تقطع قلوبهم ، والله عليم حكيم » [3] .

عماد الدين خليل
كلية الآداب ـ جامعة الموصل

---

٣ التوبة ١٠٩ – ١١٠ .

الفَصْلُ الأوّل

التفاسير الوَضْعِيَة الأساسِيّة

(عرض ونقد)

التفسير المثالي : هيغل *

تمكن تعريف فلسفة هيغل التي يدين لها ماركس بالشيء الكثير بأنها (مزيج المتناقضات) فهو يرى ان كل عصر أو فترة أساسية في تاريخ الحضارة الاجتماعية تمثل وحدة مستقلة، وأن ملامحه السياسية والاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية العامة والجمالية والعقلية والدينية كلها جوانب أو نواح للمجموع الحيّ Living Totality ومنها جميعاً يتكون كيان متجانس . و « إن كل فترة أساسية تنمّي فكرتها الرئيسية الى الحد الأقصى ثم تولد اضدادها أو نقائضها » . ويستمر الصراع دائماً . فتتحد المبادىء المتناقضة في وحدة عليا هي (الموحّد) ، وهذا الموحّد يندفع مرة ثانية الى الحد الأقصى وينشب صراع جديد فيتولّد حينئذ مرة أخرى موحّد يحوي ما هو فعّال من كل من الفرضية ونقيضها . وبهذا الأسلوب الثلاثي تتقدم الفكرة حتى نصل آخر الأمر الى (المطلق) الذي نستطيع أن نبقى نتأمله الى الأبد دون أن نتبيّن فيه أي تناقض . ويمكن توضيح ذلك بعدة أمثلة : أعلنت اليونان القديمة ديموقراطية محدودة تعني ان بعض الناس

---

* عن عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ ، ترجمة كاظم الجوادي ، ص ٦١ — ٦٨ (الدار الكويتية للطباعة والنشر) .

وهم كل طبقة المواطنين ، أحرار . وبهذا اكتشفت أثينا مبدأ الفردية والحرية المقيدتين . وإذ دفعت الديموقراطيات اليونانية مبدأ حرية الفرد إلى حدّ الأنانية المستغلة فانها حطمت بذلك وحدة كيان دولة المدينة City State . وقامت روما فأعلنت مبدأ الشخصية العالمية .

إن الفرد شخص ، كمواطن لامبراطورية عالمية . ولكنّ روما لم تسلّم بأن الفرد ككائن ذي روح حرّ فقط كمواطن . والمسيحية التي قامت في الامبراطورية الرومانية أعلنت ، بفكرتها عن الإله البشر ، الاتحاد الشامل بين الفرد المستقل والروح العامة . لقد حققت الشعوب الجرمانية هذا المبدأ أول مرة في النظام السياسي الاجتماعي . فكل الناس فيه أحرار كأشخاص . ولكنهم اذ يكونون أشخاصاً فمعنى ذلك أن يكونوا أعضاء في الدولة التي هي الوحدة الجامعة التي تحمي وتغذي الأسرة والمجتمع المدني والكنيسة والحضارة . فالدولة تجريد غير واقعي بغير أعضائها . والفرد لا يكون انساناً ما لم يعمل بتعاون كعضو في الدولة . وهذه الجماعية التي ظهرت في القرن التاسع عشر هي مجرد رد فعل للفردية ، وهي حسب ما يرى هيغل خير وأكثر انطباقاً على الحقائق اذ انها تتضمن العناصر الفعّالة من الفردية أيضاً . وفي كل حالة تظهر من التقاء الاتجاهات المتضادة نتائج مثمرة .

وهكذا نجد أن جوهر التطور حسب رأي هيغل انما هو نتيجة صراع المتناقضات على أساس ان كل ظاهرة تحتوي تناقضاً داخلياً يدفعها إلى الأمام ويؤدي بها آخر الأمر إلى تحطّمها وتحولها إلى شيء آخر. الا ان تحطّم ظاهرة ما انما هو الفرصة لانبثاق ظاهرة جديدة تدفع بلا شك الظاهرة السابقة ، ولكنها في الوقت نفسه تحتوي في ذاتها على كل عناصرها الفعّالة . وبهذه الطريقة يتحول النظام الفلسفي إلى نظام آخر .

ان كل فيلسوف سبق هيغل اعتبر نظامه حقيقة مطلقة وكل ما سبق

من أنظمة مجرّد أوهام خداعة ، ولكن هيغل أظهر أن هذه النظرة تتسم بالسذاجة وان كل نظام فلسفي هو خطوة في تطور الروح المطلقة . وهذه الروح في كل حقبة من حقب التاريخ تتوصل إلى ادراك ذاتها بشكل فلسفة محدودة تطابق المحتوى التاريخي لمرحلة التطوّر تلك . ولكن هذا الشكل يظهر في حقبة أخرى شكلاً قديماً ويخلي مكانه لخليفته الذي يزيحه دون ريب ، ولكنه يحتوي أيضاً في ذاته على ما في الفلسفة المندحرة من نواح فعالة .

ثم ان هيغل يدّعي ان الصيرورة ليست متروكة « للمصادفة والأسباب العارضة » بل هنالك (ارادة مخططة) وراءها، وان هدف هذا الصراع والتوفيق انما هو تطوير (روح العالم) التي تتجه دائماً نحو غايتها ، ألا وهي (تحقيق الذات – (Self - realization)) . يقول هيغل : « اننا نستنتج مجرد استنتاج من تاريخ العالم ان تطوره كان دائماً صيرورة عقلية (أي حركة فكرية متقدمة نحو الأعلى) ، وان هذا التاريخ قد أنشأ الطريق المنطقي الضروري لروح العالم .. تلك الروح التي طبيعتها دائماً واحدة لا تتغير ، والتي تعرض هذه الطبيعة في ظواهر وجود العالم » ، لذا « فان تفسير التاريخ هو بيان لعواطف البشر وعبقرياتهم وقواهم الفعّالة التي تقوم بدورها على مسرح العالم الكبير ، وان الصيرورة التي تقررها المشيئة السامية المهيمنة والتي تعرضها تلك العواطف والعبقريات والقوى الفعّالة ، هذه الصيرورة تكوّن ما يسمى بصورة عامة بخطة المشيئة العليا » .

قد يبدو لذي النظر السطحي ان الناس أحرار في أن يعملوا ما يشاؤون كما يريدون وان أعمالهم تنبعث عما يشعرون به من حاجات وعواطف وعما يتمتعون به من مزايا ومواهب ، ولكن هيغل يرى ان هذا تصوّر شديد الخطأ عانى منه البشر الكثير منذ زمن سحيق . فهذه الأعمال جميعاً

تتم بأمر (روح العالم) ، « وهذه المجموعة الكبيرة من الرغبات والميول والنشاط تؤلف الأدوات والوسائل التي تستعين بها (روح العالم) لكي تبلغ غايتها،وهي التي ترقى بها (أي الروح) إلى الوعي وهي التي تجعلها حقيقة في عالم الوجود » . وكذلك فان أهداف كل العظماء تدخل فيها تلك القضايا الكبار التي هي ارادة (روح العالم) . « انهم قد يسمون أبطالاً من ناحية كونهم قد استمدوا غاياتهم ودعوتهم لا من الأوضاع الاعتيادية الهادئة التي يقرّرها النظام القائم بل من مصدر خفيّ » . إنهم ربما يعتبرون أنفسهم رجالاً أحراراً يستمدون باعث حياتهم من أنفسهم ومما يشعرون به شخصياً من أنواع الاهتمام والميول ، ولكن الحق انهم جميعاً دمى في يدي (روح العالم)،فهم يجهلون تماماً الفكرة العامة التي يعرضونها عندما يسعون وراء تحقيق أهدافهم تلك . وليست عظمتهم في الحقيقة الا في أن لديهم البصر النافذ الذي فيه من العمق ما يكفي لأن يدركوا متطلبات الزمن . « وكان مما امتازوا به أنهم عرفوا هذا المبدأ الناشىء وهو الخطوة الضرورية التي ستلي مباشرة في طريق التقدم التي قدّر للعالم أن يخطوها وأنهم جعلوها هدفهم وبذلوا طاقتهم في إنجاحها » .

إن المسألة هي ما الذي يميز هؤلاء الأبطال من سواهم من عامة الناس ؟ الفرق الوحيد الذي يبيّنه هيغل هو صفاء النظر . فهم يسمعون نداء (روح العالم) بوضوح أكثر من بقية الناس . والنتيجة المنطقية لهذا ان هؤلاء الأبطال يجب ألا يعيروا سمعاً لنصح الجماهير لأن الجماهير لم توهب الذهن الصافي الذي يلتقط اشارات (الروح) . يقول هيغل : « لذا فان الرجال الخالدين في تاريخ هذا العالم ... أبطال عصر من العصور .. يجب أن يعترف لهم بصفاء البصيرة ويعترف بأن أعمالهم وأقوالهم خير أعمال ذلك العصر وأقواله . لقد كوّن العظماء أغراضاً يرضون بها أنفسهم ، لا الآخرين . ومهما كانت الخطط الحكيمة والنصائح التي ربما يكونون قد تعلموها

من الآخرين فانها تكوّن في سيرتهم العملية ملامح أضيق حدوداً وأشد تنافراً لأنهم هم أنفسهم يفهمون الأمور أحسن مما يفهمها الآخرون ، الذين يتعلم بقية الناس منهم ويؤيدون سياستهم أو ، على الأقل . يذعنون لها . اذ ان تلك الروح التي خطت هذه الخطوة الجديدة في التاريخ هي الروح التي تسكن أعماق كل فرد ولكن في حالة من الغفلة وعدم الوعي فيوقظها هؤلاء العظماء الذين نتحدث عنهم . لذا فان أصحابهم يتبعون قادة الروح هؤلاء لأنهم يشعرون بأن قوة أرواحهم أنفسهم ... هذه القوة التي لا تقاوم ، قد تجسدت بهذا الشكل » . لذلك فهم معصومون من الخطأ وأعمالهم فوق كل أنواع النقد وكل ما يفعلونه سلوك حميد لأنهم عظماء وقد أرادوا شيئاً عظيماً ونفذوا ارادتهم وفقاً لحاجة العصر . وان أعمالهم العظيمة هذه لها أهمية كبيرة تجعلها أسمى من أن توزن في ميزان الفضيلة والأخلاق الحميدة .

يقول هيغل : « بل انه لمثل هؤلاء الرجال أن ينظروا إلى المصالح العظيمة الأخرى .. وحتى المقدّسة منها بدون اكتراث ، وذلك تصرّف يعرّض أصحابه إلى تأنيب الضمير . ولكن هذا الشكل ذا القوة الكبيرة لا بدّ أن يدوس الكثير من الأزهار البريئة ويحطم الكثير من الأشياء التي تقف في طريقه . » هؤلاء العظماء وحدهم يعرفون ما هو الشر وما هو الخير ، وأعمالهم تحمل ختم المصير المطلق المتعالي .

يعتقد هيغل ان هذه الفكرة عن الأخلاقية تحلّ أحد الألغاز الكبرى في حياة البشر ، وهو ان الطيّب التقي .. غالباً .. أو في أكثر الأحيان .. يعيش عيشاً نكداً في هذا العالم ، بينما الخبيث الذي يميل إلى الشر يعيش عيشا سعيداً منعماً . فهو يرى ان الانسانية إذا أخلصت نفسها لهدف واحد ووجهت جهودها اليه دون النظر إلى كل ما سواه فحينئذ لا يمكن أن يعتبر ما يسمى « تعساً أو منعماً من الأفراد المعزولين عناصر أساسية في

النظام المنطقي المحكم الذي يسير عليه العالم . وكل ما هو مطلوب انما هو أن يتحقق هذا الهدف العظيم . وان الناس ليشعرون بعدم الرضا لمجرد أنهم لا يجدون الحاضر ملائماً لتحقيق الأهداف التي يعتقدون أنها حق وعدل » .

والأمر الآخر الذي يجب بحثه : ما هو الشكل الذي به يمكن تحقيق الهدف العظيم ؟ يخبرنا هيغل بأنه (الدولة) ولكنها لا تعني عنده السلطة الملزمة التي تكون قانوناً فوق كل فرد أو جماعة وتكون جزءاً من المجتمع. انها الشكل الذي تتخذه الروح اذ تتجسد تجسداً كاملاً ، « وهذا هو اتحاد الذاتي مع الارادة العقلية ، انها الكل الأخلاقي ، الذي هو ذلك الشكل من الحقيقة الذي فيه يكون للفرد حرية يتمتع بها .. ولكن على شرط أن يعترف بالأمور المشتركة لهذا (الكل) ويعتقد بها وتتجه ارادته نحوها». ان الارادة الذاتية .. والاندفاع الذاتي يحركان البشر ويدفعانهم إلى النشاط ، الذي يحقق (الوجود العملي) . ان الفكرة هي المنبع الداخلي للعمل والدولة هي الحياة الخلقية المتصورة التي توجد حقيقة في عالم الواقع . لذا فكل ما لدى الأفراد من أخلاق انما حصل لديهم بهذه الطريقة فقط . إنها في الحقيقة فكرة الروح ظاهرة في المظهر الخارجي للإرادة الإنسانية وحريتها . ويعرفها هيغل بأنها (فكرة الهية) لأنها توجد على الأرض .

هذه بصورة مختصرة الخطوط العريضة لفلسفة التاريخ كما عرضها هيغل ، ولنا بعد ذلك ان نعرض – بإيجاز كذلك – لأهم النقدات الموجهة اليها :

النقد

١ — إن الإنسان المتوسط الذكاء يقرّ بأن كل شيء مدين بوجوده إلى نقيضه ، وبأن هنالك صراعاً أبدياً بين الميول والاتجاهات المتضاربة ، وبأنه حين يحقق نظام اجتماعي ما كل ما فيه من امكانيات يبدأ بالانحلال ، وتتولد من باطنه نفسه قوى تحطمه تماماً وتقيم أنظمة جديدة على أنقاضه . ولكن هيغل يتوسع فيما يدعيه أكثر مما يجب . انه يعتقد ان هنالك صراعاً دائماً وتوفيقاً بين النقائض ، وان الموحّد يحتوي على العناصر التي لا تزال فعالة من كل من الفرضية ونقيضها ويقرّبنا خطوة واحدة من الحقيقة [1] . ونحن إذا حللنا خط المناقشات عن كثب وجدنا ان هيغل ، رغم المستوى العالي الذي يتمتع به من الذكاء ، لا يفرّق بين ما هو نقيض وما هو واضح متميز . يقول كروجه بهذا الشأن : « من ذا يستطيع أن يقنع نفسه بأن الدين هو عدم وجود الفن وأن الفن والدين ما هما الا تجريدان ليست لهما حقيقة إلا في الفلسفة ، موحّد الاثنين ، أو أن الروح العملية هي نفي الروح النظرية ، وأن المحسوس نفي للحدس، وان المجتمع المدني نفي للأسرة، وان السلوك الخلقي نفي للحقوق، وان كل هذه التصورات لا

---

١ لا يقصد هيغل بذلك الحقيقة المادية بل المطلق الذي تنحل فيه جميع المتناقضات : المرجع السابق ، ص ٦٨ هامش ٢ .

يمكن التفكير فيها خارج نطاق موحّدها الذي هو الروح الحرّة والفكر والنزعة الأخلاقية للدولة ، بنفس الطريقة كالوجود وعدمه ، التي لا تصدق إلا بالصيرورة فقط [٢] . »

٢ — ان الخطوط التي تمثل الحدود بين الفرضية ونقيضها مرتبطة مع بعضها ارتباطاً وثيقاً حتى ليستحيل رسم خط فاصل بينهما . ان هذا يكون صعباً بصورة خاصة في الحركات التي ليست لها صفة الثبات وإنما هي دائماً متحركة . ومهما بلغ المرء من الذكاء فانه لا يستطيع أن يجزم بالقول بأن هذه هي نهاية الفرضية وان الخطوة التالية تكون في عالم النقيض . ولا يوجد خط حدود واضح يفصل الواحد عن الآخر . ربما يكون هنالك فرق في الدرجة ولكن لا في النوع .

٣ — اننا إذا اعتقدنا بأن النقيض يتولد من باطن الفرضية نفسها أدى بنا ذلك إلى أن نعتقد بأن النقيض هو ضد الفرضية في كل ناحية . وهذا يعني انه لا يوجد شيء مشترك بين النظامين . وحين تكون الحالة هكذا فكيف يكون ممكناً أن تذوب الفرضية تماماً في خصيمها ؟ ان الامتزاج بينهما لا يكون ممكناً إلا حين يكون هنالك شبه بينهما . فاذا فرضنا انه يوجد حقاً بعض العوامل المشتركة بينهما لم يمكن حينئذ أن نسميهما بالنقيضين ، لأن النقيضين يجب أن يكونا مختلفين في ما بينهما من كلّ وجه ، ان التوفيق بين الفرضية ونقيضها ناتج عن الحب (والتجاذب) لا الصراع (والتنافر).

٤ — أما قول هيغل بأن النقيض لا ينفي الا النواحي الناقصة من الفرضية فانه يؤدي إلى سوء فهم آخر . ان هذه الفكرة تجعل المرء يستنتج ان الصراع بين المتناقضات منطقي تماماً وتقوم على إنجازه الحكمة الواعية التي يتمتع

---

٢ المرجع السابق ص٦٨ — ٦٩ عن Benedetto Croce : What is Living and What is Dead the Philosophy of Hegel, p. 97.

بها الأفراد . إلا أن هيغل، على العكس من ذلك ، يقول ان الأفراد ليس لهم في الخطوط العريضة من التطور التاريخي إلا معلومات بسيطة جداً عما يقومون به فعلاً ، إذ أنهم كلهم مجرد أدوات وليسوا سادة هذه الصيرورة التاريخية . فهذه الصيرورة صيرورة لاشعورية بالنسبة للأفراد .

والسؤال الذي يبرز هنا هو : إذا كانت كل حوادث العالم ليست نتيجة الإرادة الواعية للأفراد فكيف تم القيام بها ؟ « ان هيغل لا يعطي جواباً معيناً عن هذا . بل انه ليبدو كأنه ليس الأمر المهم هو كيف تم القيام بها وإنما إلى أي حد تبدو هذه الصيرورة اللاشعورية ، حين نلتفت إلى الوراء لننظر اليها ، منطقية ممكنة التصوّر ؟ وهو يتحدث عن كل هذا التطور كما لو لم يكن من عمل القوى العقلية لأي شخص وهو مع ذلك من عمل (العقل بصورة عامة) ، كأن الأفكار يمكن أن تؤدي عملها دون أن تكون هذه الأفكار في عقل أي شخص »[٣] . هذه الطريقة من الكلام ليست سوى إضفاء الارتباك والإبهام على الكلمات .

٥ — إن الأفكار ليست مجزأة إلى أجزاء واضحة التقسيم ، بل ان كل فكرة وحدة قائمة بذاتها يستحيل أن تقسم أقساماً مختلفة ، لذا فليس من أساس لما يدّعي من أن نتيجة التوفيق بين الفرضية ونقيضها — وهي النتيجة التي تسمى الموحّد — هذه النتيجة التي هي الفرضية الجديدة ، تضم بعض العناصر وترفض الأخرى . ونريد أن نوضّح ذلك بمثال :

تمخضّت الفرضية (أ) عن نقيضها (ب) . إن للفكرة (أ) حسب رأي هيغل جوانب عديدة هي (أ ١) (أ ٢) (أ ٣) (أ ٤) (أ ٥) ومن هذه الخمسة ثلاثة أصبحت باطلة هي (أ ١) (أ ٢) (أ ٣) . أما (ب) التي هي النقيض فإنها تخالف ثلاثة أجزاء فقط بينما تحتضن القسمين الآخرين

---

٣ المرجع السابق ص٧٠ عن Lindsay : Karl Marx's Capital, p. 20

(أ ٤) و (أ ٥) . وهذا يعني أن (أ ١) (أ ٢) (أ ٣) التي رفضها (ب) هي العناصر المخالفة . ولو لم يكن الأمر كذلك لسمح (ب) لهم أيضاً بالانضمام اليه . ان (ب) لا يقبل (أ ٤) و (أ ٥) إلا على أساس انه يوجد شيء مشترك بينهم فيكون الحال الآن هكذا :

(ب) ضد (أ) .

(ب) ضد (أ ١) (أ ٢) (أ ٣) لأنه يخالفهم .

(ب) ضد (أ ٤) (أ ٥) لأنه يتفق معهما ! !

وهكذا يتبين لنا أن الفكرة (أ) نفسها خليط من فكرتين متصارعتين كل منهما مجزأة إلى أقسام مختلفة . فهل يمكن تصوّر ربط هذه الأقسام المتخاصمة ، في فكرة واحدة ؟

٦ ــ ثمة ناحية أخرى من عدم الاستقامة في حجج هيغل . فهو يعتقد أن كل عهد يأتي يكون أرقى من العصر الذي سبقه ، لأن الفرضية ونقيضها وموحدها ما هي إلا أشكال التطور أو مراحله . إن الموحد الذي هو نتيجة التوفيق بين العناصر الصحيحة الفعّالة من الفرضية ونقيضها يجب بالضرورة أن يخطو خطى واسعة إلى الأمام . وكذلك يعتقد هيغل ان كل عهد يمثل وحدة لأنه مظهر لشيء واحد فقط ألا وهو (روح العالم) . ويتضح من ذلك ان الحضارة التي هي الكل المركب **Complex Whole** المؤلف من المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقوانين والعادات ، يجب أن تليها حضارة أرقى منها ، وان مستوى الأوجه المختلفة للحضارة في رقيّ لا سبيل إلى مقاومته . وكذلك فان روح العالم التي تتجه دائماً نحو الكمال يجب عليها أيضاً أن تقوم بالتوسع والامتداد داخل الرداء الذي ارتدته ، لذا فانه مع تكشف الحجاب عن (روح العالم) يجب أن يحصل أيضاً تحسّن في أساليب حياة البشر وطرق تفكيرهم وفنهم وأدبهم ودينهم وحتى في وسائل ترفيههم وتسليتهم .

الا ان الملاحظ ان سجلات التاريخ تحمل تحدياً لهذه الحقيقة التي هي النتيجة الطبيعية التي تؤدي اليها طريقة هيغل الديالكتيكية ، فليس هنالك نمو متناسق يتبع نظاماً اعتيادياً لا شذوذ فيه ويمكن نقله من شعب إلى شعب في هذا العالم . ان نمو الحضارة « ليس على خط واحد أو تراكمياً ، وإنما هو يحدث أحياناً .. في سلسلة من الارتفاعات تشبه البثقات التي ليس لها الا قليل من الاستمرارية ، الا في حدود تأثرها بالطرق الأسلوبية في التعبير طبعاً » [٤] .

لقد دحض الناس هذه الحجّة بقولهم انه قد حصل حقاً اتساع مستمر في وسائل الراحة المادية بدأ منذ وقت لا تعرف حدوده، لذا فان لهيغل الحق في ما ادعاه . ولكنهم في الحقيقة خلطوا بين الحضارة والمدنية فلم يدركوا أن « الحضارة لا تمثل أحدث الأساليب المتبعة في الحياة العامة ، لا سيما في الأمور الظاهرية من الحياة ، في اللباس والتقاليد المتبعة في غرفة الاستقبال ، وفي وسائل الترفيه المادية وفيما أشبه ذلك من علامات الطلاء الزائف أو الخارجي . ان هذا الوضع أو الحالة قد تكون مظهراً كاذباً مصطنعاً وليس من الضروري أن يكون ذلك مثلاً لحالة عقلية راقية » [٥] . إن الحضارة تتعلق بحالة العقل . لذا فليس لها صفة التراكم وتكديس الأشياء كالمدنية . بل ان على كل جيل أن يكتسبها من جديد . ان الموضوع ليس مجرد وراثة وليس من شيء يناقض كون حصيلة الماضي هي أساس ما نحققه في الحاضر ، ولكن ما من شيء يضمن أن يكون الحاضر مساوياً للماضي فضلاً عن أن يكون خيراً منه » [٦] . لقد عرض توينبي المسألة

---

٤ المرجع السابق ص ٧٣ عن Ginsberg : Sociology, p. 46.

٥ المرجع السابق ص ٧٣ عن Dr. Sayyed Abdul Latif : Islamic Culture Studies

٦ المرجع السابق ص ٧٣ عن Maciver : Society.

بوضوح عندما قال : « لقد ارتقى علمنا فبلغ درجة لم يسبق له أن بلغها .. ومع ذلك فقد انتكسنا في نفس الوقت في الحروب الطبقية والقومية والعنصرية إلى أعماق قد لا يكون سمع بها أحد قبلنا . وهذه المشاعر السيئة تجد لها متنفساً في أعماق القسوة الغليظة المصممة علمياً ، وانك لتجد في هذه الأيام الحالتين الفكريتين المتباينتين ومقياسي السلوك المختلفين يعيشان جنباً إلى جنب لا في العالم نفسه وحسب ولكن في بعض الأحيان في البلاد نفسها وحتى في النفس الواحدة . ان لدينا قوة في الانتاج لم نصل اليها من قبل ، وهي توجد إلى جانب نقص وعدم كفاية لم نعان منهما من قبل ... »[٧] .

اننا إذا اعتقدنا ان الموحّد الحضاري لعصرنا هذا هو ناتج ثانوي للدم السليم النقي لكل الحضارات السابقة التي عرفها الإنسان حتى الآن فانه طبعاً يجب أن يكون أحسنها وأكملها من كل الوجوه . لكننا نجد الحقيقة مخالفة لذلك تماماً ، فعصرنا عصر يسير فيه الانحطاط الخلقي عند الناس جنباً إلى جنب مع التقدم الماديّ ، فكيف يستطيع هيغل وأتباعه أن يوفقوا بين هذين الاثنين ؟

٧ — وتخالف ذلك مغالطة أخرى ، فان هيغل يعتقد ان صيرورة الزمن تتجه من الأدنى إلى الأكثر كمالاً ، بالمعنيين الخلقي والمنطقي . إن (روح العالم) تتجه نحو تحقيق الكمال ، ولكنها لم تبلغ بعد هدفها ، وربما لن يمكن لها ذلك ما دام هذا الوجود .. إذ ان الصيرورة سائرة في طريقها تعمل عملها لا في أمريكا أو انكلترا أو روسيا فقط ولكن كذلك في ألمانيا ، إذ لا يمكن أن توجد فكرة الانتهاء في نظام هيغل الفلسفي . ولكن هيغل نفسه تصوّر ، رغم صعوبة توفيق هذه النظرة

---

٧ المرجع السابق ص٧٤–٧٥ عن A. Toynbee : Civilization on Trial, pp. 151, 152.

مع نظريته ذاتها ، ان دولة بروسيا كانت قد بلغت الكمال حقاً بحيث لم تكن أية ثورة تالية تستطيع أن تأتي بغير المصائب في أعقابها . ولقد يمكن القول ان الحقيقة قد تم الوصول اليها آخر الأمر هناك في ألمانيا ، وان الخط المتموج قد بلغ قمته .

٨ — اننا لنجد عند هيغل محاولة لإعادة الثقة في العقل ، تلك الثقة التي كان كانت Kant قد زعزعها ، وهذا هو سبب ادعائه بأن العقل وحده يوجّه العالم . وهو يعتقد ان العقل فكر يكيّف نفسه بحرية تامة . وهو يكره كل ما هو مخالف للعقل والمنطق ويقول ان الصيرورة الكونية كلها تسير وفق مبدأ عقلي . وهذا هو الذي جعل هيغل يقول قولـته المشهورة : « ان كل ما كان معقولاً فهو حقيقي وكل ما كان حقيقياً فهو معقول » . وكان يعني بهذا ان الأنظمة الاجتماعية الموجودة وأشكال الحكم التي لا يقررها سوى تطور (الروح المطلقة) هي أيضاً خطوات في حركة العقل . وهنا يضع هيغل مبدأه الديالكتيكي المثالي وهو ان تطور العقل هو تطور الحقيقة . وهكذا فكل شيء سواء كان خيراً أو شراً ، له ما يبرره ، لأنه منطقي معقول .

يقول (بنيدتو كروجه) في معرض تعليقه على هذه الناحية من فلسفته « ان فكرة هيغل عن الحياة كانت فلسفية بحيث ان النزعتين المحافظة والثورية ، كل في دورها ، تجد فيها ما يبررها . وفي هذه النقطة يتفق انكلز الاشتراكي والمؤرخ المحافظ ترايتشه لأن كليهما يرى أن تماثل المعقول والحقيقي يمكن أن يدعى اليه بصورة متساوية في كل الآراء السياسية والأحزاب التي تختلف عن بعضها ، لا من ناحية هذه الصيغة المشتركة ، بل في تعيين ما هو المعقول والحقيقي وما هو غير المعقول وغير الحقيقي . وفي كل مناسبة يعد ذلك الحزب السياسي العدّة لشن حرب على نظام أو طبقة من طبقات المجتمع فانه يدعي ان خصمه مخالف للمعقول أي

انه ليس له وجود ملموس وحقيقي ، ويكون بهذا الادعاء قد وضع نفسه مع الفلسفة في خط واحد » [٨] .

وواضح ان هذه النظرة ، فضلاً عن انها تساند كل فجور واضطهاد ، فهي كذلك تساند أي نوع من أنواع الهيجان . وإذا سلمنا بأن المعقول حقيقي ، فحينئذ إذا تبيّن ان الحقيقي غير معقول وغدا لا يتجاوب مع أفكاره ، فذلك برهان نهائي على انه صار عتيقاً ، ومحكوماً عليه بالفناء وعرضة لأن يتحطم . فكانت الملكية موجودة طوال الفترة التي كانت فيها معقولة ولكنها في الوقت الذي أصبحت فيه غير معقولة زالت . لذا استطاع اليساريون من أتباع هيغل أن يفسروا هذا الغرض لكي يساندهم في صراعهم مع النظام الملكي والدين . وكانوا يستطيعون أن يظهروا ان الملكية والدين مخالفان للمعقول،لذا فيجب أن يزولا،ولذلك فان قتالهما أمر لا مفر منه . ولكن المسألة هي : كيف يمكن أن يقرر أن نظاماً ما من أنظمة الحكم معقول أو مخالف للمعقول ؟ والجواب على ذلك هو ان النصر الحربي وحده يقرر ذلك . وهذا ما حدا بالنقاد إلى أن يسموا هيغل « فيلسوف مجلس الحكم السرّي وحكم طبقة الاداريين للدولة » وفي هذا القول شيء كثير من الحقيقة « ففي هذا النظام الذي يمتزج فيه غير المحدود والمحدود في شيء واحد ، والخير والشرّ يؤلفان صيرورة واحدة ، والتاريخ فيه هو عين حقيقة الفكرة والروح ، لا شيئاً خارج اطار تطورها التاريخي ، في هذا النظام تكون كل حقيقة ، لمجرد كونها حقيقة ، حقيقة للفكرة وتابعة للكل المحسوس الذي لا يتجزأ . لذا فكل التاريخ عنده يصير تاريخاً مقدساً » [٩] .

---

٨ المرجع السابق ص ٧٦ — ٧٧ عن B. Croce : Philosophy of Hegel, pp. 66 - 67.

٩ المرجع السابق ص ٧٨ عن B. Croce : Ibid, p. 69.

٩ — ان الصيرورة الديالكتيكية التي جاء بها هيغل قد علمت الناس عبادة القوة . وقد ساند هو نفسه كل رجل ارتقى عرش السلطّان « حين حاول نابليون بحراب جيشه أن يدخل العلاقات البورجوازية إلى ألمانيا كان هيغل ، الذي كان في ذلك الوقت يضع أسلوبه الديالكتيكي ، يتجاوب مع الثورة الفرنسية ، ورحّب بدخول جيش نابليون إلى (ينّا) باعتباره التجسيد التاريخي لشكل جديد للروح المطلقة . ثم سمى نابليون (الروح المطلقة على جواد أشهب) . ولكن بعد عشرين سنة من ذلك حين قوي الحكم الملكي الاقطاعي في ألمانيا والذي كان على رأسه فردريك وليم الثالث كان هيغل قد فقد أفكاره الثورية وأصبح فيلسوف الدولة في مملكة بروسيا » [١٠] .

١٠ — ونريد أن ننظر آخر الأمر في نظريته عن الدولة . ان هيغل ، كما نعلم ، يعتقد بأن الانفصال شيء لا وجود له في عالم الحقيقة . فالعالم ، كما يتصوره « ليس مجموعة وحدات صلبة ، ذرات أو أرواحاً ، كل منها قائمة بذاتها تماماً » . وعنده أن ما يظهر من استقلال ذاتي للأشياء المحدودة انما هو وهم وخيال . وهو يرى انه ما من شيء حقيقي تماماً وبصورة نهائية الا (الكلّ) . وهذه العقيدة أدّت به إلى أن يستنتج انه لما كانت الدولة تجسيداً للكل فهي الحقيقة الصادقة وفيها وحدها توجد الفكرة الإلهية . وان الفرد إذا أراد أن يحقق وجوده لم يستطع ذلك الا كعضو من أعضاء الدولة . ولكن في هذه الفكرة شيئاً كثيراً من التناقض فالمشكلة: هي لماذا يجب علينا أن نأخذ الدولة وحدها كتجسيد للكل ولماذا لا نأخذ العالم كله كـ(كل) والدول بمثابة أقسامه ؟ ان ذلك أقرب إلى الحقيقة وأكثر اتفاقاً مع فلسفة هيغل ، لأن (روح العالم) تعرض نفسها

---

١٠ المرجع السابق ص ٧٨ — ٧٩ عن A Text Book of Marxis Philosophy, Translated by A. C. Mosley, p. 59.

في كل أرجاء الأرض وما فيها من سكان . إنها لا تحصر نفسها في حدود بلاد أو دولة . والعالم كله مسرح لها . فيه البشر جميعاً ممثلون يؤدون أدوارهم وفقاً لرغبتها. إن هذا التعظيم المفرط للدولة ناتج عن ردّ فعل شعر به العالم بعد (حركة الاصلاح Reformation) . ولقد أدت فكرة الدولة هذه إلى نتائج خطيرة ، فقد ألقي في أذهان الناس أن يوالوا ويناصروا الدولة بدون قيد ولا شرط سواء كانت هذه الدولة تمثل العدل أو الظلم .

وفضلاً عن ذلك فان هذه الفكرة عن الدولة ولّدت أشدّ الاتجاهات الفاشية فظاعة في العالم . وقد ظهر من يدعي بكبرياء أن أكثر الدول مدنية أشدها عدواناً « لم يكن ينظر إلى الرجال (يقول نيتشه) على أنهم يليق بهم شيء غير التدريب على الحرب . والنساء للترفيه عن المقاتلين ، وسوى ذلك كان يعتبر مجرد سخف » .

هذا المذهب الحربي الذي كان وما يزل أحب المذاهب الى كثير من بلدان العالم نتج عن نظرية هيغل عن الدولة . فالدولة تعتبر قانوناً بذاتها ، « انها بالنسبة له العقل المطلق الواثق من نفسه الذي لا يعترف بأية سلطة سوى سلطته ، والذي لا يقرّ بأية قواعد مجردة للخير والشرّ والمخجل والوضيع والاحتيال والخديعة ». وهكذا فان اللجوء إلى كل أنواع الوسائل ، مهما كانت منافية للأخلاق ، يعتبر أمراً مشروعاً إذا كان من أجل الدولة . إن الفاشية هي الطفل السياسي الذي أنجبته ديالكتيكية هيغل . يقول دوغلاس اينسلي : « ان اعتبار هيغل للحقيقي والعقلي شيئاً واحداً قد أدى به إلى أن يساند باندفاع عمل الدولة وكل العظماء » [11] . إن موسوليني ليتحدث عما في قلب هيغل حين يقول : « إن الدولة هي المطلق حين تقارن بكل

---

١١ المرجع السابق ص ٨٠ – ٨١ عن Croce : Ibid, p. 32.

الأفراد أو الجماعات . ان توسع الأمة عرض جوهري للحيوية ، ونقيضه هو علامة التردّي والانحطاط » .

إن الأبطال المسؤولين عن توسع الدولة معصومون ، وكل ما يقومون به صحيح . لذا فلا يجوز لأحد أن ينتقدهم . إن هؤلاء الأبطال يجب أن يقوموا وحدهم باملاء ارادتهم لأنهم يستطيعون أن يتصوّروا حقيقة عصرهم تصوراً صحيحاً . هذه النظرية عن الدولة قد حثت الناس على اتباع أوامر الحكام اتباعاً أعمى وزعزعت كيان الأخلاق من أساسه .

١١ — ثمة ملاحظة أخيرة وهي ان هيغل قد غضّ النظر عن بعض من أهم حقائق التاريخ من أجل أن يبرهن على صحة نظريته الديالكتيكية . إن تاريخ العالم الذي وضعه ذو شكل ثلاثي كما تصوره .. وهو العالم الشرقي والعالم الاغريقي الروماني والعالم الجرماني . وهذه عنده هي الفرضية والنقيض اللذان يصبحان واقعاً محسوساً لما هو أحسن أو أسوأ في الصيغة . ان الشرق عرف ويعرف ان شخصاً واحداً فقط حر ، والعالم الاغريقي الروماني ان بعض الناس أحرار ، والعالم الجرماني ان كل الناس أحرار . لذا فشخصية الأول استبدادية والثاني ديموقراطية وأريستقراطية ، والثالث ملكية . وهذا الاستنتاج قد أراد الوصول اليه لغرض مساندة الحكم الملكي في ألمانيا . ولأجل أن يثبت هذا الثلاثي فانه بمحض هواه غطى حقائق كثيرة في المكان والزمان ومارس أسلوباً انتقائياً يرفضه المنهج التجريبي العلمي الصحيح[١٢] .

---

١٢ المرجع السابق ص ٨١ — ٨٢ .

التفسير المادي : ماركس وانكلز

تكشف لنا مختلف المصادر أن ماركس لم يكن منشىء التفسير الديالكتيكي للتاريخ وانما أخذ ماديته من آخرين كثيرين سلكوا السبيل نفسه وصبّ فلسفته في القالب الذي اقترحه ديالكتيك هيغل .

إن المادية التاريخية البسيطة يمكن أن ترى كاملة النموّ في بحث أعدّه هولباخ Holbach وطبع قبل قرن ، وهي أيضاً مدينة بالكثير إلى سبينوزا Spinoza وقد أعاد فويرباخ Feuerbach تقرير شكل مجدّد منها في أيام ماركس نفسه . ويمكن أن ترى النظرة إلى التاريخ الإنساني على انه دراسة للحرب بين طبقات المجتمع عند سانت سيمون Saint Simon وقد اعتنقها إلى حد بعيد مؤرخون فرنسيون من معاصريه مثل تيري Thierry ومكنيه Mignet وكذلك المؤرخ المحافظ كيزو Guizot . أما النظرية العلمية لحتمية حدوث الأزمات الاقتصادية حدوثاً منتظماً فربما كان أول من وضعها سيسموندي Sismondi ، وأما النظرية العلمية لظهور الطبقة الرابعة Fourth Estate فقد اتخذها دون ريب أوائل الشيوعيين ودعا اليها في ألمانيا في أيام ماركس كل من فون شتاين Von Stein وهيس Hess . وأما التسلط المطلق للطبقة العاملة (دكتاتورية البروليتاريا) فقد وضع بابويف Babeuf خطوطه الكبرى بشكل ظلال وذلك في آخر عقود القرن الثامن عشر . ووضع هذه الفكرة بشكل واضح

في القرن التاسع عشر وبأشكال مختلفة كل من فايتلنغ Weitling وبلانكي Blanqui . وقد زاد في ايضاح المركز الحاضر والمستقبل للعمال وأهميتهم في الدولة الصناعية لوي بلون Louis Blanc واشتراكيو الدولة الفرنسيون بشكل أكثر تكاملاً مما يوافق ماركس على اقراره. وأما نظرية القيمة المبنيّة على العمل فتستمد من لوك Locke وآدم سميث Adam Smith والاقتصاديين القدامى المحافظين (الكلاسيكيين). ونظرية الاستغلال وقيمة الفائض Theory of Exploitation and Surplus Value ومعالجتها بسيطرة الدولة سيطرة مباشرة يمكن أن ترى لدى كل من فوريية Fourier وفي كتابات الاشتراكيين الأوائل مثل بري Bray وتومبسن Thompson وهو لجسكن Hologskin . [1]

ونستطيع أن نضيف هنا إلى ان محاولات عديدة أخرى قد نسقت في اطار فكري أو نفذت عبر تجربة عملية ، شهدها تاريخ الشرق ، قبل قرون عديدة لمعطيات هؤلاء ، نكتفي منها بالاشارة إلى حركات : مزدك ، وبابك الخرمي ، والقرامطة [2] .

---

١ صديقي : تفسير التاريخ ، هامش ١ ص ٨٧ – ٨٨ عن : Isaih Berlin: Karl Marx and His Life Envirenment, pp. 14 - 15.

٢ يجب أن نلاحظ انه ليس المهم – على المستويين العلمي والاجتماعي – هو تنسيق الأفكار ، انما مدى نجاحها تاريخياً واجتماعياً .. ومدى مقدرتها على إحداث تواؤم وتوازن في حياة المجتمعات البشرية يمكنها من أن تحظى بأكبر قدر من السعادة والقدرة على الإنجاز والتطور الحضاري . وهذا هو ما يميز الإسلام ، في هذا الجانب بالذات ، عن سائر المحاولات الوضعية التي أخفقت أو التي في طريقها إلى الإخفاق ، والا رتداد صوب وضعية أكثر انسجاماً وملاءمة ، وليست محاولات التأكيد – ثانية – على الحافز الفردي في (الاتحاد السوفياتي) ، متمثلة بتفاوت الأجور وتنظيم الادخار الفردي ، وتنفيذ نظام الميراث ... الا بدايات فحسب ، ستعقبها ولا ريب ، محاولات أخرى على نفس الطريق .. كما ان التحليلات التي يطرحها المفكر الفرنسي (روجيه غارودي) وتلامذته على مستوى التمايز القومي أو الحضاري بين الشعوب وضرورة عدم تجاهله في التعامل مع (الماركسية) تقدم لنا محاولة أخرى ، على مستوى آخر ، لإرغام الماركسية ، كنسق فكري نظري بحت ، على أن تتلاءم مع الواقع البشري أكثر فأكثر .

غير ان ماركس ورفيقه انكلز وجدا ان هيغل (واقف على رأسه) لذا فقد عدّلا — كما اعتقدا — وقفته واقاماه على رجليه . وبينما نجد ان هيغل قد أصرّ على ان كل ما يحصل من تغيّر في العالم المادي الحقيقي انما هو مجرّد انعكاس لا إرادي لتقدم وتطور (روح العالم) نجد ماركس قد أكّد حقيقة العالم الخارجي ، وبين ان المثل العليا والأفكار عند بني الإنسان انما هي نفسها نتاج البيئة الاقتصادية المادية وما يحصل فيها من تغير. لذا فليس لها وجود مستقل خاص بها ، وان صراع المتناقضات لا يحصل في عالم الأفكار كما ادعى هيغل وانما في عالم أحوال الناس الواقعي بواسطة ما يحصل في الكيان الاقتصادي للمجتمع من تغير [٣] .

وقد رأى ماركس كثيراً من الأخطاء في نظام هيغل ، كما بيّن ماركس نفسه في فقرة مشهورة من مقدمته للجزء الأول من كتاب (رأس المال) إذ قال : « ان اسلوبي الديالكتيكي ليس مجرد أسلوب مخالف لأسلوب هيغل وإنما هو عكسه تماماً ، لأن عملية التفكير عند هيغل هي خالقة العالم الحقيقي ، والعالم الحقيقي ليس الا الشكل الخارجي الذي تتخذه الفكرة ، أما أنا فأرى ان الفكرة ما هي الا العالم الماديّ بعد أن يعكسه ذهن الإنسان ويصوغه في شكل أفكار » . ويقول في رسالة إلى كوكلمان Kugelmann عام ١٨٦٨ م أن ديالكتيكية هيغل هي الشكل الأساسي للديالكتيكيات ولكن تجريدها من شكلها المبهم Mystical Form هو بالضبط الشيء الذي يميز اسلوبي [٤] .

ويزيد انكلز المسألة ايضاحاً فيقول : « لم يقتصر الأمر على طرح هيغل جانباً ، بل بالعكس لقد بدأوا من الجانب الثوري من فلسفته ، أي بدأوا بالطريقة الديالكتيكية . ولكن ما كان في الإمكان استخدام

---

٣ و ٤ صديقي : المرجع السابق ص ٨٨ — ٨٩ .

هذه الطريقة . ان الديالكتيك عند هيغل عبارة عن التطور الذاتي للفكرة، فالفكرة المطلقة ليست موجودة فحسب منذ الأزل – وان كنا لا نعرف أين توجد – بل إنها الروح الحيّة الفعلية للعالم الموجود بأسره وهي تتطور لتبلغ ذاتها خلال كافة المراحل الأولية التي يعالجها هيغل بإسهاب في كتابه (المنطق) ... وعلى ذلك يرى هيغل ان الحركة الديالكتيكية الظاهرة في الطبيعة والتاريخ – وبعبارة أخرى العلاقة المتداخلة العلّيّة في حركة التقدم من الأدنى إلى الأعلى وهي العلاقة التي تبدو خلال كافة الحركات الحلزونية ونواحي التوقف المؤقتة – نقول ان هذه الحركة الديالكتيكية ليست إلا صورة أو نسخة تعسة للحركة الذاتية التي تقوم بها الفكرة منذ الأزل ومستقلة عن أي مخ انساني مفكر وإن كنا لا نعرف أين توجد .

« كان لا بد من القضاء على هذه المذهبية المقلوبة الوضع . عدنا من جديد إلى ادراك الأفكار في رؤوسنا وفق النظرية المادية أي على اعتبار ان هذه الأفكار صور تعكس الأشياء الحقيقية ، وهذا يخالف الاتجاه الآخر الذي ينظر إلى الأشياء الحقيقية على أنها صور تمثل هذه المرحلة أو تلك من مراحل نموّ الفكرة المطلقة . وهكذا هبط الديالكتيك إلى عالم يعالج القوانين العامة عن الحركة في العالم الخارجي والفكر الإنساني ، وكلاهما مجموعتان من القوانين متماثلة من حيث الجوهر ولكنها تختلف في تعبيرها بقدر ما يستطيع العقل الإنساني تطبيقها عن وعي وبطريقة شعورية ، بينما في الطبيعة، وفي الغالب حتى الآن في التاريخ الإنساني ، نجد ان هذه القوانين تثبت ذاتها بطريقة لاشعورية على شكل ضرورة خارجية في وسط سلسلة لا نهاية لها من الأعراض Accidents الظاهرية . وهكذا أصبح ديالكتيك الفكرة ذاتها هو مجرد الانعكاس الواعي لحركة العالم الحقيقي الديالكتيكية ، وهكذا وضع ديالكتيك هيغل على

قدميه بعد أن كان واقفاً من قبل على رأسه ... » ° .

يبدأ ماركس في (رأس المال) بأن يسأل هذا السؤال : ما هو المبدأ الذي يحكم كل العلاقات بين البشر ؟ ويجيب على ذلك بأنه الهدف المشترك الذي يسعى كل الناس لبلوغه وهو انتاج الوسائل التي يديمون بها حياتهم ، وبعد الانتاج تبادل الأشياء التي أنتجوها . فان على الإنسان أن يعيش ثم يستطيع أن يبدأ بالتفكير . لذا فان الأمر النهائي الذي يقرّر التغيّر الاجتماعي يمكن أن يوجد لا في أفكار الإنسان عن الحقيقة الأبدية والعدالة الاجتماعية وانما فيما يحصل من تغير في أسلوب الانتاج والتبادل .

إن الماركسية تطرح الفروض الرئيسية التالية :

أولاً : يدخل الناس ، في غمرة الانتاج الاقتصادي الاجتماعي ، في علاقات معينة ويضطرون – دون ارادتهم – إلى أن يكوّنوا ظروفاً معينة . وان ظروف الانتاج هذه تتفق مع مرحلة معينة من تطوّر القوى المادية .

ثانياً : إن ظروف الإنتاج – إذا أخذت ككل – تكون الكيان الاقتصادي للمجتمع ، وهذه هي القاعدة المادية التي يقام عليها بنيان القوانين والأنظمة السياسية والتي اليها يرجع بعض أشكال الوعي السياسي .

ثالثاً : ليس وعي الإنسان هو الذي يعيّن أشكال الوجود ، بل إن أشكال الحياة الاقتصادية والاجتماعية هي التي تعيّن الوعي .

رابعاً : بعد أن تبلغ قوى الانتاج المادية مرحلة معينة من التطور تصطدم مع ظروف الانتاج الموجودة ، أي مع نظام الانتاج الذي تعمل في ظله .

° فردريك انكلز : التفسير الاشتراكي للتاريخ (مختارات) ، ترجمة راشد البراوي ص ٦٤ – ٦٥ (دار النهضة العربية) (الطبعة الثانية ١٩٦٨) .

خامساً : إن تاريخ المجتمع منذ أن وجد حتى الآن هو تاريخ صراع طبقات كانت تقف موقف المعارضة الدائمة لبعضها ، وتقوم بحرب لا انقطاع لها ، تختفي عن الأنظار حيناً وتظهر حيناً آخر .. حرب كانت تنتهي إما بإعادة بناء المجتمع كلياً بشكل أساسي ، أو بتدمير الطبقات المتصارعة جميعاً ... وبتطبيق هذا الأسلوب في البحث نرى ان التاريخ يدلّ على أن تطوّر المجتمع الانساني سار من نظام المشاعية البدائية ، أو الجماعية ، إلى نظام الطبقات متمثلاً في انقسام المجتمع إلى سادة وعبيد في العصور القديمة ، والى سادة إقطاعيين وأقنان Serfs في العصر الإقطاعي ، ورأسماليين وعمال أجراء في العصر الحديث ، وان هذا التطور يتجه ، بفعل القوانين التي تتحكم فيه ، إلى نظام جديد تزول فيه المصالح الاقتصادية المتضاربة ، أي علاقات الجماعات بقوى الانتاج [٦] .

* * *

يقول انكلز ، مؤكداً اعتبار التغير في وسائل الانتاج ، هو القاعدة التي تقوم عليها سائر التغيرات « مثلما اكتشف داروين قانون التطور في الطبيعة العضوية ، اكتشف ماركس قانون التطور في تاريخ البشر . لقد اكتشف الحقيقة البسيطة التي ظلّت حتى الآن مغطّاة بالنموّ الزائد الذي نمته العقائد .. وهذه الحقيقة أن الإنسان يجب أولاً أن يأكل ويشرب ويتخذ مسكناً ولباساً ، قبل أن يستطيع أن يبحث عن سياسة أو دين أو علم أو فن وما سواها . لذا فان انتاج وسائل المعيشة المادية ، ونتيجة لذلك درجة التطور الاقتصادي التي يحصل عليها بعض الناس وفي حقبة معينة ،

٦ صديقي : المرجع السابق ص ٨٩ — ٩٠ ، انكلز : المرجع السابق ص ١٧ — ١٨ (من مقدمة المترجم) .

كلاهما يكوّنان الأساس الذي تنمو عليه الدولة والأنظمة والأفكار القانونية والفن . وحتى الأفكار الدينية لهؤلاء الناس ، والذي في ضوئه يجب أن تفسّر هذه الأشياء لا أن يفسّر هو في ضوء هذه الأشياء كما كان يحصل حتى الآن » [٧] .

وفي المقدمة التي صدّر بها ماركس كتابه (نقد للاقتصاد السياسي) نلتقي بتركيز شامل للعلاقات الأساسية بين (الانتاج) وبين الحركة التاريخية . فهو يقول : « في الانتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى عنها ، وهي مستقلة عن ارادتهم . وعلاقات الانتاج هنا تطابق مرحلة محدودة من تطور قواهم المادية في الانتاج ، والمجموع الكلي لهذه العلاقات يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع ، وهو الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه النظم القانونية والسياسية ، والتي تطابقها أشكال محدودة من الشعور الاجتماعي . فأسلوب الانتاج في الحياة المادية يعيّن الصفة العامة للعمليات الاجتماعية والسياسية والروحية في الحياة . ليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم ، بل ان وجودهم هو الذي يعين شعورهم ، وعند بلوغ مرحلة معينة من تطور قوى الانتاج المادية في المجتمع نراها تصطدم مع علاقات الانتاج القائمة أو علاقات الملكية بالتعبير القانوني ، وبذا تتحول هذه العلاقات إلى أغلال تقيد تطور قوى الانتاج وهنا تبدأ فترة انقلاب اجتماعي ، وبتغير الأساس الاقتصادي يتحول الصرح العلوي الهائل بأسره وذلك بدرجات متفاوتة في السرعة . وفي بحث أمثال هذه التغييرات يجب دائماً التمييز بين التغيير المادي في أحوال الانتاج الاقتصادي التي يمكن تحديدها وتعيينها بالدقة التي يتميز

---

٧ صديقي : المرجع السابق ص ٩٠ — ٩١ عن Karl Marx : Selected Works, Vol. I. p. 12.

بها العلم الطبيعي ، وبين الأشكال المذهبية — سياسية ودينية أو فلسفية — وهي التي يصبح الناس فيها على وعي وشعور بهذا الصراع ويتقاتلون من أجله . وكما أن رأينا عن شخص لا يرتكز على رأيه عن نفسه ، كذلك لا نستطيع الحكم على فترة تحول كهذه بطريق ما تتميز به من وعي ، إذ بالعكس يجب بالأحرى تفسير هذا الشعور عن طريق المتناقضات التي في الحياة المادية ، وعن طريق الصراع القائم بين قوى الانتاج الاجتماعية وعلاقات الانتاج . لا يزول أي نظام اجتماعي أبداً قبل أن تنمو كافة القوى الانتاجية التي يكون لها فيه مجال النموّ ، ولا تظهر علاقات إنتاج أعلى مرتبة عن سابقتها قبل أن تنضج في طيات المجتمع القديم الأحوال المادية اللازمة لوجود هذه العلاقات . وعلى ذلك فالمجتمع يجعل دائماً لنفسه من المشكلات ما يستطيع حلّه . ولو أمعنا النظر في الأمر وجدنا أن هذه المشكلة لا تنشأ إلا إذا كانت الأحوال المادية اللازمة لحلّها متوافرة أو على الأقل في طريق التكوين ... »[8] .

وفي رسالة بعث بها ماركس إلى ف . أنتكوف (في كانون الأول عام ١٨٤٦) يؤكد مسألة استبعاد الحريّة الإنسانية في صياغة واختيار (القوى الإنتاجية) التي هي أساس الأبنية التاريخية والحضارية « ... ما المجتمع أياً كان شكله ؟ إنه وليد النشاط المتبادل الذي يقوم به الناس . وهل لهم حرية اختيار هذا الشكل أو ذاك من المجتمع لأنفسهم ؟ لا ، بكل التأكيد . إذا فرضت وجود حالة معينة من التطور في القوى الانتاجية ، كان لديك شكل معين من أشكال التجارة والاستهلاك ، يطابقه نظام اجتماعي وتنظيم للأسرة والطبقات ، وبعبارة موجزة كان لديك مجتمع مدني يتفق وهذا الشكل . افترض قيام مجتمع مدني معين ، فهنا تجد

---

٨ انكلز : التفسير الاشتراكي للتاريخ ص ١١٩ — ١٢٠ .

أحوالاً سياسية معينة ان هي الا التعبير الرسمي عن المجتمع المدني. ومن العبث أن نضيف أن الناس غير أحرار في اختيار قواهم الانتاجية ، وهي الأساس الذي يقوم عليه تاريخهم كله ، لأن كل قوة إنتاجية قوة مكتسبة أي هي ثمرة فعل ونشاط سابق ... »[9] .

٩ المرجع نفسه ص ١٢٠ – ١٢١ .

النقـد

ويمكن -- بعد ذلك — أن نتلمّس بعض ما وجّه إلى التفسير المادي للتاريخ ، من نقد بايجاز تام وحسبما يتيح المجال :

١ — ظهر ماركس في أفق العالم في عصر كان ينظر فيه إلى الثروة المادية وامتلاكها على انها الهدف الوحيد في الحياة ، فقد كانت المسيحية تكاد تكون قد استنفدت ما فيها من قوة ، وكانت القوة الهائلة والسيطرة على الموارد المادية التي وضعها التقدم العلمي تحت تصرّف الإنسان قد جعلتاه يفكر انه لا يوجد شيء وراء المادة . وكان ينظر حتى إلى غرائز الإنسان ومشاعره وعواطفه وضميره على انها منتجات ثانوية لها . ولم يكن من اختلاف جوهري بين الإنسان والحيوان غير أن الإنسان يستطيع أن يتكلم والحيوان لا يستطيع ، والأول قد نتج عن الثاني بعملية التطور . وحياة الإنسان خاضعة تماماً لقوانين العالم المادي التي لا سبيل إلى تغيرها .

هذا التغير في النظرة بعيد المدى من حيث نتائجه ، فوجّه الذم بصراحة إلى كل الفلسفات التي كانت تتحدث عن الإنسان على انه صاحب (ارادة حرة) .. وأصبحت أساليب التفكير ذات القوانين الدقيقة التي تشبه قوانين العلوم الطبيعية التي تحكم الظواهر الطبيعية مقبولة لدى الناس ، وأبعدت أفكار الأخلاق والضمير إلى الخلف ، حيث لا سبيل إلى رؤيتها . ولم

يكن من الظواهر ما يستحق الاهتمام إلا ما كان ظاهراً للحواس [1] . إن فكر ماركس هو انعكاس لعصره .. والأفكار — كما يؤكد هو في نظريته — انما هي انعكاس الواقع الموضوعي على الدماغ البشري !! .

٢ — لقد أغرى ماركس بفكرته المادية تلك ما كان للعلوم الطبيعية من بريق خارجي . ولما كان هو نفسه يتصور ان الإنسان مجرد آلة ، فقد حاول أن يصوغ القوانين الاجتماعية على غرار القوانين الطبيعية ، ولا شك انه من أجل بلوغ هذه الغاية حرّف الحقائق . لقد كان في ذهنه هدف واحد فوق كل شيء ، وهو أن يبرهن بطريقة ما على أن أسلوب الانتاج في الحياة المادية هو الذي يعين الطابع العام لطرق الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية . إن (انسانه) مجرد تماماً من حرية الارادة ، والباعث الوحيد لأعماله هو الحصول على وسائل الراحة المادية . وان الطريق لتحقيقها هو القاعدة الحقيقية التي عليها يرتفع صرح حياته الفردية والجماعية . وحين تتغير هذه القاعدة يحصل تغير كامل في البناء القائم عليها . لذا فان وسائل الانتاج هي الحكَم الفصل الحقيقي الذي يقرّر مصير البشر ... والنتيجة الطبيعية لهذا اننا سنكون ملزمين بأن نقرّ بأن (الجماعة) وحدها هي الحقيقة وان الوجود المستقل للأفراد هو مجرّد وهم [2] .

٣ — ان الرابط بين التغير الاجتماعي وعملية التطور الاقتصادي أقل بكثير تأثيراً وبساطة وكفاية مما يقره علم النفس الماركسي الذي يفتقر إلى الكفاءة ، والذي ربما هو الضعف القتال للحتمية كلها . فقد أكّد ماركس ان الإنسان يستجيب للتغيرات التي تدخل في نظام الانتاج .. أما كيف تدخل فهو لا يقول لنا لأنه يتكلم كما لو كان الأسلوب الفني

---

١ عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ ص ٩١ — ٩٢ .
٢ المرجع السابق ص ٩٢ — ٩٣ .

المتغير في الانتاج هو نفسه يوضح نفسه، وهو السبب الأول في صيرورة هي – ببساطة – محتومة . انه يتجاهل تعقيدات التعوّد من جهة والنفور من جهة أخرى . انه يبسّط النظرات التي تتجمع حول الأنظمة فالتماسك والاخلاص بالنسبة للعائلة ، والمهنة ، والأمة ، كلها خاضعة للطبيعة الاقتصادية .. ان الحلّ الذي استهدفته هذه المحاولة يستبعد تأثير عوامل أخرى كثيرة جداً [٣] .

٤ – ولنا أن نتساءل : ما هي قوى الانتاج ؟ كيف تأتي إلى هذا الوجود ؟ أهي حقاً العوامل الأولية في تطور الإنسان ؟ « إن قوى الانتاج هي القوى التي يستخدمها الإنسان في الإنتاج الاقتصادي من صفات الخصب في التربة ، والخواص التي تتميز بها المعادن ، والقوى الآلية والكيمياوية في الطبيعة ، وحرارة الشمس ، وقوة البخار والكهرباء ، وكذلك قوى الحيوانات والإنسان نفسه » . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن هذه القوى وجدت منذ وقت غير معروف ، قبل أن يطلع فجر المدنية بكثير . ومع تقدم الزمن اتسع عقل الإنسان فاكتشف هذه القوى الكامنة في أعماق الطبيعة ، وأزاح الحجاب عنها ، وسخرها لفائدته . وتاريخ الإنسان حافل بالشواهد على ان ذكاء الإنسان كان العامل الأول في اكتشاف هذه القوى « ولو لم يكن الأمر هكذا ، ولو لم تكن هناك حاجة إلى الذكاء لاكتشاف قوى الطبيعة واستخدامها..لأنشأت الأجناس الدنيا مدنيّات بنفس السرعة التي تنشئها بها الأجناس العليا .. ملايين الأغصان نمت على الأشجار ، أو كانت ممدّدة على الأرض ، يمكن أن تقوم بعمل العتلات ، أو تكوّن سياجات ، وكانت هناك أحجار حادة كثيرة يمكن أن تستخدم كسكاكين أو فؤوس ، والبخار ظل يرفع غطاء ابريق

٣ المرجع السابق ص ٩٣ عن Maciver and Charles Page : Society, pp. 562 - 63

الشاي مائة ألف مرة ، ومع ذلك لم يصبح الاكتشاف ممكناً حتى جاء رجل ذو ذكاء كاف وعزم على أن يستفيد من الغصن أو الحجر ، ورجل موهوب . رأى ان البخار الذي كان يرفع غطاء ابريق الشاي يمكن أن يفيد في أغراض أعظم بكثير[٤] » .

٥ — وإذا كان أسلوب الانتاج هو العامل الحاسم في حياة الفرد أو المجتمع ، وجب أن يتصرّف الأشخاص أو المجتمعات التي تواجه نفس النوع من المشاكل الاجتماعية ، وفق نفس الأسلوب .. لكن الذي يحدث في كثير من الأحيان هو عكس هذا . فعلى سبيل المثال ، كانت ولايات الاغريق (في الفترة الواقعة بين السنة ٧٣٣ و ٣٢٥ ق . م) تجابه مشكلة زيادة السكان ، فحين ازداد ضغط هذه المشكلة زيادة بالغة قامت الولايات المختلفة بحلها حلولاً مختلفة « فبعضها مثل كورنثوس Corinth وخالكيس Chalcis تخلصت من زيادة السكان بأن اغتصبت واستعمرت أقاليم زراعية في الخارج وراء البحر ، في صقلية وجنوب ايطاليا وتراقيا وأماكن أخرى . ولما كانت هذه المستعمرات الاغريقية قد أنشئت بهذا الشكل ، فقد وسعت البقعة الجغرافية للمجتمع اليوناني دون أن تغير شخصيته . ولكن ولايات أخرى اتخذت حلولاً نتج عنها تغير في طريقة حياتها . فسبارطة أوجدت لأبنائها الأرض بأن هاجمت أقرب جيرانها من الإغريق واحتلت أراضيهم ، وكانت النتيجة أن حصلت سبارطة على ما كانت تريده من الأراضي الجديدة ، ولكن ثمن ذلك كان حروباً متكررة لا

---

٤ المرجع السابق ص ٩٣ — ٩٥ عن Karl Federn : The Materialist Conception of History, pp. 8-10.

اننا يجب أن نلاحظ ان دور رجلين كواط وأديسون في تغيير القوى المادية يدلنا على موقف معاكس تماماً للمنطوق الماركسي ، موقف لا يقوم على الدافع المادي الخارجي والضرورات الاقتصادية قدر ما يقوم على الدافع الابداعي الباطني وضرورات الكشف والابتكار والتطوير العلمي وهي مسائل الصق بالمطامح الروحية منها بالتأثير المادي الخارجي .

تنتهي مع شعوب مجاورة . ولأجل معالجة هذا الموقف اضطر رجال الحكم في سبارطة إلى أن يجعلوا حياة سبارطة حياة عسكرية من رأسها إلى قدمها ، وذلك باعادة القوة إلى أنظمة اجتماعية بدائية مألوفة عند عدد من المجتمعات الاغريقية ، واستخدامها ، وذلك في الوقت الذي أصبحت فيه هذه الأنظمة في سبارطة وغيرها على وشك الزوال .

« أما أثينا فقد عالجت مشكلة السكان بطريقة أخرى ، فقد وقفت انتاجها الزراعي للتصدير وبدأت الانتاج ثم طورت أنظمتها السياسية بحيث تعطي حصة عادلة من القوة السياسية للطبقات الجديدة التي أوجدها هذا التجديد الاقتصادي ، وبتعبير آخر تفادى رجال الحكم في أثينا من ثورة اجتماعية بأن قاموا بثورة اقتصادية وسياسية . واذ اكتشفوا هذا الحل للمشكلة العامة بمقدار ما كان لها من أثر عليهم هم أنفسهم ، فانهم فتحوا مصادفة طريقاً جديداً لتقدم المجتمع اليوناني كله »[٥] . ووفق هذا التحليل نستطيع أن نضع أيدينا على حشد هائل من الأمثلة التاريخية على تنوّع (ردود الأفعال) ازاء تحديات الأوضاع المادية .

٦ — يقول بروفسور اليكساندر غري « هنالك حقيقة لا ينكرها إلا القليلون ، وهي ان التاريخ ، إذا أريد له أن يكون شاملاً ، يجب أن يسجل في صفحاته كل شيء عن مخزن حفظ الأطعمة في المطبخ ، ولكن هنالك أيضاً شيئاً كثيراً في التاريخ غير العامل الاقتصادي فالإنسان لا يقصر حياته على أن يحبو على بطنه ، فهنالك كل أشكال الحماس والولاء والايحاء والالهام التي تحفز الإنسان للعمل ، والتي هي رغم ذلك غير اقتصادية بتاتاً ولكنها في نفس الوقت توثر على الظروف الاقتصادية . وفوق كل ذلك فان تأثير الذهن على الذهن مع نتائج هذا التأثير البعيدة ،

---

٥ المرجع السابق ص ٩٦ — ٩٨ عن Arnold Toynbee : A Study of History, p. 4

وهو من أعظم أنواع التأثير في العالم، يستعصي على التفسير الاقتصادي . ولو فرضنا انه يمكن أن نفسر كيف جاء دانتي ومحمد (ص) وكالفن وماركس ولويد جورج وجورج روبي ، حين جاءوا فعلاً ، فستبقى مسألة أكثر صعوبة بكثير ، وهي أن نفسر كيف أو لماذا جاءوا في الأصل ؟ ولماذا لم يبقوا في عالم العدم ؟ والأمر الذي يزيد على هذا صعوبة هو أن نفسر كيف يجد الرجل العظيم جماعته الذين ينطقون بلسانه والذين قد ينقلون تأثيره هنا وهناك في أجزاء مختلفة من العالم . إذ أن كالفن كان يمكن ألا يجد نوكس Knox وماركس كان يمكن ألا يكون له لينين . ان الأصوب عند تفسير التاريخ أن يتواضع المرء ، وربما أن يعتقد بعدم كفاية عقله لادراك الغيبيات . ذلك انه يدرك أن تاريخ الإنسان انما تكوّنه عوامل كثيرة ليس الاقتصاد إلا عاملاً واحداً منها ربما لم يكن أكثرها أهمية »[٦] .

٧ — اننا نتأثر بالبيئة المادية التي نعيش فيها ، إلا ان فكرنا هو الذي يعلمنا أن نغير هذه البيئة المادية لكي تلائم أغراضنا المختلفة . ان العالم المادي لا يقرر وعينا وانما وعينا هو الذي يقرر الوجه الذي سنستخدم فيه مواردنا المادية . فكل شيء يجب أن يكون موجوداً في الفكر قبل أن يمكن وجوده في العمل ، لذا فقوى الإنتاج لا تصنع نفسها وانما يصنعها عقل الإنسان . فبالرغم من ان الإنسان يتأثر بالحياة المادية المحيطة به ، لا يمكن اعتباره مجرد عجينة لا شكل لها تصب في قوالب البيئات المادية ، إذ انه يستطيع أن يغير بيئته[٧] .

٨ — إن كارل فيدرن يلاحظ ملاحظة بارعة إذ يقول : « ان قوى

---

٦ المرجع السابق ص ٩٨ — ٩٩ عن A. Gray: The Development of Economic Doctrine, p. 307.

٧ المرجع السابق ص ١٠١ .

الانتاج وظروف الانتاج تؤثر دائماً على بعضها ويقرر **بعضها بعضاً** .. كما ان اختراع أسلحة جديدة يؤثر في الحروب ويحدّد نتيجتها ، والحروب تؤدي دائماً إلى اختراع أسلحة جديدة وأشكال جديدة من التنظيم العسكري ومع ذلك فلن يزعم إلا مخبول أن تطور الأسلحة وتنظيم الجيش هـــو سبب الحرب والعامل الأساسي في التاريخ العسكري » [٨] .

٩ — ويرفض بروفيسور جي دي ايج كول — الذي يعد من أشد الناس احتراماً لماركس — أن يعترف بالعامل الاقتصادي على انه العامل الوحيد الذي يقرّر الكيان الاجتماعي لأية أمة . فهو يقول في كتابه : (معنى الماركسية) : « من السهل أن نتتبع التشابه الكبير بين الهياكل الاقتصادية التي تبنى عليها أنواع المجتمعات المختلفة ، وتنظيمها السياسي وأجهزتها الاجتماعية ، وأن نرى كيف كيفت الهياكل السياسية والاجتماعية في الماضي وفقاً لتغير الظروف الاقتصادية الأساسية . الا ان من الخطر أن نؤكد على هذا إلى حد مفرط في البعد . وليست الحال قط أن المجتمعات التي في مستوى واحد من ناحية أسلوب الانتاج يجب أن يكون لها حتماً نفس الأنظمة أو نفس الأشكال الاجتماعية للعائلة والعلاقات الجماعية والمنظمات السياسية والدينية ، أو الأفكار الخاصة بالقيم والأخلاق . **فلقد** أظهرت بحوث علم الإنسان Anthropology أشكالاً حضارية مختلفة جداً لا يمكن قط أن تفسر تفسيراً اقتصادياً محضاً . ان أقصى ما يثبته هذا التشابه الذي تبين لنا وجوده انما هو مجرد الاقتناع بأن الأنظمة الاجتماعية تتأثر بالظروف الاقتصادية — لا انها تتعين بها وحدها — ان الاساس الاقتصادي للمجتمع عامل واحد فقط من عوامل تصوير الشكل العام للحضارة ، حتى ولو كان أهم عامل » [٩] .

---

٨ المرجع السابق ص ١٠١ – ١٠٢ عن K. Federn : Op. Cit., p. 23

٩ المرجع السابق ص ١٠٣ – ١٠٤ عن P. G. D. H. Cole : The Meaning of Marxism P. 57.

١٠ — لقد قام ماركس ، كما فعل هيغل وسپنغلر ، لكي يجعل نظريته تبدو مستساغة ، بتحريف كثير من الحقائق ، وتجاهل بعض الحوادث المهمة في التاريخ التي لم تساند ما ذهب اليه ، ولأجل أن يثبت ان نظرياته صحيحة استخدم الحوادث التي وقعت في (الأغوار البعيدة من الزمن) مما لا يمكن التحدث عنه بشكل أكيد ، ومما يمكن أن يفسره المرء بسهولة أي تفسير يشاء . ثم انه يصعب ، بل يستحيل ، الوصول إلى أية حقيقة على أساس هذه الحوادث التي وقعت قبل التاريخ ، فهي مغطاة بحجاب كثيف من الزمن ، ولكن ماركس وأنكلز بنيا (جلّ) بحوثهما عليها ، فانتخبا مقداراً لا بأس به من دراسات مورغان Morgan عن قبائل أروكوي (Studies of Iroquis) ، وكتاب جورج لودفيغ فون ماورد: (Work on the Municipal and Agrarian Customs of the Ancient Germans) عن العادات البلدية وعادات الأراضي الزراعية عند قدامى الألمان . وهذان الكتابان يبحثان كيف كانت الحال في عهد ما قبل التاريخ ، إن فيهما مما يدعو إلى التفكير أشياء أكثر من مجرد الحقائق الجامدة ، فكل شيء غامض ومغطى بالضباب فالمرء يستطيع أن يثبت أي شيء ويبرهن على أي شيء بواسطة المادة المعطاة فيهما ، فهي يمكن أن تحرّف بسهولة لأجل الوصول إلى نتائج كانت في الذهن بادىء الأمر .

وها نحن نأتي بمثال واحد بهذا الصدد، مقتبس مما كتبه كيونو Cunow وهو مفسر مشهور لنظرية ماركس ، إنه يقول : « إن القبائل الرحّل التي تعيش على الصيد تنظر إلى المرأة نظرة احتقار ، لأن المرأة لا فائدة منها في الصيد وتربية الماشية وغير لائقة بدنياً للقتال الذي تكون هذه الشعوب المقاتلة مشتبكة فيه دائماً . ولكن لما أخذ الشعب بالزراعة ، وأصبحت هذه عملاً مهماً في المجتمع ، ارتفع مركز المرأة أيضاً في ميزان التقدير ، فأخذ الرجال ينظرون اليها باحترام وتقدير . إن السبب الأساسي لهذا

التغير الجذري سبب اقتصادي صرف ، فبما ان المرأة أصبحت ذات فائدة للناس في نواح عديدة في غرس الأشجار وبذر البذور وجني الثمار مثلاً .. ارتفعت مكانتها » .

إننا — أولاً — لا يمكننا أن نجزم بأن المرأة كانت تحتقر عند كل قبائل العالم . ففي الهند كانت المرأة موضع احترام كبير . وثانياً ، ان بين ما هو مسجّل لدينا ان شعوباً عديدة كانت ، رغم كونها زراعية، لا تحترم نساءها . وعند الرومان ، وكذلك عند قدامى الألمان ، كان مركزها القانوني ، على الأقل ، مركز العبد [10] . ويستنتج مما قرره (كيونو) أنه بما ان المرأة مفيدة في الزراعة فهي تحظى بالاحترام ، أي أي ان الاحترام هو لعملها . ولكن ما أشدّ خطأ هذه النتيجة !! لقد أصاب كارل فيدرن حين قال : « وحتى لو صرفنا النظر عن كل هذه الحقائق التي تثبت عكس ذلك ، فان مجرد هذه الفكرة (انه بما ان المرأة قد عملت في الحقول ، فيجب أن تكون قد نالت الاحترام وأعطيت مركزاً قيادياً في المجتمع) فكرة غريبة مضحكة !! فمتى وأين سجل التاريخ ان العمل وحده قد قاد إلى مركز كريم، وإلى القوة والسلطة ؟ وحتى في وقتنا هذا فان الكرامة والشرف اللذين يعطيان له محدودان جداً ، فهما موجودان بصورة عامة في الكلمات أكثر من الحقيقة . ففي كل الأوقات كان العمل يفرض على المرأة ، وعلى الضعفاء ومن لا أهمية لهم ، لقد كان العمل مفيداً للغاية ، ولكنه لم يكن شيئاً مكرماً ، بل كان المكرمون هم الأقوياء الذين كانوا يسرقون البضائع التي ينتجها العمال . إن الماركسيين يعلمون هذا حق العلم ، بل إنهم ليؤكدون عليه تأكيداً شديداً ، فكيف إذن يستطيعون أن يزعموا ان العمل الزراعي الذي قامت

١٠ أنظر : K. Federn : Op. Cit., p. 54.

به المرأة جعلها تنال السلطة والقوة ؟ إنهم لا يستطيعون أن يقروا الأمرين . إن جمهرة النساء لم تتحسن أحوالهن لمجرد ان العالم خرج من مرحلة الصيد إلى مرحلة الزراعة انما تحسن وضعهن بالحركات الدينية (والسياسية) التي قادها الأنبياء عليهم السلام (والزعماء رجالا ونساءً) في الفترات المختلفة من تاريخ البشر » [11] .

١١ – يقول انكلز في كتابه (ضد دهرنك) : « ليس الدين سوى انعكاس خيالي وهمي في أذهان الناس من القوى الخارجية التي تسيطر على حياتهم اليومية ، وهو انعكاس تتخذ فيه قوى هذا العالم شكل قوى فوق الطبيعة » [12] .

ولكن إذا كانت أساليب الانتاج تعتبر حقاً القواعد الحقيقية التي تقرّر كل البنيان الذي يشاد عليها ، والدين جزء من هذا البنيان ، فسنضطر إلى أن نصل إلى ان أسلوب الانتاج نفسه يجب أن ينتج النوع نفسه من الحركات الروحية ، ونفس النوع من الأنظمة،ولكن الأمور في العالم تختلف تماماً . فنحن نجد ان مائة دين ودين تعيش كلها متجاورة في نفس الظروف الاقتصادية . فاذا كان الدين مجرد انعكاس للظروف المادية التي يعيش فيها الناس فلا مجال لأكثر من دين واحد في وقت واحد ولكننا نجد ان الإسلام والمسيحية والهندوكية ، وعشرات الأديان الأخرى تسيطر على عقول ناس يعيشون في نفس الظروف الاقتصادية . لقد عاش الهندوس والمسلمون في نفس الظروف الاقتصادية ، ونفس النـــوع من أساليب الانتاج ، مئات السنين ، ولكن هذه القوى ، رغم كل قوتها أخفقت في أن تصهر هذه الطوائف في كتلة واحدة ، فهم اليوم يختلفون

---

١١ صديقي : المرجع السابق ص ١٠٦ – ١٠٨ .

١٢ F. Engels : Anti-Duhring, p. 353.

اختلافاً كبيراً في الدين ، كما كانوا يختلفون قبل آلاف السنين [١٣] .

١٢ – ونحن إذا فرضنا . طبقاً للتفسير المادي ، ان الأخلاق في عصر معين هي مجرّد انعكاس لأسلوب الانتاج الذي يعيش فيه جماعة الناس، نتج عن ذلك ان الأخلاق في كل حقبة تاريخية تالية ، لا بد أن تكون – حتماً – أسمى من أخلاق العصر الذي سبقها ، لأننا قد علمنا من ماركس ان النظام الاقتصادي الذي يوجد في حقبة معينة من التاريخ يحل محلّه دائماً نظام أرفع لأن قوى الانتاج الجديدة المتولدة فيه قد نجحت في هدمه . وبما ان النظام الاقتصادي الجديد الناشىء من القديم هو بصورة عامة تقدمي ، ويصوّر درجة أرفع من العدالة الاجتماعية، فمن الواضح انه يجب أن يأتي معه بأخلاق أسمى . لو كان التاريخ سجلاً لتقدم مستمر من جميع نواحيه لكان هذا حسناً ، ولكنه بنفس المقدار سجلّ لفساد وانحطاط . ورغم الخطوات الواسعة الهائلة التي استطاع الإنسان الحديث أن يخطوها من ناحية تسخير قوى الطبيعة لخدمة حاجاته المادية ، ورغم التقدم الذي يحرزه العلم في كل يوم ، في شكل اختراعات لا تخطر في الخيال فإن (الإنسان) ليس بخير أبداً من ناحية الأخلاق [١٤] ... إننا ، من أجل تجاوز هذا الخطأ في مسألة التقدم البشري يجب أن نفرق بين تقدم الفن الآلي والتقدم الأخلاقي ، بين المدنية والحضارة [١٥] .

---

١٣ صديقي : المرجع السابق ص ١١٠ – ١١١ .

١٤ أنظر في هذا المجال بحث الكسيس كاريل القيم (الانسان ذلك المجهول) الذي يحلل فيه التناقض الكبير بين فهم الإنسان للواقع الخارجي المحيط به وبين فهمه لنفسه ، وبالتالي بين السيطرة على الطبيعة والسيطرة على الذات البشرية وتوجيهها صوب الخير والحق والسعادة والإنسجام . وانظر كذلك Joad : A Guide to the Modern Wickedness, pp. 262 - 63 وبحثاً للمؤلف بعنوان (تهافت العلمانية) .

١٥ صديقي : المرجع السابق ص ١١٥ – ١٢٠ .

١٣ – هنالك أيضاً ناحية مهمة أخرى في النظرة المادية للتاريخ التي جاء بها ماركس . فهو يعتقد ان أفكار واتجاهات عصر ما انما هي نتاج مرحلة التطور الاقتصادي التي تم الوصول اليها . ولذلك لا يوجد قانون مطلق أو أخلاق مطلقة في هذا العالم ، وانما هذه كلها انعكاسات لأسلوب الانتاج . ولكن في هذه النظرية تناقضاً خطيراً ، فهو من ناحية لا يرى شيئاً أبدياً ، ومن ناحية أخرى يعرض فكرته عن التاريخ على أنها مطلقة . وهذا تناقض لم يستطع أحد من تلامذة ماركس أن يزيله . فنحن إذ نعتقد ان فلسفة عصر ما ناتجة عن البيئة المادية له ، فهذا ينطبق أيضاً على الماركسية نفسها ، فأفكار ماركس لا يمكن أن تكون صحيحة ومنطبقة على كل الأزمنة لأنها هي أيضاً انعكاس للعصر الذي عاش فيه . فلا بد انه قد كان في ذهنه ظروف المجتمع في ذلك العصر ، وكل ما جاء به ربما كان ملائماً لزمنه هو ولا يمكن بعد زمانه ذاك أن يكون صالحاً للعصور التي تلته . فمع تغير الزمان لا بد لفلسفته أن تتغير . ولكن لا يوجد ماركسيّ مستعد لأن يقبل هذا ، فهم يعتقدون أن نظراته صحيحة في كل الأزمان : أي انها قيم دائمة للمجتمع الانساني لا تتغير [١٦] .

١٤ – ترتبط بهذه المسألة حقيقة على درجة كبيرة من الأهمية ، وهي انه إذا كانت نتيجة التوسّع في المجال الآلي في الصناعة والخدمات معاً هي زيادة الثقافة الفنية لمواطني المجتمع المعاصر التكنولوجي ، وبالتالي زيادة عدد الموظفين عن العمال ، وانكماش الثقافية العمالية التقليدية المحدودة ، وبالتالي انكماش عدد العمال اليدويين .. فان ذلك ينذر ببدء انتهاء عهد النقابات العمالية التي جاء تأسيسها عقب الأزمات المتكررة بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال على عهد الثورة الصناعية منذ بداية القرن التاسع عشر . ومعنى ذلك ان فلسفة (العمل) التي قامت عليها الفلسفة الماركسية ،

---

١٦ المرجع السابق ص ١٢٢ .

ونظام الحكم الماركسي – اللينيني فيما بعد ، ... ستفقد أهميتها في المجتمع المعاصر وستنتهي قيمتها عند انتشار الآلية في الصناعة والخدمات في مجتمعات الغد . والاشتراكية في نظام الحكم التي تعطي السيادة للعمّال التقليديين وتعدهم بالحكم في المجتمع .. لا يصبح أمرها محتماً ولا تصبح سيادتها ضربة لازب في المجتمع العالمي ، كما ترتأي الماركسية [١٧] .

وقد حلّل كاتب ألماني [١٨] مدى تأثر العمل بالآلية في الصناعة في المجتمع التكنولوجي المعاصر وتساءل : هل انتشار الآلية سيزيد في البطالة في العمل ، أم سيخلق فرصاً أخرى جديدة واسعة ، في مجالات الكسب والعمل معاً تستلزم حتماً زيادة في عدد الموظفين الفنيين ، وإن كانت ستنقص من عدد العمال العضليين ؟

فيما يلي ترجمة لبعض ما كتبه الكاتب الألماني : « أنت تقف كعامل بجانب إحدى الآلات الميكانيكية ، أو تجلس كموظف على أحد المكاتب ، ومكانك في العمل يبدو لك وكأنه مؤكد لا يفارقك . وبجانب ذلك اخترعت آلات أخرى ميكانيكية يمكن أن تعوّض ما تقوم به من عمل وهي المحركات الآلية . وهي غالباً أسرع وأدقّ في العمل من الإنسان .

« هل نقف نحن الآن على حافة (بطالة) عن العمل واسعة النطاق؟ هل ستهدد (الآلية) وجودنا ؟ لا . لا هذا ولا ذاك . إن البحوث التي عملت أوصلت إلى ان البلاد التي توسّعت في الآلية ليس لديها اطلاقاً بطالة في العمل ، ووصلت في الوقت نفسه إلى مستوى رفيع في المعيشة . أما البلاد الأخرى التي لم تزل تستخدم الطرق التي مضى عليها

---

١٧ د . محمد البهي : تهافت الفكر المادي والتاريخي ص ٣١ .

١٨ في سلسلة (هنا ما يتعلق بمالك) رقم ٢٥ من قاموس صغير للاقتصاد لـ G. Loger نشرته مجلة Quecki الألمانية عدد ١٣ لسنة ٢١ في ٢٧ اذار سنة ١٩٦٨ ص ٣ (المرجع السابق ص ٣١ هامش ١) .

الزمن في العمل فلديها في مقابل ذلك بطالة وانحطاط في مستوى المعيشة .

« ومن أجل ذلك فمن العبث أن تتحدى الآلية المتقدمة . وعلى كل حال يجب أن نعيش بهذا الوعي وهو : ان المصانع والمكاتب سيستعاض فيها عن القوى البشرية بآلات ميكانيكية . وللتعويض والتعادل تنشأ صناعات جديدة : فالألياف الصناعية تقام أولاً في البداية ، والكيمياء تتطور دائماً في سرعة ، وصناعة الذرة لم تكد تولد بعد ، وصناعة المحاسب الالكتروني ، وتقدير المسافات والأوضاع ، وتحديد الاتجاهات على وجه التأكيد . تنمو سنوياً بمعدل عشرة إلى عشرين بالمائة ، ومنتجات جديدة للاستعمال تتطور . وفيما عدا ذلك أيضاً تنمو وتتزايد مجالات الاقتصاد التي لا تنتج سلعاً ، فالمواصلات والخدمات الطبية والصحية ، وتربية الشعب ، كلما ارتفع مستوى الرخاء كلما زادت الحاجة إلى القيام بخدماتها .

« ان عدد العمال انخفض بينما عدد الموظفين زاد . فألمانيا في سنة ١٩٢٥ كان لديها موظفون تعادل نسبتهم في مجموع القوى العاملة خمسة وعشرين بالمائة . وفي سنة ١٩٥٨ وصلت هذه النسبة إلى ثمانية وعشرين ، وفي سنة ١٩٦٦ زاد عدد الموظفين فأصبحت نسبتهم واحداً وأربعين في المائة من مجموع القوى العاملة . وكل من يأخذ عملاً يجب أن يزيد في تثقيف نفسه . والمراكز الكبيرة للصناعة ، ومدارس الشعب العالية يقدمون امكانيات لهذا التثقيف ، ومن لم يستغل هذه الامكانيات اليوم يمكن أن يسيء إلى نفسه في الغد ... » ويختم الكاتب مقاله بطرح هذا السؤال « هل نحن مستقبلاً سنتمكن من العيش في رخاء ؟ » ثم يرد « لم تعد تجيب على سر هذا السؤال (قوة العضلات) بل الطاقة الذهنية لمن يباشر العمل اليوم » [١٩].

إن الماركسيين — على ضوء هذه التطورات التي ستزداد في المستقبل

---

١٩ د . محمد البهي : المرجع السابق ص ٣٢ — ٣٤ عن السلسلة المذكورة في الهامش السابق .

كماً ونوعاً وبشكل طرديّ – يبدون وكأنهم قد ربطوا تفكيرهم الفلسفي بأوضاع القرن التاسع عشر الاقتصادية والاجتماعية والعلمية ، ولذا فان صلاحية اتجاههم لحلول المشاكل البشرية يقصر عن أن يتجاوز هذه الأوضاع . ويقصر عن أن يمتد إلى القرن العشرين فيعالج مشاكله .

« ... إن ماركس ولينين يعيبان التمسك بالدين ويصفانه بـ (الرجعية) أي رجوع إلى الخلف والوراء ، مع ان صلاحية الدين لم ترتبط بوقت معين ولا بمشاكل لا تتكرر ، إذ هو للطبيعة البشرية بما لها من خصائص أينما وجدت ، وفي أي وقت كانت ، وهدفه أن يحول دون الانحراف في السلوك سواء في المال أو في العلاقات البشرية . بينما ارتبطت الفلسفة الماركسية بمشاكل اقتصادية معينة وأوضاع اجتماعية معروفة خلقتها ظروف خاصة ليس لها طابع الاستمرار ، وهي ظروف القرن التاسع عشر والثورة الصناعية التي تبدلت تماماً في القرن العشرين . أفلا يوصف ذلك الذي ينادي بالماركسية اللينينية ، وقد اختلفت الأوضاع والظروف الآن .. بأنه رجعي ؟ وانه يريد أن يعيد عجلة القرن العشرين إلى القرن التاسع عشر ؟ إن الماركسي (التقدمي) يعيش في صورة الأمس بعد أن حجب عينيه بالتعصب البغيض لاتجاه فلسفي انتهى اعتباره ، عن رؤية التغيير الذي يحدّد صورة اليوم والذي سيحدد صورة الغد » [٢٠] .

١٥ – تؤكد الماركسية – كما مرّ بنا – على ان تغير أسلوب الانتاج أي تغير القوى المنتجة وتغير العلاقات يؤدي إلى تغير النظام، الا ان الواقع التاريخي لعالمنا المعاصر يثبت غير ذلك ، فالقوى المنتجة تغيرت في روسيا وامريكا معاً ، فتغيرت في كل منهما أدوات الانتاج ومعارف الانتاج أي الخبرات الفنية ، ولكن العلاقات في روسيا فقط تغيرت من علاقات

---

٢٠ المرجع السابق ص ٣٤ – ٣٦ .

فردية إلى علاقات جماعية ، وأما في أمريكا فظلت العلاقات فردية [٢١] .

ومعروف ان دول اوروبا الشرقية لا تختلف عن دول اوروبا الغربية من حيث أدوات الانتاج ، ولكن علاقات الانتاج في دول أوروبا الشرقية غيرها في دول أوروبا الغربية ، والنظام في دول أوروبا الشرقية غيره في دول اوروبا الغربية . فما الذي جعله يتغير ؟ هل تطورت دول اوربا الشرقية من الرأسمالية الى الاشتراكية ، أو على حد تعبيرهم بشكل أدق إلى الديموقراطية الشعبية بتطور أدوات الانتاج ، أم باستيلاء روسيا الشيوعية عليها ؟ ... ان العلاقات بين الناس لا شأن لها بأدوات الإنتاج أو (القوى المنتجة) ، فهي تتحسن من حال إلى حال تبعاً لتقدم العلوم والمعارف . وأما العلاقات فتتغير من حال إلى حال تبعاً للأفكار أي تبعاً لوجهة النظر في الحياة . والمدقق في حال العالم منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى الآن يجد ان التقدم العلمي والمخترعات الحديثة قد خطت إلى الأمام خطوات واسعة تفوق جميع الخطوات التي مرت في آلاف السنين ، فلو كانت علاقات الانتاج تتغير وتتطور طبقاً للتغيرات والتطورات في قوى المجتمع المنتجة لكان التاريخ سجّل عشرات الأنواع لعلاقات الانتاج قياساً على انه سجل خمسة أنواع أساسية لعلاقات الانتاج خلال الفترة السابقة لقيام الحكم الشيوعي لروسيا ، لأن التغير والتقدم الذي حصل خلال هذه المدة لا يقاس به أي تقدم سابق . ولكن الواقع ان علاقات الانتاج ، أو بعبارة أخرى الأنظمة التي تسير عليها العلاقات لم يتغير شيء منها على الإطلاق . فالنظام الاشتراكي ظل في روسيا كما هو ، مع ان روسيا انتقلت من دولة لا تملك حتى القنبلة الذرية إلى مركز الدولة الأولى في عالم الفضاء . والنظام الرأسمالي ظل في امريكا كما هو مع ان امريكا في الحرب العالمية الثانية ، وإن كانت تملك القنبلة الذرية ، ولكنها كانت في هذا الشأن وفي عالم

---

٢١ غانم عبده : نقد الاشتراكية الماركسية ص ١٦٩ .

الفضاء لا تزال في حالة بدائية ، ولكنها انتقلت إلى أن صارت ترسل الرجال يدورون حول الكرة الأرضية وصارت ترسل المركبات للمريخ والزهرة وتحاول اللحاق بروسيا وسبقها [٢٢] .

وأما تكذيب التاريخ لقولهم ان العالم انتقل من المشاعية الابتدائية إلى الرق فالنظام الاقطاعي فالرأسمالي فالاشتراكي ، فانه ظاهر في انتقال روسيا التي كانت أقرب إلى الاقطاعية منها إلى الرأسمالية . وتحولها إلى الاشتراكية . وعدم انتقال أوربا الرأسمالية الصناعية من الرأسمالية حتى الآن . وانتقال المانيا الشرقية إلى الاشتراكية بمجرد استيلاء الروس عليها وعدم انتقال المانيا الغربية من الرأسمالية مع انهما بلد واحد ، وهي ، أي المانيا كلها ، بلد رأسمالي صناعي ... الأمر الذي يؤكد انه لا علاقة بين تغير أدوات الانتاج وتحسينها ، وتغير معارف الانتاج وتقدمها ، وبين علاقات الانتاج [٢٣] .

هذا إلى ان تأسيس الصناعات الكبرى — كصيغة من صيغ التبدل التارخي لوسائل الانتاج ، خارج نطاق الوعي البشري — لا ينتج عنه ، بالضرورة ، كما ترى الماركسية ، تجميع العمال والفلاحين معاً والقيام بثورة اشتراكية . بدليل ان هذه الصناعات الكبرى قد قامت في أوروبا وأمريكا قبل روسيا ، ومع ذلك لم ينتج عنها تجميع العمال والفلاحين وبالتالي لم ينتج عنها ثورة اشتراكية ، ولا نتج تحول من الرأسمالية إلى الاشتراكية . وأما ما حصل في روسيا من ثورة فليس ناتجاً عن الصناعات الكبرى ، ولا علاقة للصناعات الكبرى بتلك الثورة ولا بايجاد الاشتراكية في روسيا . وبهذا كله يظهر ان قولهم ان تحول القوى المنتجة ، وتحول

---

٢٢ المرجع السابق ص ١٨٨ — ١٩٠ .

٢٣ المرجع السابق ص ١٩٠ — ١٩١ .

أدوات الانتاج يحصل في النظام القديم ويبرز بصورة مستقلة عن وعي الناس ولكن تحسينهم للقوى المنتجة يؤدي اليه ، هذا القول خطأ ، مخالف للواقع . وتكذبه الحوادث التاريخية ، وما حصل في روسيا بالذات حيث ان حكامها الشيوعيين صاروا يحاولون تغيير علاقات الانتاج ، لا بتغيير أدوات الانتاج ، بل بعمليات القضاء على النظام القديم بالقوة ، وأدوات الانتاج التي كانت سائدة في روسيا في سني ما قبل الثورة الشيوعية ، حين كان النظام اقطاعياً ، ظلّت هي نفس أدوات الانتاج في السنوات التي أعقبت الثورة ، تلك السنوات التي تم خلالها تغيير العلاقات القديمة إلى علاقات جديدة .. ومن هنا يبرز ان تغيير العلاقات كان قبل تغيير أدوات الانتاج ، وانه حصل بالقوة ، وبعد البدء بتطبيق النظام الجديد لا أثناء وجود النظام القديم مما يثبت خطأ إحدى الفروض الأساسية للماركسية [24] .

١٦ — إن (المادية التاريخية) إذ تجعل (أسلوب انتاج الحاجات المادية) أساساً للتطور ، وتجعل (صراع الطبقات) سبيل هذا التطور ، تختلف عن مجرد الافادة من العامل الاقتصادي في تفسير احداث التاريخ بل ان هناك من يؤمنون بالتفسير الاقتصادي ويكتبون في التاريخ الاقتصادي ، ولا يؤمنون بالمادية التاريخية على النحو الذي صاغها به ماركس ، ولا يؤمنون بالصراع الطبقي . يقـــول هرنشو C. Hearnshaw الذي شغل كرسي أستاذ التاريخ بجامعة لندن (بين عامي ١٩١٣ — ١٩٣٤) « ليس بين الدراسات الاجتماعية التي غدا التاريخ وثيق الصلة بها ، ما هو أشدّ لزوماً للمؤرخ من علم الاقتصاد .. نعم ان جميع المفكرين المسؤولين قد عدلوا عن العقيدة المسرفة التي صاغها ماركس وأنكلز والتي تفسر

---

٢٤ المرجع السابق ص ١٩٨ — ٢٠٠ .

التاريخ تفسيراً اقتصادياً محضاً . إلا ان المؤرخين معترفون بـأن العوامل الاقتصادية لعبت دوراً بارزاً في جميع عصور النشوء الاجتماعي للعالم ، وبخاصة في العصور القديمة أيام كان الإنسان مضطراً إلى أن يكافح من أجل وجوده كفاحاً متصلاً أعداء طبيعيين مساوين له في القوة وشدة المراس ... » [٢٥] .

١٧ — ونقرأ — أخيراً وليس آخراً — لجون نيف .John U. Nef ، الذي اضطلع بتدريس الاقتصاد والتاريخ الاقتصادي في عدة جامعات ومعاهد علمية وبعضوية عدد من جمعيات الاقتصاد والتاريخ الاقتصادي ، في تقديم كتابه (الأسس الثقافية للحضارة الصناعية : Cultural Foundations of Industrial Civilization) هذه الكلمات :

« منذ أن بدأت أبحاثي التاريخية ، قبل خمس وثلاثين سنة ، وأنا معنيّ بأصول (العالم الصناعي) الذي نراه اليوم ، وكنت واقعاً تحت تأثير النظرة السائدة عندئذ في الدوائر الجامعية — والتي لا تزال سائدة بشكل ربما كان أقوى من ذي قبل — وفحواها ان التأليف التاريخي يجب أن يقوم على أسس من الاختصاص ، فبحثت عن هذه الأصول كما فعل كثيرون غيري في ميدان التاريخ الاقتصادي ، وبحثت عنها فيما كان ، من إحدى النواحي ، فرعاً ضيقاً من ذلك الميدان ، وهو (نشوء صناعة الفحم البريطاني) . وبمضيّ الزمن أدركت ان محاولتي كمختص ، بل ومعالجتي كلها لمسألة الأصول بالنظر في التاريخ الاقتصادي كانت جزئية ، ثم أدركت ان الإلمام بالتاريخ العام لا بد من أن يغير نظرة الإنسان إلى التاريخ الاقتصادي . فالتاريخ الاقتصادي كما يعرضه المؤرخون

---

٢٥ فتحي عثمان : التاريخ الإسلامي والمذهب المادي في التفسير ص ٢٢ — ٢٣ عن : هرنشو : علم التاريخ (ترجمة العبادي) ص ١٧٨ — ١٧٩ .

المختصون أمثال أرنولد توينبي (أول من شرح فكرة الثورة الصناعية شرحاً منظماً) بل وكما يعرفه أيضاً كارل ماركس (الذي يعتبر من فلاسفة التاريخ وفيلسوفاً مثلما هو مشرّع مذهب) ، هذا التاريخ ليس فحسب تفسيراً ناقصاً للحضارة الصناعية ، بل هو لا يعدّ تفسيراً جزئياً مرضياً ... وجدت نفسي أتساءل عما إذا كانت هنالك علاقة بين الدين والأخلاق والفن — هذه الموضوعات التي ما برحت حيوية عند كثرة من البشر — وبين الموضوعات الخاصة بالبحث الاقتصادي . ولو اني نظرت إلى هذه الموضوعات من خلال مجرد الاحصاءات والأبواب التي جاء بها بعض الاقتصاديين ، باعتبارها تكاد تكون جماع الحكمة ، لوجدتها موضوعات خالية من الحياة . ولم أجد موضوعات البحث الاقتصادي تنبض بالحياة إلا عندما عالجتها من خلال الرجال والنساء الذين شقّوا طريقهم إلى السطح فظهروا في الوثائق التي قرأتها ... ووصلت آخر الأمر إلى أن أصل الحضارة الصناعية الفريدة التي تحيط بنا جميعاً لا يمكن قصره بدقة على مؤرخي الاقتصاد ، وان الطريقة الوحيدة التي قد يتيسر بها فهم هذا الأصل انما تتم من خلال دراسة التاريخ كله مجتمعاً » .

ونحن نجد في الكتاب كله صدى هذه النظرة « إذا اختبرنا مقدمات الثورة الفكرية المسؤولة عن العالم الصناعي الذي نعيش فيه اليوم نجد قلة من الشواهد تؤيد وجهة النظر القائلة بأن العلم الحديث نجم عن التقدم الصناعي في شمالي أوربا فيما بين الاصلاح الديني والحرب الأهلية . فخلال هذه الأزمنة التي شهدت التغير الحاسم في الأساليب العقلية كان العقل نفسه ، لا النظم الاقتصادية ولا التطور الاقتصادي ، هو الذي سمّى النغمات الجديدة ونظّم غالبية صورها المختلفة التي كان كبار العلماء

يرددونها . وان الاكتشافات العلمية الثورية التي توصّل إليها غلبرت وهارفي وغاليليو وكپلر والرياضيات الجديدة عند ديكارت وسارغوس وفرمات وباسكال . لم تكن ذات منفعة عملية مباشرة . والأحرى أن تكون الحرية لا الضرورة . هي القوة الرئيسية وراء الثورة العلمية »[٢٦] .

١٨ — كما نقرأ للاقتصادي البولندي (أوسكار لانكه) ، أحد أكبر اخصائيي الدول النامية ، وهو يستعرض جهود الكتاب الذين اهتموا بدراسة اقتصاد مجتمعات ما قبل الرأسمالية ، منذ عصر ماركس وحتّى عصر بورشييف ، نقرأ ما معناه « ولكن هذه الدراسات جميعها مفككة ، لذلك فان الإقتصاد السياسي للنظم الإجتماعية ما قبل الرأسمالية لما يخرج بعد إلى حيّز الوجود باعتباره فرعاً منظماً من فروع الإقتصاد السياسي »[٢٧]

---

٢٦ المرجع السابق ص ٢٣ — ٢٥ عن : جون نيف : الأسس الثقافية للحضارة الصناعية (ترجمة د . محمود زايد) ص ٩ — ١٢ ، ١٠٤ — ١٠٥ .

٢٧ انظر كتابه : الاقتصاد السياسي ١/ ١٤٨ ترجمة د . محمد سلمان الحسن ، عن مجلة آفاق عربية ، سنة ٢ عدد ٦ ، محمد علي نصر الله : أضواء على نمط الإنتاج الآسيوي .

التفسير الحضاري : توينبي *

مجال الدراسة التاريخية :

يخالف توينبي نهج المؤرخين الذين يعتبرون الأمم المستقلة أو الدول القومية مجالات للدراسة التاريخية . ويرى : « أن المجتمعات الأعظم اتساعاً في الزمان والمكان من الدول القومية أو دول المدن المستقلة ، أو أية جماعات سياسية أخرى ، هي المجالات المعقولة للدراسة التاريخية ... المجتمعات لا الدول هي (الوحدات الاجتماعية) التي يجب أن يعنى بها دارسو التاريخ » .

هذا ما يراه بعد دراسته النموذجية لتاريخ بريطانيا ، واستقراء حقيقته كجزء غير مكتف بذاته بل مفتقر لاكتمال معناه إلى كلٍ أوسع منه هو تاريخ الحضارة المسيحية .

يتأمل توينبي – بعد ذلك – التاريخ الحضاري المعروف ، ويدرس ما انطوى عليه من المجتمعات دراسة مقارنة . فيقرر وجود عدد محدد من الوحدات الاجتماعية التي تميزها خصائص معينة وتجمعها أطوار حضارية متشابهة وتصلح وحدها في رأيه للدراسة التاريخية . وهو يفرق بين طائفتين

---

* ملخص عن منح خوري : التاريخ الحضاري عند توينبي ص ١١ – ٤٦ (دار العلم للملايين) ١٩٦٠ .

من المجتمعات، الأولى بدائية والثانية حضارية . وليس ما يجمع بين هذين النوعين إلا أن كلاً منهما يصلح لأن يكون مجالاً معقولاً للدراسة التاريخية ، أما فيما عدا ذلك فتفصلهما فروق أهمها أن عدد الحضارات المعروفة أقل بكثير من عدد المجتمعات البدائية التي وجدت واندثرت منذ فجر التاريخ البشري . وان الجماعة التي يتكون منها المجتمع البدائي ، والرقعة الجغرافية التي تسكنها ، ومدى عمرها . كل هذه أصغر وأقل بكثير مما تبيّنه المؤرخ في كيان الحضارات المعروفة .

أما المجتمعات الحضارية فهي : المصرية ، السومرية ، البابلية ، الحثية ، السريانية ، المينوئية (في جزر إيجه وكريت) ، الهلينية ، الإيرانية ، العربية . الهندوكية . الهندية ، الصينية ، حضارات الشرق الأقصى (الصينية — والكورية اليابانية) ، الانديانية ، اليوقاتيقية ، المايانية ، المكسيكية ، الارثذوكسية المسيحية البيزنطية ، الأرثوذكسية المسيحية الروسية والحضارة الغربية ، ويضيف توينبي إلى هذه المجموعة مجموعات أخرى قد توقفت في مرحلة من تاريخها عن النموّ الحضاري وهي : البولينيزية ، الأسكيمية ، البدوية ، العثمانية والأسبارطية .

على أن أكثر مجموع هذه الحضارات قد اندثر ولم يبق منها غير سبع ، ستٌّ منها تمر الآن بدور الانحلال وتدور كلها في فلك الحضارة الغربية وهي : الارثوذكسية المسيحية البيزنطية والارثوذكسية المسيحية الروسية والإسلامية والهندوكية والصينية والكورية — اليابانية . والسابعة لا يعرف مصيرها بعد وهي الحضارة الغربية القائمة الآن في اوربا الغربية والكومنولث البريطاني والولايات المتحدة وامريكا اللاتينية .

١ — نشوء الحضارات

ان السؤال الكبير الذي يطرحه توينبي هو : ما الذي أخرج الإنسان من جمود الدور البدائي الذي قبع فيه فترات طويلة من الزمان، وأطلقه

في أجواء الدور الحضاري الزاخر بالحياة والحركة ؟ وهل يمكننا اعتبار (العرقية) أو (المناخية) بين الأجناس أو البيئات سبباً في نشوء الحضارات المعروفة ؟

رفض لدافعي العرق والبيئة الجغرافية :

الشائع بين عدد من العلماء الاثنولوجيين أو علماء الأجناس ان الإنسان بعد انتشاره منذ فجر التاريخ البشري ، ذلك الانتشار الواسع وتعرضه نتيجة لهذا الانتشار لفروق مناخية عظيمة قد تميز ، هو وأبناء جنسه ، بخصائص فزيولوجية ونفسية خاصة . ويفترض علم النفس الاجتماعي وجود صلة وثيقة بين قيمة الخصائص النفسية وطبيعة المزايا الفزيولوجية المتفاوتة في الأجناس البشرية المختلفة .

يتناول توينبي هذا الافتراض الأخير بتحفّظ شديد إذ يعتقد ان علم النفس الاجتماعي لم يتجاوز بعد مرحلة الطفولة . ولذلك لا يصح الوثوق المطلق بنتيجة أبحاثه . ثم يستعرض بعد تحفظه هذا عدداً من النظريات العرقية ، ويبيّن على ضوء ما قدمته الأجناس المختلفة من مشاركة في انتاج الحضارات المتعددة ، اخفاق تلك النظريات الاثنولوجية في تفسير عملية النشوء الحضاري . فالقول بتفوق الجنس الأبيض بفروعه الثلاثة : النوردي والألبيني والايبيري ، والادعاء بأن أبناء هذا الجنس هم الذين أنشأوا الحضارات وأمدوها بالعبقريات في شتى مناحي الإبداع ، والقول بامتياز العنصر الجرماني على غيره من العناصر ، والزعم البريطاني — الاسرائيلي القائل بتحدّر سكان بريطانيا العظمى من أصل القبائل الاسرائيلية العشر (التائهة) ... هذه الأقوال ، وغيرها ، تتهافت عند الوقوف على نتائج الدراسة الحضارية المقارنة التي تبيّن ان جميع الأجناس : الأبيض : بفروعه الثلاثة ، والبولينزي (أي الكوري — الياباني)

والأسمر والأصفر والأحمر ما عدا الأسود قد أسهمت في العمران الحضاري .

* * *

يرى توينبي ان نظرية البيئة الجغرافية لا يمكن الأخذ بها كذلك إلا إذا قامت حضارات مستقلة في بيئات متماثلة جغرافياً . ان ثمة حضارتين أو ثلاثة على الأكثر (المصرية والسومرية والسندية) من مجموع إحدى وعشرين حضارة نشأت بصورة مستقلة في بيئات متماثلة جغرافياً ، ولكن نشوءها على هذا الشكل لا يصح اتخاذه قاعدة ، بل حالة شاذة لا يمكن القياس عليها . وهكذا يستخلص توينبي من هذا ان البيئة الجغرافية وحدها ليست عاملاً أساسياً في نشوء الحضارات الأولى ، فهنالك أحواض انهار تشابه وديان النيل ودجلة والفرات جغرافياً لم تنشأ فيها حضارة مستقلة مطلقاً ولكن عندما استوطنتها جماعات كالأوربيين المحدثين ، وعرفت كيف تستجيب استجابة ناجحة لتحدي البيئة الطبيعية هناك ، نشأت فيها حضارات لم يتمكن السكان القدماء من انشائها بدافع البيئة الجغرافية وحدها .

ويلاحظ توينبي فوق ذلك، ان الحضارات قد تنشأ في بيئات مختلفة، فقد تكون البيئة الطبيعية التي تساعد على قيام الحضارات بيئة رسوبية كما في مصر والسند والعراق ، أو قد تكون هضبية كما في مواطن الحضارات الحثية والمكسيكية ، أو قد تكون أرخبيلية كما في الحضارتين الاغريقية واليابانية .

كل هذا يدل على ان لأي نوع من أنواع المناخ والطوبوغرافية القابلية لأن يكون بيئة طبيعية مساعدة للنشوء الحضاري بشرط أن يتوفر وجود الحافز الأساسي . وهذا ما سيبيّنه توينبي في نظريته الكبرى : نظرية التحدي والاستجابة .

التحدي والاستجابة :

إذا لم يكن نشوء الحضارات ناتجاً عن تأثير العوامل البايولوجية وحدها أو تأثير العوامل الجغرافية وحدها ، فهو ناتج في استقراء توينبي عن تأثير نوع من التفاعل الخلاّق بين هذه العوامل المختلفة « ليس السبب في نشوء الحضارات بسيطاً ولكنه متعدد ، وليس وحدة مستقلة . لكنه علاقة مشتركة »[٢] .

يعرض توينبي لعمليات التحدي والاستجابة وأثرها في نشوء الحضارات حيث يبين أن أصول هذه العلاقة تتجلى في التراث الديني – الميثولوجي – حيث تتعدّد الشواهد على ما كان للتحديات من أثر فعّال في شتى مناحي الإبداع والتكامل . ففي سفر التكوين يشكل تحدي الحية للرب الاله العقدة في قصة سقوط الإنسان الأول وجهاده الخلاق على الأرض .. وفي العهد الجديد يتحدى ابليس يسوع (عليه السلام) وتكون للانسانية قصة الخلاص .. وفي سفر أيوب يكون تحدي الشيطان لله العقدة في قصة الرجل الكامل المستقيم .. وإذا انتقلنا من العهدين القديم والجديد إلى أسطورة (الدكتور فاوست) لغيته، نجد الحوار قائماً على الرهان بين الله والشيطان وزعم الشيطان انه قادر على اغراء ذلك العالم الجليل وتحويله عن حبه لله وقوته على الوفاء له .. كما يذكر توينبي رأي الفلكي الكبير السر جيمس جينز في كتابه (الكون العجيب) حيث يفسر نشأة الكرة الأرضية ، منذ حوالي ألفيْ مليون سنة ، باصطدام شمسين في الفلك .

في كل هذه الشواهد ، وغيرها كثير ، اصطراع خلاّق ، وفيها نشوء متكامل هو نتيجة الاستجابة الظافرة للتحدي المقلق . وهكذا ينتهي

---

٢ Toynbee, A: A Study of History (London, Oxford Univ. Press, 1948.)
وسيعتمده منح خوري باسم (دراسة في التاريخ) .

توينبي من هذا العرض الميثولوجي إلى تصميم نظري يحاول أن يفسّر به ، وعلى ضوء شواهده المنتزعة من تاريخ المجتمع البشري ، عملية النشوء الحضاري .

فالجفاف التدريجي الذي دبّ ، بعد انتهاء عصر الجليد ، في منطقة المراعي الافراسية ، جنوبي آسيا وشمالي افريقيا ، كان التحدي الذي قررت الاستجابة له مصائر الجماعات البدائية من صيّادي تلك الحقبة (الباليوليتيّة). فالشراذم البشرية التي لبثت في تلك المناطق الصحراوية واقتصرت في استجابتها على تغيير بعض عاداتها ، كونت طائفة البداة وسلكت سبيل الحياة البدوية . والقبائل التي استجابت بنزوحها إلى الجنوب سعياً وراء المراعي المتقهقرة نحو المناطق الاستوائية حافظت على نمط معيشتها البدائية ، وما زالت محافظة عليه إلى اليوم . أما الجماعات التي استجابت لذلك التحدي برحيلها إلى وادي النيل حيث النهر العظيم والدلتا الخصيبة والمناخ الملائم ، واستقرارها هناك بعد أن كافحت عوائق البيئة الطبيعية ، وتغلبت عليها وسخرتها لأغراضها ، فقد أنشأت الحضارة المصرية . والظروف المناسبة والعوامل المصطرعة نفسها التي توفرت لقيام هذه المدنية في وادي النيل قد سببت نشأة الحضارة السومرية فيما بين النهرين ، وإن كانت طبيعة الحضارتين مختلفة .

والمعروف ان أحوال البيئة الطبيعية في حوض النهر الأصفر ، حيث قامت الحضارة الصينية ، كانت مما يحفز على الكفاح لغلبة القسوة عليها . فقد ظلّ الصينيون الأوّلون قروناً طوالاً يكافحون الأدغال والغابات والوحوش والحشرات والجفاف والفيضان وأملاح التربة والصقيع حتى استطاعوا في آخر الأمر أن يحولوا تلك البراري الشاسعة الموحشة إلى حقول خصبة مثمرة .

كذلك نشأت الحضارة المايانية بعد الجهاد الشاق لتذليل الأدغال

الاستوائية،والحضارة الانديانية عن مغالبة العوائق الطبيعية في منطقة السفوح الباردة،والحضارة المينوئية عن الاستجابة الناجحة لتحدّ من نوع آخر هذه المرّة هو السيطرة على البحر وتشييد أزهى المدائن الايجيه فوق الجزائر المنتشرة والشطآن المترامية .

ويرى توينبي ان هنالك من الحضارات ما ينشأ نتيجة تحدّ بشري بالدرجة الأولى يتمثل بتحدي الفئة المسيطرة في المدنية المنهارة للبروليتاريا (أي الأكثرية) الداخلية المتخلية عن تلك الفئة بسبب فشلها . وللبروليتاريا الخارجية التي تقبع على حدود المواطن الحضارية ، والتي تتحفز لتقويض سيطرتها المتداعية ، تحدّ تزيله الاستجابة الظافرة المؤدية إلى نشأة حضارة جديدة عن الحضارة الزائلة .

هكذا نشأت الحضارة الغربية عن الهيلينية ، ونشأت هذه عن المينوئية،وهكذا نشأت سائر الحضارات (المتّصلة) عن اسلافها القديمة غير انه كان أحياناً على بعض هذه الحضارات أن تتغلب ، بالاضافة إلى التحدي البشري ، على عقبات ما تستوطنه من المناطق الجغرافية الجديدة التي لم تكن من قبل موطناً للحضارة الزائلة .

مدى التحدي والاستجابة :

يلاحظ توينبي بعد ذلك ان لهذه التحديات الطبيعية والبشرية مدى معيناً يجب ألا تتعداه حتى تكون الاستجابة الخلاّقة ممكنة ، فهي ليست مما يعجز الجهد البشري بصعوبته كل الاعجاز ولا مما ينقاد له بسهولته كل الانقياد ولكنها مما يثير أقصى طاقته على الكفاح ويمكّنه — بفضل كفاحه هذا — من حقه بالظفر المكتسب . فالرخاء المفرط في البيئة عدو الحضارات اللدود ، ولذلك ظلت الشراذم البشرية في (نيازالاند) وغيرها من المناطق الاستوائية الدافقة بالخيرات الطبيعية ، بدائية في حياتها .

وإذا كان الرخاء المفرط يقتل الحضارات في مهودها ، فقسوة العوائق في البيئة قسوة خارقة تشل كذلك النشاط الإنساني وتسقط الأجنة الحضارية قبل تكاملها في بطون الأراضي العاقرة التي تحملها مدة ثم تلفظها عاجزة ضعيفة . ولذلك ظل سكان بعض المناطق القطبية والصحراوية كالاسكيمو والبدو عاجزين عن اللحاق بأدنى المستويات الحضارية . ولذلك لم تستطع روما استرداد حيويتها بعد أن أنهكتها حروب هانيبال الطاحنة .

إن الدافع الحيوي إذن في عمليات النشوء الحضاري هو الاستجابة الظافرة لتحدي البيئة المناسبة . ولكن توينبي يرى بعد استعراض مفصل للمنبهات التي واكبت قيام الحضارات المختلفة ودفعتها في مراقي التكامل ان ثمة خمسة دوافع تتصل بطبيعة تلك البيئة المناسبة وتستثير تفاعلها الخلاّق وهي (أ) دافع الاراضي الصعبة (ب) دافع الأرض البكر (حـ) دافع النكبات (د) دافع الضغط (هـ) دافع العقوبات .

٢ ـ نمو الحضارات

ليس دور النمو امتداداً طبيعياً ملازماً لدور النشوء ، فبين المجموعة الحضارية عدد من المجتمعات التي نشأت ولكنها توقفت عن النمو لعجز الأقلية فيها عن مغالبة التحديات القهارة في بيئاتها الطبيعية أو البشرية الصارمة – (كمناطق الاسكيمو والبدو والبولينيزيين (سكان بعض المدن المتفرقة في المحيط الباسفيكي)) في الحالة الأولى ، وكالمحيط البشري للمجتمعين العثماني والاسبارطي في الحالة الثانية – كذلك لا يكفي أن تكون الاستجابات ناجحة بذاتها وإنما يجب أن تستثير تحديات جديدة تتبعها استجابات جديدة ناجحة وهكذا يتكامل النمو « من تحقيق غاية إلى صراع جديد ، ومن حل مشكلة إلى مجابهة أخرى ، ومن هدأة موقتة إلى حركة راجعة ... إن الحركة المحدودة من حالة التزعزع إلى

حالة التوازن ، لا تكفي بذاتها لكي يتبع النمو النشوء . وحتى تتتابع الحركة وتطرد . يجب أن يكون ثمة دافع حيوي يدفع الفئة المتحداة من التوازن إلى التضعضع ، ومن التضعضع إلى التوازن .. وهكذا إلى ما لا نهاية له في مجال الممكن » [٣] .

يتناول توينبي النظريات الشائعة التي تفسّر النمو الحضاري ويقيسه بمقياس ما تحققه الأمة المتحضرة من انتصارات على البيئة الخارجية .. انتصارات في ميادين الفتوحات الجغرافية ، وانتصارات في ميادين الصناعات والعلوم التقنية . ويرى ان هذه النظريات تخلط بين الاعراض والجواهر ، وتعتبر التقدم (الكمّي) سبباً للازدهار هو في أكثر الأحيان ظاهرة سقوط وانحلال ، فالتوسع الجغرافي يحدث عادة زمان النهضات العسكرية في تاريخ الحضارات وهو زمان (الدول الجامعة) التي تؤسسها الاقليات المسيطرة ، للتعويض عن اخفاقها في قيادة المجتمع قيادة خلاقة ترتقي به من انتصار ايجابي إلى انتصار ايجابي في سلسلة لا تنتهي من الانتصارات البنّاءة . وأما تطوّر الصناعات والعلوم التقنية فانما يتم ، في استقراء توينبي لطائفة كبيرة من الأمثلة المختلفة ، بمعزل عن سير الحضارات في مجال التقدم أو التأخر .

ان هذا العرض التجريبي (للأمثلة المختلفة) قد أوضح بجلاء ان لا علاقة للتقدم التقني بالتقدم الحضاري ، غير اننا نستهدي بتاريخ هذا التقدم التقني للعثور على غرضنا من البحث (أو المقياس الحقيقي للنمو الحضاري) . ثم ما يلبث توينبي أن يعرض للمسائل الأساسية في قضية (النمو الحضاري) وأولها :

١ ـ التقدم في مجال التحقق الذاتي : فهو يلاحظ ، في دراسته لتطور

---

٣ دراسة في التاريخ ٣ / ١١٩ .

العلوم والفنون التقنية اتجاهاً واضحاً نحو تبسيط المعقد وتيسير المتشابك واختزال المستفيض . تيسير في أنواع الآلة حلّ بواسطته المحرك الحديث بالوقود المحترق محل المحرك البخاري القديم ، وتيسير في وسائل النقل المختلفة حلّت بواسطته الشاحنات الحديثة الحرة ، محل القطارات القديمة المشدودة إلى الخطوط الحديدية الثابتة ، كما حلّ اللاسلكي محلّ التلغراف ، وتيسير في اللغة حلت بواسطته الألفباء اللاتينية محل ما عرضته المجتمعات الصينية والمصرية القديمة من الرموز الكتابية المعقدة . هذا التيسير في الميادين التقنية المختلفة يعبر في رأي توينبي عن دافع حيوي يعمل في ذات الإنسان —في صميم ذاته— ليحررها من العوائق المادية بالسيطرة عليها،وباستخدامها في سبيل إطلاق الطاقات البشرية الكامنة في المجتمع ، وبالتالي في سبيل التحقّق الذاتي والتكامل الاجتماعي بفعل اراديّ حرّ . « النموّ — يقول توينبي — يعني أن الشخصية النامية، أو الحضارة تسعى إلى أن تصير هي نفسها بيئة لنفسها،وتحدياً لنفسها،ومجال عمل لنفسها . وبعبارة أخرى : مقياس النموّ انه تقدّم في سبيل التحقق الذاتي » [٤] .

٢ — المجتمع والأفراد : يعني توينبي في بحثه عن حقيقة المجتمع ، بتخطئة نظريتين من النظريات الاجتماعية الشائعة : أولاها تقول بأن الفرد هو الحقيقة الموجودة المدركة وان المجتمع ليس سوى مجموعة من الذرات البشرية ، وثانيتها ترى بأن الحقيقة هي المجتمع — ذلك الكل العضوي — وان الأفراد ليسوا سوى أجزائه ولا يمكن تصورهم غير (خلايا) فيه .

الحق — يقول توينبي بعد دحضه لهاتين النظريتين — : « ان المجتمع هو علاقة بين أفراد ، وأن هذه العلاقة تقوم على اتفاق مجالات أعمالهم الفردية اتفاقاً يجمعها على صعيد مشترك هو ما نسمّيه المجتمع » [٥] . وعلى

---

٤ دراسة في التاريخ ٣ / ٢١٦ .

٥ المرجع السابق ٣ / ٢٣٠ .

هذا يكون المجتمع مجال عمل مشترك بين عدد من الناس . ولكن الأفراد هم (ينبوع العمل) . والنموّ الحضاري كله لا يكون إلا بواسطة المبدعين من الأفراد ، أو بواسطة الفئة القليلة من هؤلاء القادة الملهمين . أما انقياد الأكثرية لهذه الأقلية الخلاقة في المجتمع فيتم بطريقتين : أولاهما مثالية قوامها معاناة الأكثرية للخبرات نفسها ، ومشاركتها في الحالات الوجدانية نفسها التي مرّت بها الأقلية . وثانيتهما عملية قوامها اتباع الأكثرية للأقلية بنوع من الاستجابة الجاهزة أو المحاكاة الآلية .

هذه المحاكاة الآلية هي الطريقة الغالبة في عملية الانقياد الاجتماعي . ولقد تميز بها انسان الجماعات البدائية . كما يتميز بها انسان المجتمعات المتحضرة ، غير انها في الجماعة البدائية حركة سلفية تقود إلى محاكاة القدماء ، بينما هي في المجتمعات الحضارية النامية حركة تقدمية تقود إلى محاكاة الطليعة الخلاقة .

٣ — الاعتكاف والعودة : يتصف عمل الإنسان الخلاّق — في رأي توينبي — بحركة مزدوجة من (الاعتكاف) و (العودة) . الاعتكاف لتحقيق الصفاء الذاتي واستلهام الحق والعودة لهداية الأتباع وتوجيههم . تتجلى هذه الظاهرة في حياة عدد من الأنبياء والرسل وهداة الأمم كموسى ومحمد (ع) وبولس وبوذا وغيرهم . كما تتجلى في تاريخ عدد من المجتمعات الصغرى التي قادت باعتكافها وعودتها ما كانت تنتمي اليه من الحضارات الكبرى في مراقي النمو والازدهار (كايطاليا وانكلترا اللتين اعتكفتا — الأولى فيما قبل عهود النهضة ، والثانية في العصور الوسطى — لتعدّا عدتهما الكبرى لإنهاض الحضارة الغربية) . في هذه الحركة المزدوجة يؤكد توينبي على قيمة العودة بقوله : « الاعتكاف فرصة ، وقد يكون شرطاً ضرورياً لتجلّي المتوحد ، غير ان هذا التجلي يفقد غايته ، ويبطل معناه إذا لم يكن تمهيداً لعودة الذات المتجلية الى البيئة الاجتماعية التي نشأت فيها ..

و (العودة) هي جوهر الحركة كلها ، كما انها غايتها القصوى »[٦] .

٤ – التنوّع داخل الوحدة خلال دور النموّ الحضاري : الحضارة النامية وحدة متماسكة وعملية النموّ حركة منتظمة متناسبة ، ولكن تجارب الفئات المتعددة التي تنهض بهذه العملية ليست متماثلة : انها تختلف باختلاف الكيفية التي يستجيب أو يردّ بها الفرد ، أو الأقلية الخلاقة ، أو المجتمع كله ، على التحديات المتتابعة . ومن هنا نجد الفروق – يقول توينبي – بين أنواع المجتمعات الصغرى في كيان الحضارة الواحدة ، كما نجد الخصائص المميزة لتاريخ الحضارات المختلفة ، فالحضارة الهلينية جمالية الطابع ، والحضارة الهندية دينية النزعة ، والحضارة الغربية علمية المنحى آلية السمات . غير أن وراء هذا التنوع القائم وحدة جامعة هي من قبله الحقيقة الكبرى . ومثل النمو الحضاري ، في تشبيه توينبي ، كمثل الزارع يبذر الحبّ في الحقل . لكل حبة كيان ، ولكل مصير . ولكن البذار مع هذا، من نوع واحد ، يبذره زارع واحد في سبيل الحصاد الواحد .

٣ – سقوط الحضارات وانحلالها

المشكلة الثالثة الأساسية التي يعالجها توينبي هي : أسباب سقوط الحضارات وكيفية انحلالها وزوالها . وفي استقرائه ان الحضارات تمرّ بهذه المراحل الأخيرة ، إذ أن من بين ستّ وعشرين حضارة ستّ عشرة حضارة هي الآن ميتة منطوية (المصرية ، الانديانية ، الصينية ، المينوئية ، السومرية ، المايانية،الهندية ، الحثية ، الهلينية ، البابلية ، المكسيكية ، الاسبرطية والعثمانية) . وأما من العشر الباقية على قيد الحياة فان البولينيزية

٦ دراسة في التاريخ ٣ / ٢٤٨ .

والمجتمعات البدوية تقاسي الآن دور النزاع الأخير ، وسبعاً من مجموع الثماني الأخيرة الباقية تتهددها الحضارة الغربية ، على نسب متفاوتة ، بخطر الإبادة والامتصاص . أضف إلى ذلك أن ست حضارات على الأقل من مجموع هذه السبع تدل القرائن على انها قد شرعت تسقط وتنحدر نحو الزوال .

ان توينبي يدحض – هنا – أهم الآراء التي تردّ السقوط الحضاري إلى أسباب حتمية خارجة عن قدرة الإنسان وارادته ، فينفي السقوط على أساس :

أولاً : المبدأ القائل بصيرورة (الكون) إلى الشيخوخة وانتهائه إلى العدم المحتوم،ويرى مع الطبيعيين ان هذا لن يحدث الا في الأبد السحيق ولذلك يستبعد تأثيره الفعلي على سقوط الحضارات .

ثانياً : الخضوع للمؤثرات البيولوجية ولناموس الكائنات الحية في الولادة والموت مروراً بأدوار العمر المختلفة (اشبنجلر) ويرى ان المجتمعات ليست كائنات عضوية ولذلك فهي لا تخضع لنواميسها .

ثالثاً : التقيد بقانون التشابه أو مبدأ الحركة الدورية في التاريخ ، ويرى ان التشابه أو التكرار ظاهرة تقع في مجرى الحوادث التاريخية ، ولكن الدولاب الذي يحمل عربة التاريخ ، ويدور على نفسه دورة رتيبة ، لا يستبقي العربة في إطاره الثابت المحدود ، بل يدفعها نحو غايتها الكبرى في حركة تقدمية مستمرة .

رابعاً : فقدان السيطرة على المحيط الإنساني ، والعجز عن صدّ الاعتداءات الخارجية على كيان الحضارات ، ويرى ان هذه

الظاهرة ليست في الواقع سبباً للسقوط ولكنها نتيجة انهيار سابق كان قد حدث في قلب الحضارات نفسها ، ويجد الدليل القاطع على هذا الانتحار ، الحضاري ، في تاريخ سقوط الامبراطورية الرومانية .

خامساً : النقص في الميادين العلمية والتقنية ، ويرى « ان سقوط الحضارات هو العلة ، وان التأخر في الميادين التقنيّة ليس سوى النتيجة أو العرض »[7] .

بعد أن يدحض توينبي هذه الحلول الحتمية كلها يورد تفسيره الخاص لطبيعة السقوط الحضاري ويرده إلى أسباب ثلاثة :

أولاً : ضعف القوة الخلاقة في الأقلية الموجهة وانقلابها إلى سلطة تعسفية .

ثانياً : تخلي الأكثرية عن موالاة الأقلية الجديدة المسيطرة وكفّها عن محاكاتها .

ثالثاً : الانشقاق وضياع الوحدة في كيان المجتمع كله .

التفسير التوينبي للسقوط :

إن الفارق الأساسي بين مرحلتي النموّ والسقوط هو ان الأقلية الخلاقة في المرحلة الأولى تكون قادرة على القيام بالردود الناجحة المستمرة على سلسلة من التحديات المتجددة ، ولكنها في المرحلة الثانية تبدو عاجزة عن القيام بهذه المهمة ولذلك نراها تنقلب إلى أقلية مسيطرة تحاول الحفاظ بالقوة على مركز قيادة لم تعد تستحقه . وكنتيجة لهذا الاستكراه على الطاعة يحدث انفصال الأكثرية عن الأقلية ويبدأ ما يسميه توينبي (زمن

---

٧ دراسة في التاريخ ٤ / ٤٠ .

الاضطرابات) ، إذ تنشأ الفتن المحلية أو (الحروب الاقليمية) داخل المجتمع الواحد،وتتواتر الحروب بينه وبين واحد أو أكثر من المجتمعات المجاورة له . غير ان أخطر هذه الاضطرابات ما يحدث بين (الدول الاقليمية) داخل الكيان الحضاري الواحد فيكون سبباً في انتحاره كما كانت الحروب التي نشبت بين دول المدن الاغريقية سبباً في انتحار حضارتها الشاملة .

ويرى توينبي فوق ذلك ان زمن الاضطرابات هذا يشكل بدوره هو الآخر تحدياً عنيفاً يحفز الاقلية المسيطرة على قهره واستئصاله فتعمد إلى خلق (الدولة الجامعة) محاولة أن تسترد بها ما فقدته من سلطان ايجابي ومن قدرة على تقرير المصير الذاتي . غير ان هذه (الدولة الجامعة) ليست في استقراء توينبي سوى استجابة مستبدة عاجزة لا تلبث ، مهما طال عليها الأمد ، أن تنهار أمام دفعة الحياة في (الديانة) الجامعة التي تنبعث من موكب الأكثرية المقهورة ، لتقوض أركان الامبراطورية الفاسدة وما ساد فيها من عبادة باطلة للمعايير النسبية ، وتقديس مهدور للصنميات الفانية في شتى مرافق الحياة الفكرية والاجتماعية ، ثم لتهب الحياة بعد ذلك للحضارة الطالعة .

يقول توينبي في وصف هذا الدور « عندما تنحط الأقلية الخلاّقة في تاريخ أي مجتمع من المجتمعات إلى أقلية مسيطرة تحاول أن تحافظ بالقوة على مركز لم تعد تستأهله ، هذا التبدل الهدام في طبيعة العنصر الحاكم يحفز البروليتاريا (الأكثرية) على الانفصال عنه والتخلي عن تلقائيتها وحريتها في الانجذاب اليه ومحاكاته ، ويدفعها استكراهها على طاعته ، والمنزلة الوضيعة الحافية التي أنزلها فيها إلى الارتداد عليه والثورة ضده . وتنشعب هذه البروليتاريا إذ تنتفض لتأكيد وجودها إلى طائفتين (البروليتاريا الداخلية) و (البروليتاريا الخارجية) المكونة من (البرابرة)

الذين أخذوا يقاومون الآن عبر الحدود الانضمام إلى الحضارة المنهارة مقاومة عنيفة . وهكذا يشكل سقوط الحضارة طبقة محاربة داخل مجتمع واحد لم يكن كيانه في دور النموّ الحضاري منقسماً على ذاته انقسامات حادة ولا منفصلاً عن جيرانه بأبعاد لا يمكن عبورها » [٨] .

الاقلية المسيطرة :

ويفيض توينبي الحديث عن (سلوك) الأقلية المسيطرة للحفاظ على مركزها القيادي بالقوة، وردود الفعل التي تبديها كل من الأكثرية الداخلية والخارجية ، فيبيّن كيف ان الأقلية المسيطرة تسعى إلى تغطية إخفاقها والتعويض عن فعاليتها المفقودة بفاعلية مصطنعة ، فتنشىء الدول الجامعة التي تعجل نهايتها الفاجعة . ويلاحظ توينبي ان خمس عشرة حضارة على الأقل من مجموع عشرين حضارة منحلّة قد أسست مثل هذه الدول ومرّت بها في طريقها إلى الزوال ، فكانت الامبراطورية الرومانية الدولة الجامعة للحضارة الهلينية ، ومملكة (سومر واكد) الدولة الجامعة للحضارة السومرية ،و (الدولة الوسطى) في عهد الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة الدولة الجامعة للحضارة المصرية ، والخلافة العباسية في بغداد الدولة الجامعة للحضارة الإسلامية... إلى غير ذلك من الشواهد . ويظهر في هذا الدور من بين الأقلية المسيطرة كبار العسكريين والاستغلاليين والمشرعين والاداريين لحكم الدول الجامعة وتصريف أمورها ، ويظهر الفلاسفة كالذين نجدهم في عهد انحلال الحضارة الهلينية من سقراط إلى أفلوطين .

---

٨ دراسة في التاريخ ٤ / ٦ .

البروليتاريا الداخلية :

يعرفها توينبي بأنها ذلك العنصر الاجتماعي أو تلك الجماعة التي تكون (في) مجتمع معين ولكنها لا تكون (منه) في أي دور من أدوار تاريخه . ينطبق هذا التعريف على البروليتاريا الداخلية التي انشقت عن جسم الحضارة الهلينية أيام انحلالها والتي يمكن اتخاذها نمطاً عاماً لما قام من أشباهها في الحضارات المختلفة . فقد كانت هذه البروليتاريا مؤلفة من مواطني المدن الهلينية التي نكبتها الفتن السياسية والأزمات الاقتصادية ، ومن جموع الرقيق وأبناء الأمم المغلوبة . هؤلاء جميعاً كانوا بروليتاريين لشعورهم الحادّ بأنهم ليسوا في الواقع جزءاً من كيان المجتمع الهليني . ولقد كانت مقاومتهم بادىء الأمر عنيفة ، ثم لانت بعد ذلك وبلغت أسمى حالاتها بانبثاق المسيحية عنها ديانة عليا . هكذا انبثقت اليهودية والزرادشتية عن استجابة البروليتاريا الداخلية لتحدي الطغيان الأشوري في عهد الدولة الجامعة للحضارة البابلية ، وبتأثير العوامل نفسها تقريباً تحولت الفلسفة البوذية على أيدي البروليتاريا الداخلية في الحضارة الصينية إلى ديانة (الماهايانا) الرفيعة . وفي ظروف مشابهة نشأ الإسلام على يد الرسول (عليه السلام) وجماعته (رضوان الله عليهم) في المجتمع العربي المتفرع مع شقيقه المجتمع الايراني عن الحضارة السريانية الزائلة . أما البروليتاريا الداخلية في الحضارة الغربية (إذا أخذنا بافتراض سقوطها) فتمثلها جماعة (الانتلجنسيا) ، ولكنها لم تستطع حتى الآن إبداع ديانة جديدة (الا إذا كانت المذهبية الشيوعية هي هذه الديانة ، ويشك توينبي في ذلك) لما في المسيحية التي قامت عليها الحضارة الغربية من عناصر الحيوية والبقاء .

البروليتاريا الخارجية :

يمتد إشعاع الحضارة النامية إلى أمداء بعيدة ، وتنفذ تأثيراتها الاقتصادية والسياسية والثقافية إلى مطارح القبائل البدائية المجاورة لها ، فتجذبها إلى موكب الأغلبية السائرة وراء الأقلية الخلاقة فيها . وتظل هذه فعاليتها إلى أن يعروها الضعف والانحلال ، فتفقد جاذبيتها وتخسر طاعة القبائل المجاورة لها ومحاكاتها وتغريها بالإغارة عليها ، لاقتطاع أطرافها السائبة والتمركز فيها ، وجعلها جبهات حرب متواصلة ، ومناطق حدود معينة بعد أن كانت بالأمس في عهد النمو الحضاري مداخل طليقة وأبواباً حرّة . يتم هذا كله لصالح القبائل المرابطة على التخوم أو البروليتاريا الخارجية المنشقة عن كيان الحضارة المنهارة وسلطانها ، بدليل وجود هذه الخطوط الحربية الفاصلة بين الجانبين .

للتدليل على وجود هذه الأعراض كلها في موقف البروليتاريا الخارجية المنشقة عن الحضارة المنحلة ينتزع توينبي شواهده النموذجية من تاريخ الحضارة الهلينية في دور انحلالها ويذكر سقوط المدن الاغريقية واحدة تلو الأخرى بأيدي البروليتاريايين الخارجيين في حربٍ بدأت عام ٤٣١ ق.م وأدّت بالتالي إلى زوالها كلها .

* * *

ويبين توينبي في هذا القسم من دراسته كيف ان انحلال الحضارات يرافقه فساد يدب في أرواح الناس ، وتغيير جذري يطرأ على سلوكهم ومشاعرهم وحياتهم كلها ، ويحل محل الصفات الباهرة والقوى المبدعة التي كانت تزخر بها ذواتهم في دور النموّ الحضاري ثنائية من النزعات والمواقف العقيمة المتناقضة ... وفي هذا الدور يتعرّى الفساد الروحي

أيضاً عن فوضوية تعم الأخلاق والعادات ، وانحطاط يسود الآداب والفنون واللغات . ومحاولات عقيمة للتوفيق بين الديانات المختلفة .. وتسعى الأقلية المسيطرة في حالات معينة إلى أن تفرض بالقوة على رعاياها فلسفة خاصة أو ديناً مختاراً ولكنها تخفق في محاولتها هذه باستثناء حالة شاذة تتمثل في الكيفية (طريق القوة أو التساهل) التي انتشرت بها الدعوة الإسلامية بين الأمم المغلوبة .

النقـد

وجّه عدد من الباحثين نقداتهم لنظرية توينبي في تفسير التاريخ وأشهرهم (بترم سوروكن) و (بيتر جيل) [1] .. فأما سوروكن فيرى النظرية متهافتة في مبدأين أساسيين ، أولهما اعتبار (الحضارة) وحدة معقولة للدراسة التاريخية ، وثانيهما اعتبار الأدوار الحضارية من النشوء إلى النموّ ثم السقوط والانحلال أساساً لفلسفته التاريخية .

يقول سوروكن ان توينبي لا يعني بالحضارة مجرد (مجال للدراسة التاريخية) وانما يعني نظاماً موحداً أو كياناً كلياً مرتبطة أجزاؤه بعضها ببعض ارتباطاً سببياً بحيث يستتبع التغير في الجزء الواحد تغيراً في الكل وبالعكس : « ان الحضارات – يقول توينبي – هي كيانات كلية ، جميع أجزائها ملتحمة بعضها بالبعض الآخر ، وجميعها مؤثرة بعضها في البعض الآخر . ومن خصائص هذه الحضارات في دور النشوء أن تكون جميع نشاطات حياتها الاجتماعية ومظاهرها المختلفة منسّقة في كيان اجتماعي واحد، كيان تنسجم فيه العناصر الاقتصادية والسياسية والثقافية

---

١ منح خوري : التاريخ الحضاري ، ص ١٠٧ – ١١٢ عن
Geyl, Toynbee and Sorokin, **The Pattern of the Past,** (Beacon Press, 1949, pp. 107-126).

بعضها مع البعض الآخر في حياة الجسم الاجتماعي النامي »[2] .

وهكذا نرى توينبي – يقول سوروكن – يفترض ان الحضارات كيانات حقيقية لا مجرد أكوام أو تكتلات لعدد من الظاهرات الاجتماعية والثقافية المختلفة – الظاهرات المتجاورة في الزمان والمكان من غير أن يكون بينها ترابط سببي موحّد . فلو صح افتراضه ان الحضارات كيانات حقيقية إذن لاستلزم التغير في أحد مقوماتها تغيراً في مجموع المقومات الأخرى ، ذلك انه إذا كانت (ألف) مرتبطة (بباء) ارتباطاً سببياً فان تغير (ألف) يستتبع حتماً تغير (باء) في سياق معين ومطرد ، وإلا لما كان بين (ألف) و (باء) ترابط سببي ينتج عنه وجود الكيان الواحد، ولتعين كونهما كتلتين متجاورتين فحسب . والحق ان حضارات توينبي ليست كيانات حقيقية بدليل ما يذكره هو نفسه ، في مناسبات عديدة ، من أن الظواهر الاقتصادية والتقنية كثيراً ما تتغير في الحضارة الواحدة وتبقى الظواهر الأخرى ثابتة ، أو أن العكس هو الذي يحدث أحياناً ، أو أن الظواهر الاقتصادية في حالات أخرى تتغير في اتجاه بينما تتغير العناصر الباقية في اتجاه مقابل .

ويذكر توينبي فوق ذلك أنه كثيراً ما يبدو العنصر الديني أو الفني أو السياسي مستقلاً عن غيره من العناصر في ذلك الكل الحضاري .

وهكذا يعتقد سوروكن ان توينبي يقوّض هو نفسه أساس نظريته القائلة بأن الحضارات وحدات حقيقية ملتحمة الأجزاء بعضها مع البعض الآخر . ويمضي الناقد في تهديمه للمبدأ التوينبي محاولاً أن يبين انتفاء وجود مثل هذه الوحدة الحضارية حتى في ذلك الإنسان الواحد ، فكيف يمكن وجودها في أمداء (مجالات – ثقافية) كالحضارة الهلينية أو الصينية

---

٢ دراسة في التاريخ ٣ / ٣٨٠ .

أو السريانية أو غيرها ؟ وان ما يسميه توينبي وحدة حضارية ليس في الواقع سوى مجال ثقافي تنوجد فيه معاً عناصر عديدة من الأنظمة والتكتلات (الاجتماعية — الثقافية) الكبيرة والصغيرة — تنوجد منسجمة في جانب منها ومتجاورة أو متباينة في الجانب الآخر .

وهكذا إذا لم تكن الحضارات غير مجالات اجتماعية — ثقافية لتلك التكتلات والأنظمة المنوجدة فيها معاً على غير ترابط سببي معقول ، فان مبدأ الأدوار الحضارية في التفسير التوينبي يصبح فاسداً هو الآخر من أساسه . فما ليس في أصله بنية حية كاملة لا يمكن أن يولد وينمو ويموت . وعلى هذا الأساس لا يصحّ اعتبار التفسير التوينبي نظرية في التطور الحضاري بقدر ما هي نظرات تقييمية لأعراض التقدم أو التأخر الحضاري .

يفرع سوروكن من هذين المبدأين الفاسدين فيالتفسير التوينبي أخطاء أخرى أهمها :

أولاً : أن تقسيم توينبي الحضارات الى دنيا وعليا ، وإلى مجهضة ومتوقفة ومتحجرة ، يصبح تقسيماً اعتباطياً لا يمكن الاعتداد به .

ثانياً : تفاوت مدد الأدوار المختلفة التي تمرّ بها الحضارات يصبح هو الآخر تفاوتاً مصطنعاً لا تقره حقيقة الظاهرات التاريخية . ولقد ظلت عملية (الحياة) الحضارية نفسها (متى) و (كيف) نشأت ، سرّاً مغلقاً كان على توينبي أن يعنى به قبل أن يعنى بدراسة أعراض المرض والانحلال والموت .

ثالثاً : إن اعتباره دور النشوء الحضاري فترة سلام دائم ، لا يؤيده واقع الأحداث التاريخية ، وهو مردود بأكثر من شاهد ، فالحضارة الغربية — مثلاً — كانت في نظر توينبي نفسه تنعم قبل القرن الخامس عشر بدور النموّ مع انه من المحقق ان

القرنين الثالث عشر والرابع عشر كانا من أخصب القرون بالفتن والقلاقل في تاريخ أوروبا كلها . أضف إلى ذلك أن أدوار الانحلال في عدد من الحضارات كانت في أحوال كثيرة أعمر بالسلام من أدوار النشوء والازدهار .

رابعاً : ان ما يسنده توينبي إلى الحضارات — بتأثير فلسفة اشبنجلر على تفسيره للتاريخ — من الخصائص الغالبة المميزة (جمالية عند الاغريق ، دينية عند اليهود، آلية — تقنية عند الغربيين) يدحضه كذلك الواقع التاريخي ، فقد كانت الحضارة الغربية متميزة بطابع ديني ، ولم تكن آلية تقنية على الاطلاق . وكانت الحضارة الإسلامية من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر الميلادي متميزة بطابع علمي لا تدانيها فيه الحضارة الغربية يومها . وهكذا فان ما يسميه توينبي خصائص مميزة لطبائع الحضارات ليس في الواقع سوى أحوال حضارية متبدلة تتناوبها الحضارات المختلفة وليست وقفاً على واحدة منها دون الأخرى .

خامساً : ينتزع توينبي أكثر شواهده من تاريخ (الدول القومية) مع انه لا يعترف بها وحدات للدراسة التاريخية وكان عليه أن ينتزعها من تاريخ الحضارات لو صحّ وجودها كوحدات مستقلة ، ففي عمله هذا إذن تناقض صريح .

ويأخذ سوروكن على توينبي بالاضافة إلى هذه الانتقادات كلها تطويل (دراسته) التاريخية دون مبرّر ، فقد كان يمكنه تركيزها دون أن تفقد شيئاً من روعتها ، كما يأخذ عليه تفاوت اطلاعه على أحوال الحضارات المختلفة التي تناولها في أبحاثه ، وانهماكه في تقرير مبادىء كان بعض علماء الاجتماع كتارد ودركايم وماكس وبر قد فرغوا من بحثها قبله :

كمبدأ المحاكاة وقوانينه ، وصلة العوامل العرقية والجغرافية بموضوع النشوء الحضاري مما تجاهله توينبي أو فاته الاطلاع عليه . ولكن سوروكن يعود فيعترف ان دراسة توينبي في التاريخ هي من أعظم الآثار الفكرية في مجال الأبحاث التاريخية لهذا الجيل .

* * *

أما على مستوى (المنهج) فان توينبي يعلن في مواضع عديدة من دراسته انه يتبع في بحثه المنهج التجريبي . وهو منهج يعتمد ثلاث خطوات يقوم بها الباحث في تحرّية عن الحقيقة العلمية . الأولى تكوين فكرة عامة عن (الكلّ) المراد اكتناه حقيقته والخروج من تلك الفكرة (بفرض) عام يصلح لتفسير الظواهر المشاهدة ، والخطوة الثانية هي محاولة تحقيق هذا (الفرض) بالتجربة ، فاذا أثبتته التجربة فقد أصبح الفرض (نظرية) وبذلك تتم الخطوة الثالثة والأخيرة .

وقد أخذ عدد من النقاد وفي طليعتهم (بيتر جيل) [٣] على توينبي سوء تطبيقه لهذا المنهج العلمي في أبحاثه التاريخية . فقد (انتخب) من مجموع الظاهرات ما يناسب (فرضه) ، وعرض شواهده المختارة بالطريقة التي تلائمه ، وفسّرها تفسيراً موائياً للفكرة العامة الجاهزة التي بدأ منها . إن اختبار (الفرض) عنده لم تحققه (التجربة الحاسمة) . ثم ان عملية (انتخاب) الشواهد التي لجأ اليها قد حملته على التبسيط وبالتالي التشويه لحقيقة الظاهرات التاريخية ، فضلاً عن النظر إلى (أجزاء) الكل على أنها وحدات منفصلة قائمة بذاتها . فأدلته مثلاً على صحة نظرية التحدي والاستجابة ، أو نظرية الاعتكاف والعودة ، منتزعة انتزاعاً من إطارها الكلي وظروفها الشاملة في حياة هذه أو تلك من الحضارات التي وقع

---

٣ Geyl, Toynbee and Sorokn, op. cit., pp 16-23.

عليها اختياره . ولما كانت (حياة) الحضارات (كلاً) دينامياً كما يقرّر هو نفسه ، أي انها عملية وليست شيئاً ثابتاً جامداً ، فقد كان ينبغي أن ينظر في (أعضاء) ذلك (الكل) على انها احداث داخل تلك العملية الكلية ، احداث متجهة باتجاهها ومكيّفة وفقاً لظروفها وليس لها كيان مستقلّ بذاتها . وهكذا فان إخفاق توينبي في (تحقيق الفرض) بالتجربة الحاسمة وعزله (الاجزاء) بحيث لم تعد ذات دلالة معينة في بناء (الكلّ) يقوّض دعائم المنهج التجريبي الذي حاول أن يعتمده في تفسيره . وعلى هذا الأساس فان ما استنتجه توينبي من القوانين العامة لا يصحّ اعتباره كذلك وإنما هو نظرات في تفسير الأحداث قد تكون صائبة وقد لا تكون .

الفَصْلُ الثَاني

الواقِعَة التَارِيخيّة

١

يعتمد القرآن الكريم في عرض الواقعة التاريخية على أكثر من أسلوب ، وليست الحبكة القصصية سوى واحدة منها فحسب . وعليه فلا يقعنّ في الظن ان كل معطيات القرآن التاريخية تحمل طابعها القصصي وتطغى فيها النزعة الجمالية على المضامين . كما سيطر على الأذهان في عصر كانت فيه (قصص أهل الكتاب) مثلاً يطمحُ اليه . اننا إذا ما وضعنا في الحسبان كافة المكونات التكنيكية للقصة وسائر شروطها الفنية . استطعنا أن نتبين أن عدداً كبيراً من عروض القرآن التاريخية ، وإن جاءت تسميتها — أحياناً — بالقصص . أي الحديث عن الماضي ، تخرج عن الاطار الفني للقصة وبهذا تكتسب بعدها التاريخي المجرد .

ومهما يكن من أمر فقد قدم لنا القرآن الكريم نماذج عديدة للمعطيات التاريخية ، وحدثنا عن الماضي في جلّ مساحاته لكي ما يلبث أن يخرج بنا إلى تبيان (الحكمة) من وراء هذه العروض وإلى بلورة عدد من المبادىء الأساسية في حركة التاريخ البشري مستمدة من صميم التكوين الحدثي لهذه العروض ، تلك المبادىء التي سماها (سنناً) ، ودعانا أكثر من مرة إلى تأملها واعتماد مدلولاتها في أفعالنا الراهنة ، ونزوعنا المستقبليّ. ومن ثم يتأكد لنا مرة أخرى ان هذه العروض ما جاءت لكي تلقي المتعة في نفوس المؤمنين ، كما هو الحال في أي نشاط فني ، قبل أن تبرز للعيان

الاتجاهات التعليمية الحديثة في ميادين الفنون ، انما جاءت لكي (تعلمهم) من خلال تجاربهم الماضية و (تحركهم) عبر الأضواء الحمراء والخضراء التي أشعلتها لهم هذه التجارب في طريق الحياة المزدحم الطويل .

وإذا كانت هذه العروض التاريخية قد حملها إلى الناس أسلوب أخاذ ، وحبكة فنية تصل في بعض السور حدّ التكنيك القصصي الكامل ، فما ذلك إلا بسبب الارتباط العضوي العميق في القرآن بين الأسلوب والمضمون . حتى في أشدّ الآيات (علمية) و (تشريعية) ، وكأنه — بهذا — كان يريد أن يطرح إعجازاً مزدوجاً ، وأن يقول للعربي انه لم يأت بمضامين ومعطيات جديدة فحسب ، بل انه قدمها لهم (بلغة) هي لغتهم نفسها ولكن .. شتان !! يبدأ القرآن الكريم في سورة البقرة بتقديم الحدث (الواعي) الأول في تاريخ الإنسان فيعرض لنا (مشهد) خلقه كانسان ، بما هو تركيب متكامل من عقل وجسد وروح وعاطفة ... وسيتكرر عرض هذا المشهد ، ومن زوايا مختلفة ومتكاملة في سور ومقاطع أخرى من القرآن الكريم . ولا يتطرق القرآن في مشاهده التاريخية هذه إلى تفاصيل وجزئيات هذا الخلق الأولي ، ولا إلى الفترة الزمنية التي تم فيها بعثه لأداء مهمته في العالم . ومن ثم لا داعي هنا لأن ندخل في مناقشات حول (مسألة النشوء والارتقاء) ومدى انسجامها مع الطروح القرآنية إذ لا نجد خلال هذه الطروح التي تجاوزت الجزئيات والتفاصيل أي تناقض ازاء احتمالين أساسيين لا ثالث لهما : هما الخلق المباشر المستقل ، أو النشوئي الارتقائي [1] .

نجتزىء من هذه الطروح بشاهد واحد ، ذلك الذي ورد في سورة البقرة « وإذ قال ربك اني جاعل في الأرض خليفة . قالوا : أتجعل فيها

---

١ أنظر بالتفصيل مقال (ملاحظة في التقليد الحضاري) للمؤلف ، مجلة الوعي الإسلامي ، السنة ٨ ، العدد ٩٥ .

من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك ؟ قال : اني أعلم ما لا تعلمون . وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ؟ قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم اني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ، أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين : فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم . قلنا : اهبطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم مني هدى ، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » [٢] .

ان هذا العرض ، يضع حجر الزاوية لكافة العروض القرآنية التالية في الزمن ، فضلاً عن انه على المستوى الحضاري يقدم عدداً من المبادىء الأساسية الخطيرة حول تركيب الإنسان ودوره في العالم ، والصراع بين الخير والشر ، والعلاقة بين السماء والأرض ، والمصير الذي ستؤول اليه هذه المسائل جميعاً ، مما سنعود اليه بالتحليل في فصل آخر .

هنا في هذا المشهد نكاد نلتقي بصيغة متكاملة للعرض التاريخي لواقعة من أشهر الوقائع خطورة في تاريخ الإنسان . ورغم تجاوز القرآن للتفاصيل والجزئيات ، الا انه يحيط من جهة أخرى بكافة القضايا والمساحات الأساسية لهذه الواقعة بحيث انه لا يترك ثغرة يمكن أن يتسرب منها سؤال لا يجد

---

٢ البقرة ٣٠ – ٣٩ .

الاجابة عنه ، ابتداءً من لحظة خلق آدم بشروطه التي لا زالت تصوغ بشريتنا ، وانتهاءً باستقراره على الأرض لكي يكافح – وذريته – ويصارع ، متلقياً عن السماء ، حيناً بعد حين ، اشارات إلهية تعينهم على تبين ملامح الطريق وتقودهم في قلب العالم ، ثانية إلى السماء ، ثم يستكمل العرض جوانبه بالتحدث عن المصير الذي سيبعث اليه الإنسان بعد رحلته الشاقة المجهدة في الأرض .

ثم ما تلبث عروض القرآن التاريخية ، أن تترى بعد ذلك ، مغطية مساحة زمنية طويلة تبدأ بآدم وتنتهي بالرسول (ص) لكي تقف عنده طويلاً متحدثة وملامسة ومعلقة وموازية معظم احداث سيرته الغنيّة ، فيما يمكن أن نتلمّس أبعاده في الدراسات والتفاسير الخاصة بأسباب النزول . وما تلبث العروض أن تتجاوز عصر الرسول (ص) لكي تقدم لنا عن المستقبل القريب والبعيد بعض نبوءاتها التاريخية . ونحن نلمح – فضلاً عن هذه التغطية العمودية لتاريخ البشرية ، متمثلة بالدرجة الأولى بالحديث عن تجارب الحوار بين السماء والأرض – تغطية أخرى أفقية لكل واقعة من الوقائع ، على حدة ، الأمر الذي يفسر لنا ورودها في أكثر من موضع من القرآن ، حيث أريد لها أن تستكمل كافة جوانبها ، وأن تسلط الأضواء على سائر مساحاتها وتكويناتها ، فلا يتبقى منها أيما جانب لا يصل اليه الشعاع . وفيما يأتي جدول بأهم هذه العروض والقصص القرآني التاريخي على حسب تسلسلها في القرآن نفسه دون أن نشير إلى أي عرض خاص بسيرة الرسول (ص) مما يخرج بنا عن الموضوع ، ومما يمكن أن نجده في أية دراسة خاصة بالسيرة [٣] .

آدم (البقرة ٣٠ – ٣٩) بنو اسرائيل (البقرة ٤٩ – ٧٤) ابراهيم

---

٣ أنظر على سبيل المثال : صالح أحمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، جـ١ ومحمد عزة دروزة : سيرة الرسول جـ١ – جـ٢ ، والمؤلف : دراسة في السيرة .

واسماعيل ويعقوب وبناء الكعبة (البقرة ١٢٤ — ١٣٤) بنو اسرائيل وطالوت وجالوت (البقرة ٢٤٦ — ٢٥٢) ابراهيم (البقرة ٢٥٨ ، ٢٦٠) رجل القرية (البقرة ٢٥٩) مريم وعيسى (آل عمران ٣٣ — ٦٢) اليهود وموسى وعيسى (النساء ١٥٣ — ١٦٠) مقاطع عن اليهود والنصارى (المائدة ١٢ — ١٤) موسى ودخول فلسطين والتيه (المائدة ٢٠ — ٢٦) هابيل وقابيل (المائدة ٢٧ — ٣٢) المسيح والحواريون (المائدة ١١٠ — ١١٩) ابراهيم (الأنعام ٧٤ — ٨١) آدم والشيطان (الاعراف ١١ — ٢٥) نوح وآخرون (الأعراف ٥٩ — ٩٣) موسى (الاعراف ١٠٣ — ١٧١) نوح وموسى (يونس ٧١ — ٩٣) نوح (هود ٢٥ — ٤٩) هود (هود ٥٠ — ٦٠) صالح (هود ٦٠ — ٦٨) ابراهيم (هود ٦٩ — ٨٣) شعيب (هود ٨٤ — ٩٥) موسى (هود ٩٦ — ٩٩) يوسف (سورة يوسف بكاملها) ابراهيم (ابراهيم ٣٥ — ٤١) الخليقة والشيطان (الحجر ٢٨ — ٤٤) ابراهيم (الحجر ٥١ — ٧٦) أصحاب الحجر (الحجر ٨٠ — ٨٤) آدم والشيطان (الاسراء ٦١ — ٦٥) موسى (الإسراء ١٠١ — ١٠٤) أهل الكهف (٩ — ٢٦) أصحاب الجنتين (الكهف ٣٢ — ٤٤) موسى والخضر (الكهف ٦٠ — ٦٢) ذو القرنين (الكهف ٨٣ — ٩٨) مريم (مريم ١ — ٣٣) ابراهيم (مريم ٤١ — ٥٠) طه (طه ١ — ٩٨) آدم (طه ١١٥ — ١٢٧) ابراهيم (الأنبياء ٥١ — ٧٣) داود وسليمان وآخرون (الأنبياء ٧٨ — ٨٢) نوح (المؤمنون ٢٣ — ٢٩) موسى وآخرون (الفرقان ٣٥ — ٣٩) موسى (الشعراء ١٠ — ٦٨) ابراهيم (الشعراء ٦٩ — ٨٩) نوح (الشعراء ١٠٥ — ١٢٢) عـــاد (الشعراء ١٢٣ — ١٤٠) ثمود (الشعراء ١٤١ — ١٥٩) لوط (الشعراء ١٦٠ — ١٧٥) شعيب (الشعراء ١٧٦ — ١٩١) موسى (النمل ٧ — ١٤) سليمان (النمل ١٥ — ٤٤) ثمود (النمل ٤٥ — ٥٣) لوط (النمل ٥٤ — ٥٨) موسى (القصص ٣ — ٤٤) قارون (القصص ٧٦ — ٨٣)

نوح وابراهيم ولوط وآخرون (العنكبوت ١٤ — ٤٠) نوح وابراهيم وموسى وإلياس ولوط ويونس (الصافات ٧٥ — ١٤٨) داود (ص ١٧ — ٢٦) سليمان (ص ٣٠ — ٤٠) أيوب وآخرون (ص ٤١ — ٤٨) آدم والخليقة (ص ٦٩ — ٨٥) موسى (غافر ٢٣ — ٤٥) موسى (الزخرف ٤٦ — ٥٦) موسى (الدخان ١٧ — ٣٣) عاد (الدخان ٢١ — ٢٦) نوح وآخرون (ق ١٢ — ١٤) ابراهيم وآخرون (الذاريات ٢٤ — ٤٦) عاد وآخرون (النجم ٥٠ — ٥٤) نوح (الفجر ٩ — ١٦) عاد (القمر ١٨ — ٢١) ثمود (القمر ٢٣ — ٣١) لوط (القمر ٣٣ — ٣٩) فرعون (القمر ٤١ — ٤٢) موسى وعيسى (الصف ٥ — ٧) ثمود وعاد والمؤتفكات (الحاقة ١ — ١٠) أصحاب الجنة (القلم ١٧ — ٣٣) نوح (نوح ١ — ٢٨) فرعون (المزمل ١٥ — ١٦) موسى وفرعون (النازعات ١٥ — ٢٦) الأخدود (البروج ٤ — ١٠) عاد وثمود وفرعون (الفجر ٦ — ١٤) ثمود (الشمس ١١ — ١٥) أصحاب الفيل (الفيل ١ — ٥) .

ونلاحظ من خلال هذا الجدول ان أكثر الأنبياء وروداً هما (ابراهيم) و (موسى) وأغلب الظن ان كون أولهما (أبا الأنبياء) وثانيهما رائد سلسلة أنبياء وملوك بني اسرائيل الطويلة والدور الواسع المعقد المتشعب الذي لعبه كل منهما في ميدان الدعوة إلى الله الواحد ، والمساحة الزمانية والمكانية التي شغلاها ، والتي تؤكد معطيات الآثار المعاصرة على امتدادها وشمولها وخطورتها ، كانت الأسباب الحقيقية وراء هذا التأكيد في المواضع المختلفة على تجربة هذين المبعوثين الالهيين مع عدد من الجماعات والأقوام . ونلاحظ أيضاً ان عروض القرآن التاريخية لم تنصب على الأنبياء (كأفراد) فحسب ، بل اتجهت إلى الأقوام المختلفة (كجماعات) تلعب دورها الحاسم في حركة التاريخ كذلك .

وبين هذا وذاك نلمح تنوعاً في العروض القرآنية وهي تحدثنا عن مواقف الأفراد والجماعات ازاء عدد من الأحداث والقيم التاريخية ، يمتد بعضها الى خلق آدم ، وردود الفعل التي أثارتها هذه الخطوة الإلهية الحاسمة . ويصل بعضها إلى عدد من التجارب التي مارسها أفراد عاديون سلباً (أنظر وقائع : أصحاب الجنّتين ، أصحاب الحجر ، وقوم لوط) أو ايجاباً (أنظر أهل الكهف وأصحاب الأخدود) أو نفذها قادة وملوك وزعماء كبار (أنظر الوقائع الخاصة بفرعون وقارون وذي القرنين وأصحاب الفيل) ، مروراً بسلسلة الأنبياء الطويلة التي بعثت لكي تجدد الحوار الموعود ، منذ عهد آدم بين السماء والارض ، وتسعى بأقوامها الى صياغة حركة التاريخ بما ينسجم ومركز الإنسان في الكون ، ومن ثم كانت المساحة الواسعة المخصصة لهؤلاء الزعماء الهداة (ع) مكافئة وموازية لحجم الدور الذي بعثوا لكي يقوموا بتنفيذه في العالم .

وتتجاوز بعض آيات القرآن ، الماضي والحاضر ، لكي تمدّ رؤيتها إلى المستقبل القريب أو البعيد في تنبؤات تاريخية ، يحيطها علم الله تعالى المطلق بالصدق الكامل والضمانة النهائية . ولقد نفذ بعض هذه التنبؤات في عهد الرسول نفسه ، وظلّ بعضها الآخر ينتظر التنفيذ إذ لم يحدد له زمن بالذات :

(الم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين ، لله الأمر من قبلُ ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) [4] . ولقد شهد العصر المكي نفسه تنفيذ هذه النبوءة بعد سنوات قلائل من نزولها ، الأمر الذي أحدث هزة فرح مزدوج

---

٤ الروم ١ — ٧ .

في نفوس المؤمنين ، فرح بانتصار الكتاب على الوثنية ، وفرح باليقين العميق الذي ألقاه في نفوسهم هذا التنفيذ الصادق لوعد الله ! ! .

(لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ، محلقين رؤوسكم ومقصرين ، لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا . فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) . وسواء كان هذا الفتح عقد صلح الحديبية مع قريش زعيمة الوثنية ، أم فتح خيبر آخر القلاع اليهودية الخطيرة في جزيرة العرب ، فان الوعد قد صدق وشهد المسلمون فتحاً من أخطر فتوحهم في تاريخ دعوتهم الطويل ... (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ... والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) [٦] .

(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً) [٧] . (فاصبر ان وعد الله حق ، فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون) [٨] .

ولقد رأى الرسول (ص) بأم عينه كثيراً من هذا الذي وعد الله به المشركين ابتداءً من انتصار بدر الحاسم وحتى دخوله مكة وعام الوفود واعلان (براءة) الحاسم الذي صفى الوجود الوثني نهائياً [٩] .

(وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلنّ علواً كبيراً . فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً . ثم رددنا لكم الكرة عليهم

---

٥ الفتح ٢٧ .
٦ آل عمران ١٢ – ١٣ .
٧ الفتح ٢٨ .
٨ غافر ٧٧ .
٩ أنظر : المؤلف : دراسة في السيرة .

وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها . فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبّروا ما علوا تتبيراً . عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً) [10] .

(حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين) [11] .

(وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) [12] . (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون) [13] .

ومن عجب ان القرآن الكريم ، المنبثق عن علم الله الكامل ورؤيته المحيطة بمجريات الزمان كله ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، لم يسرف في نبوءاته التاريخية واكتفى منها بما يعد على أصابع اليدين ، لأنه لم يجىء لكي يكون كتاب تنبؤات .. هذا بينما مارس عدد من كبار الوضعيين كهيغل وشبنجلر وماركس ، في تفسيرهم للتاريخ ، اسرافاً خيالياً ، ومدّوا أبصارهم صوب المستقبل المجهول يرسمون على صفحاته اللانهائية نبوآتهم التي يعقب بعضها بعضاً ، وهم الذين يملكون عقولاً بشرية مهما بلغ من مقدرتها ونفاذها ، فان معطياتها لا تعدو أن تكون انعكاساً منظماً لما تقدمه منافذ الحسّ المحدودة من أوليّات . ومن عجب كذلك أن يطلق بعضهم على نبوءاته تلك سمة (العلمية) الأمر الذي

---

١٠ الإسراء ٤ – ٨ .
١١ الأنبياء ٩٦ – ٩٧ .
١٢ النمل ٨٢ .
١٣ النمل ٩٣ .

يتناقض أساساً والمنهج التجريبي الذي يرفض الظن والتخمين **وتجاوز الوقائع** إلى ما وراءها .

ولقد أشارت الآية الثامنة والسبعون من سورة غافر ، تعقيباً على موقف القرآن من العروض والأحداث التاريخية إلى ان كتاب الله ما جاء ليكون(بحثاً تاريخياً) يستقصي كافة نشاطات الأنبياء ويحصيهم عداً ، وان ما قدمه كان لادراك الخطوط العريضة لمسيرة التاريخ البشري (ولقد أرسلنا رسلاً من **قبلك** ، منهم من قصصنا **عليك** ومنهم من لم نقصص **عليك** ..) .

ان القرآن الكريم يبين لنا في حشد آخر من الآيات الهدف من ايراد **القصص** والعروض التاريخية وهو الهدف نفسه الذي يمكن أن يتمخض عن أي مطالعة جادة ذكية واعية ملتزمة للتاريخ : اثارة الفكر البشري ، **ودفعه** إلى التساؤل الدائم والبحث الدائب عن الحق ، تقديم خلاصات **التجارب** البشرية ، عبراً يسير على هديها أولو الألباب .. ازاحة ستار **الغفلة** والنسيان في نفس الإنسان ، وصقل ذاكرته وقدرته على المقاومة **لكي** تظل في مقدمة قواه الفعّالة التي هو بأمس الحاجة إلى تفجير طاقاتها **دوماً** وهو يواصل الكفاح في عالم يرفض الذين يعانون الغفلة والكسل الذهني والتواكل واليأس والنسيان .. تقديم الدليل على علم الله الواسع الذي أحاط بحركة التاريخ ماضياً وحاضراً ومستقبلاً .. ثم تأكيد البرهان على الحق الواحد الذي جاء به الأنبياء السابقون جميعاً وسعوا إلى آن **يقودوا أممهم** إلى مصدره الواحد الذي **لا إله إلا** هو [14] .

---

١٤ عن الآيات الخاصة بوحدة الديانات السماوية أنظر : البقرة ١٣٦ – ١٣٨ ٢٨٥، آل عمران ٣ ، ٣٣ – ٣٤ ، ٥٠ ، ٨٤ النساء ٤٧ ، ١٣٦ ، ١٥٠ – ١٥٢ ، ١٦٣ – ١٦٥ المائدة ١٤ ، ٤٦، ٤٨ ، ٥٩ الأنعام ٨٣ – ٨٧ ، ٩٢ العنكبوت ٤٦ – ٤٧ الأحزاب ٧ الشورى ١٣ الأحقاف ١٢ ، ٣٠ الذاريات ٣٦ النجم ٣٦ – ٥٤ الصف ٦ – ٧ .

(ان هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله ..) [15]
(تلك القرى نقصّ عليك من أنبائها) [16] .
(فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) [17] .
(ذلك من أنباء القرى نقصّه عليك منها قائم وحصيد) [18] .
(وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) [19] .
(نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) [20] . (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) [21] .
(وكذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد أتيناك من لدنا ذكراً) [22]
(وقالوا : لولا يأتينا بآية . أو لم تأتهم بيّنة ما في الصحف الأولى ؟) [23]
(أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون) [24] .
(فلنقصنّ عليهم بعلم وما كنا غائبين) [25] .
(قال : فما بال القرون الأولى ؟ قال : علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) [26] .
(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مسّتهم البأساء والضرّاء ، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه

---

١٥ آل عمران ٦٢
١٦ الأعراف ١٠١
١٧ الأعراف ١٧٦
١٨ هود ١٠٠
١٩ هود ١٢٠
٢٠ يوسف ٣
٢١ يوسف ١١١
٢٢ طه ٩٩
٢٣ طه ١٣٣
٢٤ الأنبياء ٢٤
٢٥ الأعراف ٧
٢٦ طه ٥٢

متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب) [٢٧] . (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العُمُر ، وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) [٢٨] .

* * *

هذا عن الأسباب الأساسية لإيراد القصص والوقائع التاريخية في هذه المساحات الواسعة من القرآن . ولكن ماذا عن النتائج النهائية المتمخضة عن دراسة حركة التاريخ البشري والتمعن في وقائعه واحداثه ؟ إن القرآن يطرح علينا لأول مرة مسألة (السنن) و (النواميس) التي تسيّر حركة التاريخ وفق منعطفها الذي لا يخطىء ، وعبر مسالكها (المقننة) التي ليس إلى الخروج عليها سبيل ، لأنها منبثقة من صميم التركيب البشري ومعطياته المحورية الثابتة فطرة وغرائز واخلاقاً وفكراً وعواطف ووجداناً ، ومن قلب العلاقات والوشائج والارتباطات الظاهرة والباطنة في العالم الذي يتحرك فيه الإنسان ، والتي تتجاوز في اتساعها وشموليتها نسبيات البيئة الجغرافية أو الوضع الاقتصادي لكي تتسع للفعل التاريخي نفسه ، الفعل القائم على القيم الثابتة الدائمة في كيان الإنسان والتي تنبثق عنها المواقف التاريخية سلباً وايجاباً .

ومن ثم فان حكمها على هذه (الحركة) يجيء منطقياً تماماً لأنه أشبه (بالجزاء) الذي هو من جنس (العمل) ، ومن خامه الأصيل ، وعادلاً تماماً لأنه يكافىء الإنسان ، فرداً وجماعة ، بما يوازي طبيعة الدور التاريخي الذي مارسوه ، حتى لكأن القرآن يلفت أنظارنا إلى اننا نستطيع أن نرتب على مجموعة معينة من الوقائع التاريخية ، سلفاً ، نتائجها

---

٢٧ البقرة ٢١٤ ٢٨ القصص ٤٤ – ٤٦ .

التي تكاد تكون محتومة لارتباطها العضوي بمقدماتها اعتماداً على استمرارية السنن التاريخية ودوامها .

وعلى العكس فان أي تأخر أو اهتزاز في نفاذ هذه السنن ، سوف يؤول إلى تميع الحركة التاريخية وعدم انضباطها جزائياً ، وبالتالي سيؤول إلى موقف نقيض لمفاهيم الحق والعدل .. ومن أجل أن نطمئن يبين لنا القرآن في أكثر من موضع ثبات هذه السنن ونفاذها وعدم تبدلها أو تحولها ، انها موجودة أساساً في صميم التركيب الكوني وفي قلب العلاقات المتبادلة بين الإنسان والعالم ... ولم يفعل القرآن سوى أن كشف عنها النقاب وأكد وجودها وثقلها في حركة التاريخ . هذا في وقت ظل فيه المؤرخون والمفكرون عامة يتخبطون في دراساتهم ومعطياتهم التاريخية لأنهم – حتى القرن الماضي–لم يستطيعوا أن يصلوا إلى هذه السنن التي تحكم حركة التاريخ ويطمئنوا اليها، ويجروا تحليلاتهم وتفاسيرهم وفق مؤشراتها ودلالاتها .

ولم يحدث إلا أخيراً ، وفي القرن الماضي ، أن اكتشف كبار رجالات الفكر الاوروبي ناموسية الحركة التاريخية ، هذا إذا استثنينا بطبيعة الحال (ابن خلدون) الذي سبقهم بخمسة قرون ، ولكنهم سلطوا عليها معاييرهم النسبية ومقاييسهم الجزئية فجاءت انعكاساً صارماً لفكرة ما أو اعتقاد مذهبي محدد .

في القرآن الكريم لا تتحدّد هذه السنن والنواميس ، ولا تأسر نفسها بتفاصيل وجزئيات موقوتة ، بل تمتد وتمتد مرنة منفتحة شاملة ، لكي تضم أكبر قدر من الوقائع وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات وتبقى دائماً الحصيلة النهائية ، والرموز المكثفة ، والدلالات الكبرى لحركة التاريخ . انها تريد أن تقول لنا – باختصار وتركيز بالغين – ان حركة أي جماعة بشرية في التاريخ ليست اعتباطية ، وانها بما قد ركب فيها من قوى العقل والروح والارادة – خلافاً لما هو سائد في العوالم غير البشرية – مسؤولة مسؤولية كاملة خلال حركتها تلك ، حيث

ينتفي العبث واللاجدوى ، وحيث تتحرك الحرية من شكلها المهوش المتميع الغامض ، إلى عمل مدرك مخطط يقف به الإنسان بمواجهة الله والعالم لكي يحقق إعماره ورقيه وتقدمه ، وفق ما يجيء به أنبياء الله ، حيناً بعد حين ، من تعاليم وخطط تأخذ بيد الجماعة البشرية في هذا الطريق .. وحيثما انتفت هذه العلاقة الايجابية بين الإنسان والله والعالم ، وأسيء استخدام (الحرية) ، وضاعت المسؤولية ، وانعدم التخطيط المدرك الواعي ، وتميعت القيم الأخلاقية المنبثقة عن قوى العقل والروح والارادة .. حيثما جاء الجزاء الموازي لجنس العمل ، وآل الأمر بالجماعة البشرية إلى التدهور والتفتت والانهيار : (سنّة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلاً) [29] .

(.. فهل ينظرون الا سنّة الأولين ، فلن تجد لسنّة الله تبديلاً ولن تجد لسنّة الله تحويلاً) [30] .

(سنّة من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا ولن تجد لسنتنا تحويلاً) [31]

(وما منع الناس أن يؤمنوا إلا أن تأتيهم سنّة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً) [32] .

(ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً. سنّة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً) [33] . والقرآن الكريم لا يؤكد ثبات هذه السنن وديمومتها فحسب ، ولكنه يحولها في الوقت نفسه إلى دافع حركي (دايناميي) يفرض على الجماعة (المدركة

---

٢٩ الأحزاب ٦٢ .
٣٠ فاطر ٤٣ .
٣١ الإسراء ٧٧ .
٣٢ الكهف ٥٥
٣٣ الفتح ٢٢ – ٢٣

الملتزمة) أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار ، وان (تحسن) التعامل مع قوى الكون والطبيعة ، مستمدة التعاليم والقيم من حركة التاريخ نفسه ، وهكذا يتجاوز التاريخ في القرآن اطره النظرية أو القصصية الفنية ، أو الاكاديمية ، إلى حركة وبحث وجهد وابداع تجيء دائماً لخدمة (المعاصرة) وللسير نحو (المستقبل) بفهم أعمق وإلمام أكبر بسنن التاريخ . ومن ثم نلتقي بآيات الله وهي تطلب من أية جماعة معاصرة ان (تسير في الأرض) لكي (تنظر) لا أن تنظر فحسب ، وأن (تتعلم) من هذا السير (السنن) التي (حاقت بالذين خلوا من قبل) من أجل بناء عالم لا تدمره تجارب الخطأ والصواب التي دمرت أمماً وجماعات وشعوباً :

(قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدىً وموعظة للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) [٣٤] .

(ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين) [٣٥] .

(أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها) [٣٦] .

(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل

---

٣٤ آل عمران ١٣٧ – ١٤١

٣٥ الأنعام ٣٤

٣٦ محمد ١٠

كان أكثرهم مشركين) [٣٧] .

(أو لم يهدِ لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون، يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآياتَ أفلا يسمعون) [٣٨] .

(ثم دمرنا الآخرين . وانكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ؟) [٣٩] .

(أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟) [٤٠] .

(ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اتبعوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقّتْ عليه الضلالة ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ؟) [٤١] .

(ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات) [٤٢] .

(... وقد خلت سنّة الأولين) [٤٣] .

(وان كانوا ليقولون : لو ان عندنا ذكراً من الأولين . لكنا عباد الله المخلصين . فكفروا به فسوف يعلمون) [٤٤] .

وفي أكثر من موضع يؤكد القرآن الكريم على ان النظر والبحث والتجوال في تاريخ البشرية ، انما هو جهد ايجابي لن يكون مردوده إلا على الحاضر والمستقبل ، ولن يفيد منه إلا الذين يشحذون كافة حواسهم وقدراتهم العقلية لكي يستخلصوا المغزى والمعنى ويسيروا على هداهما :

(فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان في ذلك لآية لقوم يعلمون) [٤٥] .

---

٣٧ الروم ٤٢ .
٣٨ السجدة ٢٦ .
٣٩ الصافات ١٣٦ – ١٣٨
٤٠ يوسف ١٠٩ .
٤١ النحل ٣٦ .
٤٢ الرعد ٦ .
٤٣ الحجر ١٣ .
٤٤ الصافات ١٦٧ – ١٧٠ .
٤٥ النمل ٥٢ .

(ولقد أتوا عـلى القرية التي أمطرت مطر السوء ، أفلم يكونوا يرونها ؟ بل كانوا لا يرجون نشوراً) [٤٦] .

(ولقد أنزلنا إليهم آيات مبيّنات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين) [٤٧] .

(إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون . ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) [٤٨] .

(ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغني النذر) [٤٩] .

(انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية .) [٥٠] .

(فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، ان في ذلك لعبرة لمن يخشى) [٥١] .

(فكأيّن من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) [٥٢] .

ويبلغ من تأكيد القرآن الكريم على اجابية البحث التاريخي واتساعه وشموله أن يسعى إلى مده إلى ما وراء العصور التاريخية المعروفة ، بل إلى ما وراء التجارب البشرية الأولى على الأرض .. إلى بدء الخلق ، وحجر الزاوية على المستويين الجيولوجي والبيولوجي بما يتيح للإنسان رؤية أنفذ لقدرة الله المبدعة ، ولسننه الدائمة التي رافقت مجرى التاريخ منذ

---

٤٦ الفرقان ٤٠ .
٤٧ النور ٣٤ .
٤٨ العنكبوت ٣٤ — ٣٥ .
٤٩ القمر ٤ — ٥ .
٥٠ الحاقة ١١ — ١٢ .
٥١ النازعات ٢٥ — ٢٦ .
٥٢ الحج ٤٥ — ٤٦ .

تكويناته الأولى : (أولم يروا كيف يبدأ الله الخلق ثم يعيده ؟ ان ذلك على الله يسير . قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق . ثم الله ينشيء النشأة الآخرة ان الله على كل شيء قدير) [٥٣] .

وفي أكثر من موضع يؤكد لنا القرآن الكريم ان سنن الله في التاريخ . ثابتة ماضية ازاء الجماعات البشرية التي تتنكب عن الطريق ، بغض النظر عن حجم هذه الجماعة وعن مدى دورها الحضاري ومقدار منجزاتها المادية والأدبية في مقاييس الكم ومعايير المساحات والأحجام .. فدائماً يكمن وراء هذه المعايير والمساحات ، المقياس الحقيقي والمؤشر النهائي اللذان نستطيع بالتمعن فيهما أن نحكم على مسيرة الجماعة وعلى مصيرها السعيد أو المفجع . ان وراء العطاء والتعامل الحضاري شيئاً أكبر وأخطر وأشد تأثيراً على المصير : انه (نفسية) الأمة ، أفراداً وجماعات (وأخلاقيتها) ونظرتها الشاملة إلى الحياة ، وطبيعة علاقاتها الإنسانية ، والمواقع التي تتخذها بمواجهة الله والعالم :

(أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا قبلهم ، كانوا هم أشد منهم قوة ، وآثاراً في الأرض ، فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق . ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فكفروا فأخذهم الله انه قوي شديد العقاب) [٥٤] .

(أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم

---

٥٣ العنكبوت ١٩ – ٢٠ .
٥٤ غافر ٢١ – ٢٢ .

وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) [٥٥] .

(أفنضرب عنكم الذكر صفحاً إن كنتم قوماً مسرفين ؟ وكم أرسلنا من نبي في الأولين .. فأهلكنا أشدّ منهم بطشاً ومضى مثل الأولين) [٥٦]

(وكأيّن من قرية هي أشدّ قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) [٥٧] .

(وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص ؟ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) [٥٨] .

(أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم . كانوا أشد منهم قوة ، واثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) [٥٩] .

(قال إنما أوتيته على علم عندي ، أو لم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) [٦٠] .

(وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورياً) [٦١] .

(فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا : من أشدّ منا قوة ؟ أو لم يروا ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون ؟) [٦٢] .

---

٥٥ غافر ٨٢ — ٨٣ .

٥٦ الزخرف ٥ — ٨ .

٥٧ محمد ١٣ .

٥٨ ق ٣٦ — ٣٧ .

٥٩ الروم ٩ .

٦٠ القصص ٧٨ .

٦١ مريم ٧٤ .

٦٢ فصلت ١٥

(أهم خير أم قوم تبّع والذين من قبلهم أهلكناهم انهم كانوا مجرمين) [٦٣] .

(وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما أتيناهم ، فكذبوا رسلي فكيف كان نكير ؟) [٦٤] .

(أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السماء ولا في الأرض انه كان عليماً قديراً) [٦٥] .

ونلحظ في تتبعنا لهذه الآيات تكرار كلمتي (القوة) و (البطش) وانهما غير قادرتين على الصمود بمواجهة سنن الله في التاريخ ، التي هي جزء من قدر الله وتنظيمه الكوني للمصير . ويبدو ان القوة والبطش كانتا ، في نظر كثير من الجماعات البشرية ، وما تزالان ، مقياس تقدم الأمة ورقيها وازدهارها واتساع حجم دورها في العالم ، بغضّ النظر عن مدى التوازن والانسجام في مساحات العمل الحضاري بين قوى السلم والحرب وبين طاقات الابداع والبطش .

إلا ان القرآن يجيء كي يعلمنا شيئاً آخر ، انه ليس بالقوة والبطش تحيا الأمم وتزدهر وتواصل الطريق ، انهما جانب فحسب في المسيرة الحضارية وفي فاعلية الجماعة البشرية في قلب العالم ، وان أي طغيان لأي منهما على حساب الجوانب الأخرى سوف يعرض (الجماعة) إلى أن تفقد قدرتها الخلاقة على مجابهة متطلبات مسيرتها وتحدياتها الدائمة المستمرة وسيدفعها دفعاً إلى أن تقصر هذه الاستجابة على نطاق القوة والبطش ، الأمر الذي يؤول بها حتماً إلى الاستنزاف فالدمار . وما قيمة (القوة العسكرية)

---

٦٣ الدخان ٣٧ . ٦٤ سبأ ٤٥ .
٦٥ فاطر ٤٤ .

و (البطش المسلّح) إذا لم تكن وراءهما نفسية متماسكة وأخلاقية عالية ونظرة إلى الحياة شاملة ، وعلاقات انسانية ، وموقع متقدم مسؤول أمام الله ؟ .

إننا في العصر الحديث نلتقي بتجربة (العسكرية الألمانية) المتفوقة التي دفعت الحزب النازي إلى أن يقود ألمانيا صوب الانتحار ، وهي ما هي عليه من قدرات في ميادين القوة والبطش ، وفي أقل من عقد أصبح الرايخ الثالث خبراً من الأخبار .. ترى كم من تجارب البطش والقوة في تاريخ البشرية اجتازت نفس التجربة ولاقت نفس المصير ؟ ان القرآن الكريم يعطينا المفتاح ، ويبين لنا أن سنّة الله في التاريخ ، ماضية لا تتوقف ، ثابتة لا تتحول أو تتبدل حتّى لو وقفت قبالتها جدران هائلة من البارود ، لأنها – آنذاك – سوف تفجر هذا البارود من الداخل ، وتمضي كلمتها التي لا رادّ لها ...

٢

ان أي حدث تاريخي – يجيبنا القرآن الكريم من خلال حشد كبير من آياته – انما يجيء تعبيراً عن ارادة الله التي تصوغه من خلال ارادة الانسان ، أو مباشرة عن طريق اتصالها بالزمن والتراب . ولا يمكن دراسة تاريخ الكون ، وتاريخ الاحياء ، وتاريخ البشرية إلا من هذا المنطلق . ان الفعل الالهي يتخذ شكلين لخلق الحدث وصياغته ، أولهما مباشرة الفعل التاريخي ، تلك (المباشرة) التي تتراوح بين التساوق مع نواميس الطبيعة واعتمادها في (التنفيذ) وبين تجاوز مقاييسها ورفض نسبياتها فيما يعرف بالمعجزات وفي كل مرة كان الفعل الالهي المباشر يجيء لكي (يذكّر) الناس بخالقهم ، وبكلمته النافذة في الكون والعالم ، وبقدرته اللانهائية على (الفعل) ، ويجعلهم حاضرين دوماً بمواجهة ربهم تلقياً عنه ، وتعبداً له . وشكراً على نعمائه التي لا تكفّ عن التمخض والتدفق والإبداع .. الله الذي (.. إذا قضى أمراً فانما يقول له : كن فيكون) [1] .

إن هذه (المباشرة) التي لا ندري بداياتها أبداً لأنها موازية لوجود الله الأبدي ، ومتفجرة عن قدرته السرمدية على الفعل ، هي التي خلقت الكون في ستة أيام ، واقتطعت الأرض من كتلة السماوات الدنيا لكي

---

١ مريم ٣٥ .

تصوغها بما يتيح لها استقبال الحياة بأشكالها المختلفة التي تتدرّج من البدائية في عوالم النبات والحيوان وتنتهي بالإنسان الذي انبثق عن فعل إلهي مباشر . لا ندري الزمن الذي استغرقه.سيما وان مقاييسنا الزمنية لا تعد شيئاً ازاء المقاييس الكونية الشاسعة البعيدة ، ومن ثم فلا داعي لأن نقف فنجري مقارنة بين معطيات القرآن الكريم عن خلق آدم (الأول) وبين نظريات النشوء والارتقاء والاختيار الطبيعي التي قال بها (دارون) وغيره من (الطبيعيين) ، ما دام الأمر لا يعدو أن يكون تطوراً في عملية خلق آدم بارادة الله ، أو خالقه مباشرة بما هو عليه من تكوين نحسن ثماره المحمولة في مجريات القوانين الوراثية المعروفة ... ان الله قد خلق آدم كفعل مباشر لا نملك مقاييسه الزمنية الكافية . وهو خلق يجيء متمماً لخلق الأرض وتهيئتها ومساحات واسعة من السماء الدنيا ، لاستقبال هذا المخلوق الفاعل الذي أتيح له أن يتخذ مكانه في الأرض خليفة لله وسيداً للعالمين .

ولا بد أن نقف هنا قليلاً لتلمّس أبعاد المسألة الزمنية في القرآن ... ذلك اننا نلتقي في القرآن ، بين حين وآخر ، باشارات ولمحات عن البعد الزمني في الكون ، يبدو إعجازها بمجرد مقارنتها بنسبية (اينشتاين) التي أدخلت الزمن كبعد جديد ثالث في دراسة الكتلة الكونية ، نقتطف منها هذه الآيات ذات الدلالة العميقة :

(قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوماً أو بعض يوم) [2] .

(ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) [3] .

(يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون ان لبثتم الا قليلاً) [4]

(قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين) [5] .

---

٢ البقرة ٢٥٩ .

٣ يونس ٤٥ .

٤ الاسراء ٥٢ .

٥ المؤمنون ١١٣

(ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) [6] .

(ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون) [7] .

(يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن) [8] .

(كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) [9] .

(إذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثت الا يوماً) [10] .

(وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) [11] .

(ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب) [12] .

(ان ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام) [13] .

ان بين هذه الآيات المنبثة في حنايا القرآن – وغيرها كثير – ترابطاً وانسجاماً رياضياً دقيقاً ، وان فيها تأكيداً مستمراً على الحقيقة (الطبيعية) الكبرى التي لم تتكشف بعض جوانبها للعلم إلا أخيراً ، تلك هي ان الزمن في الأرض والزمن في امداء الكون ليسا سواء ، لأن هناك فرقاً شاسعاً بين الوحدة الزمنية الأرضية . والوحدة الزمنية الكونية . تبلغ تارة – وعلى سبيل المثال – ٣٦٥,٠٠٠ ضعفاً وتبلغ تارة أخرى ١٨,٢٥٠,٠٠٠ ضعفاً بحساب القرآن الكريم نفسه ، الأمر الذي يفسر لنا ظن الناس يوم القيامة ان حياتهم الدنيا لم تكن سوى ساعة من نهار ، كما يعطينا – على المستوى التاريخي – مفتاح هذا التأجيل المتطاول لمصائر الأمم والقيادات الظالمة حتى لنتصور أحياناً انه قد غضّ الطرف عنها ، وانها سوف لن تبلغ مرحلة سقوطها أبداً .

---

٦ الروم ٥٥ .

٧ السجدة ٥

٨ الرحمن ٢٩

٩ النازعات ٤٦ .

١٠ طه ١٠٤ .

١١ الحج ٤٧ .

١٢ غافر ٤٩ .

١٣ الأعراف ٥٤ .

إن الرسول (ص) يحدثنا ، مزيلاً هذه الهواجس من النفوس ، القلقة المتسرّعة ذات التجارب النسبية المحدودة (ان الله يمهل ولا يهمل) وانه (يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) . وهذا الامهال يبدو في حسابنا الأرضي طويلاً قد يتجاوز السنوات وقد يمتد إلى عقود السنين وربما قرونها ، لكي تحق كلمة الله على الظالمين ، أفراداً وجماعات،ولكي يأخذ العدل الالهي مجراه . لكن هذه الأيام والسنين والعقود والقرون لا تعدو في زمن الله يوماً أو بعض يوم ، ومن ثم كان تمهل الله بطيئاً في حسابنا ، سريعاً سرعة مذهلة في حساب الملأ الأعلى . وإذا كنا نحن نستبطىء عقاب الله حيناً فربما كان الملأ الأعلى يتسرّعه أحياناً . وما كان لنا إذن إلا أن ندعن لأمر الله ، وتتيقن نفوسنا عدله الأزلي الشامل الذي يتجاوز نسبيات الزمان والمكان إلى القيم المطلقة التي لا ينحرف بها ميزان ولا يطيش عندها جزاء أو عقاب (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ، وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) [14] .

أما على مستوى الخلق الكوني فان لنا أن نتصور – لا بحسابنا الأرضي ولكن بحساب المطلقات القرآنية – الأمداء الزمانية للأيام (الستة) التي يحدثنا عنها القرآن والتي صمّم الله سبحانه وتعالى فيها بناء السماوات والأرض ، واعد كرتنا لاستقبال الحياة وانمائها وتطويرها على يد الإنسان ، خليفة الله في الأرض وسيد مخلوقاتها ، وكيف تم هذا التصميم والاعداد المعجزين القائمين على قوانين وسنن ونواميس غاية في الدقة والانضباط والاتقان ليس أقلها قوانين الجاذبية وتصريف الرياح وحركة الليل والنهار ، وانبات النخل والعنب والرّمان من قلب التربة ، وتوازن نسب مكونات الغلاف الغازي ، وتحديد بعد الأرض عن الشمس والقمر ، وخلق الأرض . وارساء الجبال ، وتكثيف الدخان والغاز إلى

---

١٤ الحج ٤٧ .

كتلة صلدة صالحة للحركة والبناء ، وتزيين السماء الدنيا بالمصابيح الزرقاء ، وامداد الأرض كلها بما تحتاجه من ماء ، وتفجير الحياة في الطين اللازب ... ولنا أن نتصور — بعد هذا كله— ماذا تريد هذه الآية أن تقول لنا : (يسأله من في السموات والأرض ، كل يوم هو في شأن) ؟ ولكن أي يوم هذا ؟ انه ذلك الذي قلنا انه ربما يبلغ ١٨،٢٥٠،٠٠٠ يوماً من أيامنا الأرضية !! .

إننا — حتى على مستوى خلق الإنسان — نجد في المسألة الزمنية كما يطرحها القرآن ، حلاً مقنعاً للتناقض القائم ، منذ بدايات الداروينية الأولى ، بين القائلين بالخلق المباشر المستقل والقائلين بنظرية التطور الطبيعي والارتقاء التدريجي ... ففي لحظة كونية واحدة ، تبلغ بحسابنا ملايين الوحدات الزمنية ، يصدر الأمر النهائي الالهي بخلق آدم من الطين اللازب الممزوج بالماء . ولنتمعّن في هاتين الآيتين : (والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير) [١٥] (وهو الذي خلق من الماء بشراً ، فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً) [١٦] .

وهكذا .. فسواء قلنا بأن عملية الخلق هذه تمت مباشرة ، أم عبر سلسلة طويلة من التطورات والتغيرات الطبيعية المتمخضة عن لقاء الحياة بالطين اللازب في فجر الإبداع الإلهي على الأرض ، فاننا سوف لن نخرج عن الاطار الزمني الذي يطرحه القرآن نفسه ، وسوف لن نكتشف أبداً (سرّ الروح) الذي أبدع الحياة والذي عجز عنه الطبيعيون كافة ، وقال عنه القرآن ، ردّاً على تساؤلات المشركين : (ويسألونك عن

---

١٥ النور ٤٥ .

١٦ الفرقان ٥٤ .

الروح قل : الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .. هذا مع رفضنا القاطع لأية محاولة تسعى إلى قسر الآيات العلمية في القرآن لكي تساير معطيات العلم الحديث القلقة المتغيرة .. الا إذا قادتنا لغة القرآن الواضحة نفسه إلى الحقيقة مباشرة دونما تعسف أو تكلف أو التواء .

وقبل أن نمضي في بحثنا هذا ، نقف قليلاً عند هذه الآيات التي اعتمدناها في استخراج اليوم القرآني البالغ ١٨,٢٥٠,٠٠٠ يوماً أرضياً (سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذي المعارج . تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة !! فاصبر صبراً جميلاً . انهم يرونه بعيداً ونراه قريباً) !! [١٧] .

إن الملائكة والروح ، وقد تجردت من عوائق الجسد والتراب التي تقيّد الإنسان وتجاوزت قوانين الزمان والمكان الأرضية النسبية ، تصعد الآن في طريقها إلى بارئها عبر معارج وامداء لا يحيطها قط خيال انسان ، مهما امتد به الخيال ، لأنها ستجتاز هذه الامداء التي انتشرت فيها مائة ألف مليون مجرة في كل منها مائة ألف مليون شمس ، تحيط بكل منها كواكب وسيارات كمجموعتنا وأكبر .. ستجتاز هذه كلها في يوم واحد ، لكنه يوم كوني ليس كأيامنا ، بين القرآن بعض اطواله ، وأشار اليه اينشتاين في نسبيته التي قادته إلى آفاق جديدة رحبة في ميدان العلوم الطبيعية والرياضية .. حتى انه ليقال — على سبيل المثال — ان وصول الإنسان إلى إحدى المجرات القريبة يحتاج إلى خمسمائة سنة ضوئية ، وان هذا الإنسان نفسه إذا تيسّر له جهاز ينقله عبر الفضاء بسرعة الضوء فانه سيختزل هذه المدة إلى ما يقرب من خمسين سنة فحسب !! .

ان الملائكة والروح المتخفّف من اعباء الجسد وشدّ الأعضاء وكثافة التراب لا يعجزها أن تفوق في حركتها سرعة الضوء ومن ثم فهي تعرج

---

١٧ المعارج ١ — ٧ .

الكون كله في طريقها إلى خالق الكون جل وعلا في يوم واحد في حساب حركتها الزمنية عبر الكون ، لكنه في حسابنا ؟ ومن ثم ينادي الله في علاه ، رسوله الكريم ، وهو يشقى بدعوة أناس يرون يوم الحساب بعيداً كبعد السراب (فاصبر صبراً جميلاً . انهم يرونه بعيداً . ونراه قريباً) !! [18] .

الا ان القرآن في نطاق تجربتنا الأرضية ، يستخدم — لواقعيته — المقاييس التي تصلح لهذه التجربة ، انه — بصدد المسألة الزمنية — يذكر بوضوح (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض ...) [19] . ويتحدث عن تسخير الريح لسليمان (ع) (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) [20] .

وهذا التأكيد المستمر على فكرة (الزمن) وتقسيماته التي رسمت من أجل تمكين الإنسان من تأريخ أيامه في الأرض ، كان من بين الأسباب العديدة التي دفع الإسلام بها العرب إلى الاهتمام المتزايد بالدراسات التاريخية ، ومكّنهم— بعد عقود قليلة — من تحويلها إلى علم له منهجه وأساليب بحثه ، بعد ان لم يكن في العصر الجاهلي سوى أقاصيص تغلب عليها الخرافة ، وأسمار يسودها طابع المبالغة ، وأيام ينظر فيها الراوي إلى الاحداث بمنظار القبيلة التي ينتمي اليها .

* * *

ولم ينقطع فعل الله المباشر في الأرض بظهور آدم وذريته الذين منحهم

---

١٨ أنظر بالتفصيل بحث (القرآن والبعد الزمني) للمؤلف ، مجلة الوعي الإسلامي ، سنة ٨ ، عدد ٩١ (١٩٧٢) .

١٩ التوبة ٣٦ .

٢٠ سبأ ١٢ .

الله العقل والروح والارادة ، وعلمهم الأسماء كلها ، وحمّلهم مسؤولية السمع والبصر والفؤاد .. بل استمرت مباشرة الفعل ، أو من خلال الانسان نفسه مما سنطلق عليه (الفعل الإلهي غير المباشر) .. وهل للانسان ذي القدرات النسبية أن يعتمد فعله الخاص لمجابهة العالم ؟ ان آدم (ع) منذ لحظة هبوطه الأولى كان بأمسّ الحاجة إلى فعل الله وهدايته ، قبل أن يضيع وذريته إلى الأبد .. وسرعان ما استجاب له الله سبحانه ذو القدرة الفعالة المريدة المطلقة التي لا تكف عن الفعل والابداع .. ازاء عجز الإنسان ونسبية معطياته الحسيّة ، وتقطع فعله واتكائه الدائم على ارادة فوق ارادته ، ورؤية أوسع من رؤيته (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم ، قلنا اهبطوا منها جميعاً ، فاما يأتينكم مني هدى ، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) !!

ومنذ ذلك الوعد بالهداية والله سبحانه يختار أنبياءه ورسله من قلب العالم بفعل مباشر لكي يؤدوا دورهم التاريخي المناسب للمرحلة التي بعثوا فيها .. ثم جاءت رسالة محمد (ص) آخر حلقة في عملية الارسال هذه ، من أجل منح بني آدم الطريق المستقيم في حياتهم الدنيا ، وهي الحلقة التي حبكت بشكل نهائي ، واستكملت كل أسبابها في كتاب الله وسنّة نبيه (ص) لكي تبقى إلى يوم البعث صوتاً واضحاً يقود بني آدم إلى الصراط المستقيم . وقد أعلن القرآن بنفسه ، في حجة الوداع ، هذا الاكمال (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) .. وهكذا كانت جميع النبوات فعلاً الهياً مباشراً يتمثل في اختيار الرجل الذي سيحمل الأمانة ، وفي تهيئته – قبل هذا – على عين الله ، ثم في إرساله نبياً إلى قومه أو إلى العالم كله ، وفي الاتصال الدائم به عن طريق الوحي الذي يجيء على مكث حيناً بعد حين ، أو بواسطة لقاء ما

يتم عن طريق استلام (الكتاب) الذي سيقود الإنسان إلى الطريق .

وكان يرافق هذه النبوات سلسلة من الأفعال المباشرة الأخرى ، تجيء حيناً منسجمة مع نواميس الطبيعة وسننها ، وتنصبّ حيناً آخر بمعزل عن هذه النواميس أو مخترقة إياها ، فيما سمي بالمعجزات ، التي كانت تجيء بمثابة (هزّة) تحرّك الإنسان وتسقط عن قلبه وعقله وأحاسيسه جدار (الرين) الذي أحاط بها فصدّه عن الإيمان الواضح بالله واتباع أنبيائه المرسلين .

فقصة بني اسرائيل و البقرة الصفراء [٢١] والعزير [٢٢] ، وابراهيم والطير [٢٣] ومريم والطعام [٢٤] وزكريا وابنه [٢٥] وصالح وناقته [٢٦] ، ومطاردة فرعون بني اسرائيل [٢٧] ، وممارسات المسيح الخارقة [٢٨] ، وغيرها من المعجزات التي يمكن أن يرجع اليها القارىء في الجدول الذي أوردناه عن قصص الأنبياء وتواريخهم في أول هذا الفصل .. كلها جاءت تمثل فعلاً مباشراً خارقاً للنواميس الطبيعية ، في مراحل مبكرة من التاريخ ، كانت النبوات خلالها بأمسّ الحاجة إلى اسناد (ميتافيزيقي) وإلى (هزّات) تتميز بالتحدي والتخويف والغرابة ، لتحريك أفئدة أقوامهم المتجمدة، ولفت أنظارهم الكسولة إلى قدرة الله لكن القرآن الكريم ما يلبث أن يحدثنا بواقعيته الصادقة ان هذا (الأسلوب) لم يجد مع كثير من الأقوام السابقة ، وانه أجدر ألا يجدي مع الأقوام اللاحقة ، وبضمنهم العرب الذين بُعث اليهم محمد (ص) .. ومن ثم كانت معجزة القرآن

---

٢١ البقرة ٦٧ – ٧٣ .
٢٢ البقرة ٢٥٩ .
٢٣ البقرة ٢٦٠ .
٢٤ آل عمران ٣٧ .
٢٥ آل عمران ٣٨ – ٤٠ .
٢٦ الأعراف ٧٣ .
٢٧ يونس ٩٠ – ٩٣ .
٢٨ آل عمران ٤٥ – ٤٩ ، المائدة ١١٠ – ١١٥ .

المنسجمة مع النواميس وحدها كافية لحمل أجيال البشرية إلى طريق الإسلام على مرّ القرون :

(وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون . وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات الا تخويفاً) [29] .

(ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ؟) [30] .

(فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ، أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ؟ قالوا : سحران تظاهرا ، وقالوا : انا بكل كافرون) [31] .

(وقالوا : لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل : إنما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) [32] .

* * *

أما الفعل المباشر المتساوق مع النواميس الطبيعية والمسخّر لها لخدمة الجماعة المؤمنة ، وضرب العوائق التي تصدها عن تأدية مهمتها ، وانزال العقاب بالذين يصدون عن سبيل الله ويكفرون بنعمائه ... فهي تحتل مساحة أكبر في القرآن الكريم . ونحن نستطيع أن نتلمسها على وجه الخصوص في الآيات الكثيرة المتعلقة بحركة الدعوة في عهد الرسول (ص) والتي أشبعها المفسرون بحثاً فيما أسموه (بأسباب النزول) . ولنا الآن أن نستعرض نماذج من هذا الفعل في القرآن :

---

٢٩ الإسراء ٥٩ .
٣٠ الأنبياء ٦ .
٣١ القصص ٤٧ .
٣٢ العنكبوت ٥٠ – ٥١ .

(لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان ، عن يمين وشمال ، **كلوا** من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكُل خمط واثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ؟ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين . فقالوا : ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ، فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ، ان في ذلك لآيات لكل صبّـار شكور)[٣٣] .

(فكلاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليـه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)[٣٤] .

(وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلاً وكنا نحن الوارثين . وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في امها رسولاً يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون)[٣٥] .

(بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر ، أفلا يرون انا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ، أفهم الغالبون ؟)[٣٦] .

(ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله ...)[٣٧]

(.. ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله ان الله لا يخلف الميعاد)[٣٨] .

---

٣٣ سبأ ١٥ — ١٩ .
٣٤ العنكبوت ٤٠ .
٣٥ القصص ٥٨ — ٥٩ .
٣٦ الأنبياء ٤٤ .
٣٧ الرعد ١٣ .
٣٨ الرعد ٣١ .

(قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون)[٣٩] .

(ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون)[٤٠]

(فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات واستكبروا وكانوا قوماً مجرمين)[٤١] .

(فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم ، فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون)[٤٢] .

(فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوماً مجرمين)[٤٣] .

(فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين)[٤٤] .

(ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ...)[٤٥] .

(فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا .. وأما ثمود .. فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون)[٤٦] .

(وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد)[٤٧].

ويبلغ التهديد باعتماد المشيئة الإلهية للقوى الطبيعية لمواجهة الكفر والغرور البشريين حداً كبيراً من الوضوح والقوة في عدد من الآيات ، وتزداد نبرته ارتفاعاً : (أفلم يروا ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء

---

٣٩ النحل ٢٦ .
٤٠ الأعراف ١٣٠ .
٤١ الأعراف ١٣٣ .
٤٢ الأعراف ١٦٢ .
٤٣ الأعراف ٦٤ .
٤٤ الأعراف ٧٨ .
٤٥ البقرة ١٥٥ .
٤٦ فصلت ١٦ — ١٨ .
٤٧ هود ١٠٢ .

والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ، ان في ذلك لآية لكل عبد منيب) . [48]

(أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هي تمور ؟ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ؟) [49] .

(قل : أرأيتم ان أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ؟) [50]

وفي هجرة الرسول (ص) إلى المدينة ، وفي معارك بدر والخندق وحنين وغيرها ، تتجاوز المشيئة الالهية اعتماد السنن والنواميس الطبيعية (المادية) وتصدر أمرها إلى الملائكة ، وإلى جند الله التي لا ترى من قوى الكون الروحية أن تنزل إلى (الساحة) لكي تقف إلى جانب المؤمنين ورسولهم وهم يجاهدون من أجل (تنفيذ) حكم الله في الأرض :

(.. إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ان الله عزيز حكيم .. إذ يوحي ربك إلى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) [51] .

(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين . وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ...) [52] .

(ولقد نصركم الله في مواطن كثيرة، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم

---

٤٨ سبأ ٩ .
٤٩ الملك ١٦ — ١٧ .
٥٠ الملك ٣٠ .
٥١ الأنفال ٥ — ١٤ .
٥٢ آل عمران ١٢٣ — ١٢٦ .

فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) [٥٣] .

(إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم) [٥٤] .

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً) [٥٥] .

اننا إذن ونحن نتكلم على الفعل الالهي المباشر – أمام قوتين كونيتين يسخرهما الله لتحقيق كلمته : قوة الطبيعة المادية المنظورة ، وقوة الروح غير المنظورة .. في الأولى نلتقي بنماذج شتى من اعتماد القوى الطبيعية لمواجهة الصلف والكفر والغرور البشري : السيل ، الجفاف ، الحاصب ، الصيحة ، الخسف أو الزلزال أو الرجفة ، الغرق ، الصاعقة ، الطوفان ، الحشرات ، المطر العنيف ، الأوبئة ، الريح العاتية ، الاماتة الجماعية ، تمزيق المجتمعات ، الخوف ، الجوع ثم الدمار الشامل دون اشارة إلى وسيلة بالذات .

وفي الثانية نلتقي بجند الله الذين لا يُرون ، بحشود الملائكة ، وبالطاقات الروحية التي لا تحدّها حدود ، والتي تستطيع في لحظات أن تقلب الهزيمة إلى نصر وأن تمنح القلة المجاهدة مقدرة هائلة على المقاومة والثبات .. ودائماً تكون قوى الغيب التي لا ترى ، والتي لا تعمل فيها مقاييسنا النسبية

---

٥٣ التوبة ٢٦ .
٥٤ التوبة ٤٠ .
٥٥ الأحزاب ٩ .

التجريبية الظاهرة ، أكثر قدرة وأسرع عملاً (وما يعلم جنود ربك إلا هو) ! !

* * *

ان إحدى الملامح الأساسية التي تميز التفسير الإسلامي عن سائر التفاسير انه يفرد للبعد الغيبي ، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، مساحات واسعة .. ويجعله أحد الشروط الأساسية للإيمان ، بل أهمها على الإطلاق إذ بدونه لن تتحقق أية تجربة ايمانية .. إيمان بم ؟ بالله الذي لا تدركه الابصار ، وبعملية خلقه الدائمة التي تندّ عن احاطة الإنسان ذي المنافذ الحسية المحدودة والقدرات العقلية النسبية ، وبوحيه الذي ينقل للبشرية تعاليم السماء بواسطة أنبياء الله ورسله ، ومعطيات هذا الوحي البعدية من ايمان بالبعث والحساب والجزاء . ومن ثم كان أي تردد ازاء اليقينيات الغيبية التي يطرحها القرآن ، أو التي تنبثق من أعماق البداهات الفطرية انما هو رفض للقاعدة التي لا يقوم بدونها ايمان .

اننا نلتقي في أول مقطع من كتاب الله بهذه البديهية ، وتتوالى بعد هذا فيما يزيد على الخمسين موضعاً (الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما زرقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون) [٥٦] .

ومن ثم فان لنا — على مستوى الحركة التاريخية — أن نتصور مدى المساحة التي يشغلها الغيب في صياغة الأحداث وتوجيهها .. ابتداء من خلق الأشياء والأحداث بقوة الكلمة (كن) والتي لا ندري بمقاييسنا النسبية المحدودة كنهها وأبعادها .. وانتهاءً بمصائرنا اليومية ، الفردية

---

٥٦ البقرة ١ — ٥ .

والجماعية ، والتي يختم عليها الموت الذي يجيء على حين غفلة ، متخطياً أي تحديد مسبق ، متحدياً أية قدرة طبيعية على صدّه عن أداء مهمته (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت) [٥٧] (أينما كنتم يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة) [٥٨] (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ....) [٥٩] .

وبين هذا وذاك كل أحداث التاريخ ووقائعه التي أخذت هذا الاتجاه أو ذاك واكتسبت هذه السمة أو تلك ، والتي لم يكن الإنسان والطبيعة فيها سوى استمرار ، حرّ أو مقدّر ، لما يدور في ساحة الغيب وفق مقاييس الحق والعدل الأبديين .

إن تاريخ البشرية ، منذ فجره وحتى تقوم الساعة ، يشهدنا على امتداد مطامح الإنسان ورؤاه ومنازعه صوب عالم الغيب ، وتجاوز الملموس والمنظور .. وهذه الرغبة في الامتداد إلى ما وراء النسبيات والحواجز المادية ، مركّزة في جبلّتنا الآدمية ، محفورة في ثنايا فطرتنا كحفر الخطوط المتعرجة الثابتة على ابهام كل انسان ، واننا برفضنا هذا البعد الغيبي نمارس عملية تزييف وتزوير في تفسيرنا للتاريخ البشري ، ونلغي من حسابنا مساحات أساسية واسعة من فاعلياته ومعطياته ، لا لشيء الا لأنها لا تخضع لمقاييس الحس وموازين التجريب المادي المباشر .. ولكن من قال ان وجدان الناس وعواطفهم وتكوينهم الفطري الأصيل وبداهاتهم اليقينية ومنازع نفوسهم ، بما تعكسه جميعاً من معطيات ، انما هي خارجة عن نطاق التاريخ ؟ أليس هو تاريخ الإنسان ؟ فكيف

---

٥٧ لقمان ٣٤ .
٥٨ النساء ٧٨ .
٥٩ آل عمران ١٥٤ .

نستبعد من حركته وننفي من ساحته أشد تجاربه ومعطياته التصاقاً بالوجود البشري ؟ .

انه ما دام هنالك (موت) يجيء فيحسم حياة الانسان على الأرض ، ويكفّها عن البقاء والامتداد فان معنى هذا أن يتوق الإنسان للتعويض عن هذا الانقطاع بالخلود في عالم آخر باق ممتدّ لا تقطّع فيه ولا غياب .. وان الأديان جاءت لكي تمنح الإنسان معادلة منطقية متوازنة تمكنه من مجابهة تحديات الموت ، وفق موازين إلهية عادلة ، وقيم فوقية شاملة ، يتجاوز بها الإنسان التخبّط والارتجال في تجربته الدينية ازاء الغيب .

ان الموت الذي لا يستثنى من واقعته أحد ، والذي يحدثنا القرآن عنه في أكثر من موضع :

(قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم) [٦٠] .

(كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون) [٦١] .

(انك ميت وانهم ميتون) [٦٢] .

(وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون ؟ كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة والينا ترجعون) [٦٣] .

الموت .. هذه الواقعة القائمة التي لن يفلت من نزولها أحد ، لا يجيء – في التصوّر القرآني – بمثابة نقمة أو عقاب ينزل على رؤوس الناس ، كما هو الحال في التصوّر الكلاسيكي الذي يبرز واضحاً في (التراجيديا) اليونانية ، انما هو (واحد) من تحديات كثيرة في عالم

---

٦٠ الجمعة ٨ .
٦١ العنكبوت ٥٧ .
٦٢ الزمر ٣١ .
٦٣ الأنبياء ٣٤ – ٣٥ .

الإنسان من أجل أن تبعث فيه التوتر الدائم والطموح الأبدي للتغلب والتفوق والانتصار ، وتمنعه من أن يسلم نفسه للكسل والتراخي والاتكالية التي تقف على النقيض تماماً مما يتطلبه التاريخ البشري من حركة وفاعليـــة وردود مستمرة على التحديات القائمة . ومن ثم فان لنا أن نتصور المساحات الواسعة في التاريخ ، تلك التي شكلتها هذه الردود الدائمة على تحديات الموت ابتداء من طموح الإنسان إلى الخلود الكامل وتشبثه بالأديان التي يصنعها على هواه أو يتلقاها عن السماء لكي تمنحه هذا الأمل الكبير .. وانتهاء بكثير من فاعلياته في ميادين الفكر والفن والاجتماع والابداع لتحقيق بعض من هذا الأمل في الخلود الذي يطمح اليه .

ان نزوح الإنسان إلى الخلود ، وامتداده إلى عالم الغيب ، وتشبثه — بالتالي — بالأديان التي تتجاوز بـــه دوائر المنظور والملموس وحواجز الغرائز والشهوات .. مركوزة جميعاً في فطرتنا محفورة في تكويننا ، وليس كما يرى (ماركس) من انها محاولة برجوازية لاسكات الجائعين وتخديرهم بالوعد بجنة أخرى موهومة غير جنة الأرض التي يتنعم بها المالكون ، لأن هذا النزوع الغيبي — الديني سبق في التاريخ ظهور الطبقات وتحكم المالكين بالذين لا يملكون .. وليس كذلك ما يراه (فرويد) من انها محاولة يغطى بها الإنسان على عقدة (أوديب) التي تدفعه إلى كراهية أبيه ، فيتحول بهذه التغطية إلى عبادة أبيه ، وإلا لكانت عقدة (الكترا) تسوق النساء إلى عبادة الهات مؤنثة ، وليس (الهاً) يندّ عن هذا التقسيم البشري النسبي الزائل !! .

ان النزوع الديني ليس هذا أو ذاك، انه أسبق وأعمق وأشمل من أي تفسير يريد أن يردّه إلى مقولة نسبية مسبقة لكي يرغمه على الانسجام ومعطياتها ، الأمر الذي نجده بارزاً في مناهج الغربيين التي تتضخم في انفعاليتها وتعميميتها إلى حد الورم والغثيان .

ان القرآن الكريم يحدثنا بشموليته وواقعيته المعهودة عن هذه المسألة ، ويردها إلى لحظة الخلق الأولى ، حيث هذا التقابل الفعّال بين الموت والخلود ، بين الفناء والبقاء (.. فوسوس اليه الشيطان قال : يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟) [٦٤] . ونحن نعرف جميعاً ماذا كانت النتيجة ، الا يحصل آدم على الخلود الا بعد اجتياز تجربة العمل والاختبار واثبات الوجود في الأرض ، والتي لا بد لها من نهاية ، وإلا فقدت مبرراتها أساساً ، ويجيء الموت بمثابة انهاء للتجربة ، كي يهيأ الإنسان بعدها للحساب العادل على ما قدمت يداه هناك .

وهكذا يبرز الموت مرة أخرى ، قيمة ايجابية فاعلة في تاريخ البشرية ، وتحدّ خطير يضع الإنسان دائماً في مواقع التوتر والردّ والفعل والابداع .. أكثر من هذا ، انه يعيده إلى فطرته الأصيلة وتكوينه الذاتي لكي لا يركن إلى حواسّه وغرائزه وحدها فيطفو على السطح ، ولكي يتذكر دائماً ان هنالك قوى أخرى ، وامتداداً يتجاوز القريب الملموس إلى آفاق الغيب .. وهو (التذكّر) الذي كان بمثابة (التذكرة) لركوب قطارات الأديان وهي تشق الطريق الطويل إلى الأمل الإنساني العميق البعيد : الخلود !! تلك المسيرة التي تغطي مساحات شاسعة من تاريخ البشرية والتي يمثل انكارها وتجاهلها أخطر تزييف في محاولات تحليل الوقائع التاريخيـة وفحص مكوناتها الأساسية .

والقرآن الكريم الذي يسعى دائماً إلى طرح (المواقف) من كافة زواياها وأبعادها يبين لنا في أكثر من موضع انه ليس الموت وحده ، هذا الخوف الأكبر ، هو الذي يعيد الإنسان الذكي البصير إلى فطرته ، ويمنحه التذكرة .. انما هنالك مخاوف أخرى عديدة وتحديات طبيعية واجتماعية متنوعة ، تساعد في خلق هذا التوتر الديني الفعال الذي يستمر

---

٦٤ طه ١٢٠ .

ويزداد تألقاً لدى الذين يقدرون على تفتيت رَيْن قلوبهم وكسر قشرة الصدأ المحيطة بعقولهم وأفئدتهم .. بينما يغور ويختفي مرة أخرى ، بمجرد زوال الخطر القريب لدى الذين لا يزالون يتحركون ببطء عند حدود الملموس والمنظور ، تمنعهم غرائزهم وشهواتهم الهابطة عن رؤية فطرتهم على حقيقتها ، ومدّ مواقفهم النسبية إلى كليّات الإيمان الشاملة التي جاء بها الدين لكي يتجاوز بالإنسان الواقع الى ما وراءه ، والطبيعة الى الغيب :

(وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم إذا مسّكم الضر فاليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون) [٦٥] .

(وإذا مسّكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البرّ ، أعرضتم ، وكان الإنسان كفوراً . أفأمنتم أن نخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً . أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً) [٦٦] .

(وإذا مسّ الناس ضرّ دعوا ربهم منيبين اليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق بربهم يشركون) [٦٧] .

ومهما يكن من أمر فإن الحسّ الديني كامن في نفوسنا ، تفجره لحظة الصفاء والتأمل والانسجام ، تماماً كما تبرزه واضحاً لحظات المخاوف والمخاطر والأحزان . . وهو حسّ يمكن أن نردّه إلى حاجة الإنسان الأبدية العميقة إلى قوة أكبر من قوته المحدودة الزائلة .. ينتمي اليها ويحتمي بها في مواجهته للعالم والطبيعة والتاريخ .. وما أكبر المساحة التاريخية التي يغطيها هذا (الحسّ) في امتداده وارتداده على السواء ! !

---

٦٥ النحل ٥٣ — ٥٤ .

٦٦ الاسراء ٦٧ — ٦٩ .

٦٧ الروم ٣٣ .

٣

أما الفعل الإلهي غير المباشر في التاريخ ، فيجيء عن طريق الحرية الإنسانية ذاتها ، والتي هي في مداها البعيد جزء من ارادة الله في خلق الأفعال والأحداث . لقد منح الله الحرية للانسان ابتداء لكي يصنع تاريخه الفردي والجماعي ولكي يشكل مصيرهما معاً،اعتماداً على ما ركب في وجوده من قوى العقل والارادة والانفعال والحسّ والحركة .. والإنسان – بدوره – عندما يستخدم حريته لصياغة الحدث وتوجيه المصير ، انما يعتمد على مقدمات لا يمكنه ، بحال ، الاستغناء عنها : الزمن ، التراب،ثم التعاليم والنظم والقيم والاعراف والتقاليد ، وضعية كانت أم دينية . ويبلغ من التناغم والتداخل والتشابك بين ارادة الله وارادة الإنسان – على خلاف النظرة الغربية – حداً يصعب علينا معه التفريق والفصل والقول بأن هذا من عمل الله وهذا من عمل الإنسان ، وان كانت القاعدة الأساسية التي يجب ألا تغيب عن أذهاننا لحظة ، ان (الكل) من عمل الله (قل : كل من عند الله) ! ! الا ان عمل الإنسان من خلال العلاقات الكونية الشاملة ، يمتلك حريته الكاملة في الصياغة والتخطيط والتنفيذ واستغلال النتائج الأمر الذي لا يضعنا أمام ما يسميه الغربيون (معضلة القدر والحرية) التي سنعود للحديث عنها بعد عرض نماذج من الفعل الالهي من خلال الإنسان ، أو الفعل الانساني الحرّ في اطار المشيئة الالهية الشاملة والعلم

الرباني الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء : (أولم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنّاهم في الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً ، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ؟) [1] .

(وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ...) [2] .

(وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها : انا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا : نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين) [3] .

(فأصابهم سيآت ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) [4] .

(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده بصيراً) [5] .

(ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) [6] .

(ولقد أهلكنا القرون من قبلكم ، لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزي القوم المجرمين) [7] .

(ذلك ان ربك لم يكن مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) [8] .

(ان الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) [9] .

(ذلك ان الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم) [10] .

---

١ الأنعام ٦ .
٢ الأحزاب ٦٧ .
٣ سبأ ٣٤ – ٣٥ .
٤ النحل ٣٤ .
٥ الاسراء ١٦ – ١٧ .
٦ الأعراف ٩٦ .
٧ يونس ١٣ .
٨ الأنعام ١٣١ .
٩ الرعد ١١ .
١٠ الأنفال ٥٣ .

(قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين) [11] .

(وشاورهم في الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين) [12] .

(قل : هل تربّصون بنا الا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون) [13] .

(وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون) [14] .

(ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل : اقعدوا مع القاعدين) [15] .

(لقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم باذنه ...) [16] .

(فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين) [17] .

وهكذا .. ففي الفعل الالهي عن طريق الإنسان يمارس الإنسان حريته الكاملة في حدود قدراته وخبراته وامكاناته الذاتية والمؤثرات البيئية التي تعمل عملها فيه ... والنتيجة التاريخية ، التي ترتبها المشيئة الإلهية على التجربة الفردية أو الجماعية انما تجيء منبثقة عن طبيعة التجربة ، متشكّلة بشكلها ، حاملة بصماتها ، مستمدة غذاءها ودماءها من عجينتها وشرايينها ، وهذا هو العدل بمفهومه الدقيق الكامل .

---

١١ التوبة ١٤ .
١٢ آل عمران ١٥٩ .
١٣ التوبة ٥٢ .
١٤ الأنعام ١٢٣ .
١٥ التوبة ٤٦ .
١٦ آل عمران ١٥٢ .
١٧ الحشر ٢ .

انه بدون (حرية) لن يكون هناك أبداً معنى (للموقف الإنساني) أو مغزى للخير والشر ، كما انه لن يكون هناك هذا المعنى أو المغزى ليوم (الحساب) الذي يترتب بداهة على اختيارات الناس الحرّة .. ان هذه الحرية – فضلاً عن ذلك – هي بمثابة تحدّ فعّال للإرادة البشرية تحفظ توترها الدائم ، وتضعها دائماً في موقف الفعل والانفعال ازاء الأحداث والأشياء ، ومن ثم تجيء بمثابة الخلفية الأساسية لحركة التاريخ البشري ، صعوداً وهبوطاً ، وبدون حرية لن يكون هناك تحدّ ولا توتر ولا مقاومة ولا حركة ، وسيجد الناس أنفسهم ساكنين أو مساقين ، دونما تقرير ارادي ذاتي مسبق ، إلى مصائرهم ، ودونما مقاومة أو عناء .. إن الحرية في القرآن هي : (المسؤولية) وبدونها لن تكون هنالك مسؤولية أبداً ولن يكون هنالك معنى لدعوات الأنبياء (ع) جميعاً .

ولقد مرّت بنا قبل قليل آيات ومقاطع ، بيّنت لنا ، أكثر من مرة ، ان الدمار التاريخي ، بأبعاده المختلفة ، ما كان ليحيق بجماعة ما ، الا أن يمارس في نطاقها ، قواعد وقيادة ، ظلماً وفجوراً وترفاً واجراماً .. ولقد كانت مشيئة الله تمنح الجماعة البشرية الفرصة الكاملة للحياة الطيبة العادلة السعيدة المؤمنة ، ولكنها كانت تضيّع هذه الفرصة فتضيع .. وكثيراً ما أعلن القرآن ان أبواب السماء وبركاتها مشرعة لمن يريد الاستزادة ، فقط أن يعرف كيف يسير وأين يضع خطاه ، وإلى أي هدف يسعى .. وان أية نتيجة تاريخية خارجية ما كانت لتنفذ الا على ضوء (التغيرات) الذاتية التي يمارسها الانسان على المستويين النفسي والأخلاقي ، وفي نطاقي الفرد والمجتمع .

ونلتقي من خلال العرض آنف الذكر ، بعبارات قرآنية تصل بنا إلى منتهى الإيجابية والتناسق بين ارادة الإنسان وقدر الله (إذ تحسّونهم باذنه) ، (.. فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب ،

يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين) ، (وشاورهم في الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله) ، (ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ...) ويبلغ من هذا التناسق والتناغم والتكامـل أن يعرض لنا القرآن أحياناً لوحات فذة يفجر فيها الله سبحانه طاقات الطبيعة الهائلة لخدمة الإنسان (المؤمن) الذي يعرف كيف يقف ، والقوى التي سخرت له من ورائه أمام الله حامداً شاكراً مسبحاً ، كما يعرف كيف يبني بهذه الطاقات ، وبأمر الله ، عالماً متقدماً معموراً :

(ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوّبي معه ، والطير ، وألنّا له الحديد . ان اعمل سابغات وقدّر في السرد واعملوا صالحاً اني بما تعملون بصير . ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عـين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور) [١٨] .

(واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أوّاب . انا سخرنا الجبال معه يسبّحن بالعشيّ والإشراق ، والطير محشورة كل له أوّاب . وشددنا ملكه ، وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) [١٩] .

(يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) [٢٠] .

(قال ربّ اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي انك أنت الوهاب ، فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بنّاء وغوّاص ، وآخرين مقرنين في الأصفاد . هذا عطاؤنا

---

١٨ سبأ ١٠ – ١٣ .
١٩ ص ١٧ – ٢٠ .
٢٠ ص ٢٦ .
٢١ ص ٣٥ – ٤٠ .

فامنن أو امسك بغير حساب . وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) [٢١] .

والحق ان التقسيم الذي يشهده هذا الفصل بين مصادر الفعل التاريخي لغرض التوضيح فحسب ، يكاد يكون معتسفاً لأن الآيات القرآنية نفسها — الا قليلاً منها — لا تسمح بهذا ، وبامكان أي قارىء أن يرجع لكي يتمعن في النماذج السالفة المختارة من بين مئات غيرها لكي يرى هذا التداخل العضوي الحيوي ، والتشابك الصميم في الجزئيات والكليات بين مصادر الفعل .. ونحن دائماً ننسى — بسبب تضخم شعورنا الإنساني وتحوله إلى ما يشبه الورم الذي يمنع الرؤية الحقيقية — ننسى اننا لا نعدو أن نكون جزءاً من خلق الله ، وان انسانيتنا جاءت منّة وتفضلاً من الله ، وان علمنا وخبراتنا ومقدرتنا على العمل ، لا تقاس — لا بالنوع ولا بالكم — بعلم الله الشامل المحيط ، وقدرته الخلاّقة التي لن يعجزها شيء .

ومع ذلك فقد منحتنا الرؤية القرآنية أفضل مركز في الكون ، وأعطتنا مكان السيادة على العالمين وفضلتنا على كثير من خلق الله تفضيلاً ، وهي المسألة التي سنوضحها فيما بعد .. ومن خلال هذا المركز والمكانة والتفضيل مُنحنا حرية للاختيار والفعل لم تمنح لأحد من العالمين ، وجاءت على درجة من الامتداد والتوغل والانتشار بحيث تغطي تغطية كاملـــة الوجود البشري الحرّ لأي واحـــد منا كانسان فرد ولأية جماعـــة في التاريخ كوحدة تشدها قيم ومبادىء واعراف وأهداف .

ولقد أكد القرآن الكريم في أكثر من موضع ، هذه الحرية ، وقدم عشرات النماذج الواقعية لمجالها الواسع على المستويين الفردي والجماعي .. ولكنه كان ينبهنا دائماً ، كي لا يفلت الخيط من أيدينا وتتحول مواقفنا التاريخية إلى درامات كلاسيكية مصطنعة وصراع (دون كيشوتي) لا مبرر له ، كان ينبهنا دائماً إلى ان حريتنا الكاملة المنطبقة انطباقاً هندسياً

باهراً مع وجودنا أفراداً وجماعات ما هي إلا دوائر تعمل بتوازن وتناغم وتداخل ، ضمن الدائرة الأكبر التي يرسمها علم الله الشامل وتحيط بها ارادته التي لا يقفها شيء.. ويعود فيؤكد لنا مراراً ان النتائج النهائية للفعل البشري — الفردي والجماعي — تجيء منبثقة ، بمنطق عادل لا يعرف زيفاً أو التواءاً ، عن أفعالنا ، تحمل طبيعتها وتكوينها وملامحها وتتغذى بعجينتها التي جبلناها نحن ، وتشرب من شرايينها التي سهرنا على مدّها بالدماء النقية الحمراء أو الكالحة الزرقاء التي تسوّد وتسوّد حتى لتكاد تحترق فتكون دخاناً !! .

ولا يتصورن أحد أن القرآن الكريم يُبقي مسألة القدر والحرية في نطاق الإنسان الفرد ولا يخرج بها عن دائرة التأويلات والزوايا الفلسفية والنفسية والأخلاقية . ذلك اننا نلتقي — إلى جانب الآيات التي تحكي عن المستوى الفردي — بعشرات من الآيات والمقاطع القرآنية التي تنتقل إلى المستوى الجماعي وتعرض المسألة في صيغها التاريخية والحضارية .. وهي — كعادة المنهج القرآني الذي يرفض التجزئة والانفصالية — تربط دوماً بين الأرض والسماء وتتخذهما مسرحاً ذا خشبة واحدة عريضة تتحرك عليها الجماعات البشرية لتؤدي دورها ولتكافأ على هذا الدور بما يوازي حجمه ويتلاءم مع جنسه ، هنا في الأرض أولاً ، ثم هناك في السماء فيما بعد ..

ولنا بعد ذلك أن نتمعن في عدد من النماذج القرآنية التي تطرح علينا المسألة وفق أكثر الزوايا موضوعية ، وأشد المواقف عدلاً وتماسكاً وأوسع الرؤى توغلاً في صميم التجربة البشرية :

(تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) [٢٢] .

---

٢٢ البقرة ١٣٤ و ١٤١ .

(ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) [٢٣] .

(قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك الا القوم الظالمون) [٢٤] . ؟

(فلما نسوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون . فقُطِع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) [٢٥] .

(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحملْ علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تُحملنا ما لا طاقة لنا به ...) [٢٦] .

(وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها ، اليوم تجزون ما كنتم تعملون) [٢٧] .

(ولقد بوّأنا بني اسرائيل مبوّأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم) [٢٨] .

(ومن يُرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ...) [٢٩] .

(من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ...) [٣٠]

---

٢٣ البقرة ٦ — ٧ .
٢٤ الأنعام ٤٧ .
٢٥ الأنعام ٤٤ — ٤٥ .
٢٦ البقرة ٢٨٦ .
٢٧ الجاثية ٢٨ .
٢٨ يونس ٩٣ .
٢٩ آل عمران ١٤٥ .
٣٠ النساء ١٣٤ .

(ولو ان أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفّرنا عنهم سيآتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ، ولو انهم أقاموا التوراة والانجيل وما أُنزل اليهم من ربّهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساء ما يعملون) [٣١] .

(ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) [٣٢] .

(الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) [٣٣]

(وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) [٣٤] .

(ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولّوا مجرمين) [٣٥] .

(والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوّئنهم في الدنيا حسنة ولأجرُ الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) [٣٦] .

(وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون) [٣٧] .

(من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها

---

٣١ المائدة ٦٥ — ٦٦ .
٣٢ الأعراف ٩٦ .
٣٣ الأنعام ٨٢ .
٣٤ الأنعام ٤٨ .
٣٥ هود ٥٢ .
٣٦ النحل ٤١ .
٣٧ النحل ١١٢ — ١١٣ .

وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً . كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً . أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ولَلآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً)[38] .

(إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)[39]

(... ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسُلي هزواً . ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً . خالدين فيها لا يبغون عنها حِولاً)[40] .

(وان لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً)[41] .

(ذلك ان لم يكن ربُّك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون)[42] .

(وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولاً)[43] .

(رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ..)[44] .

(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم – على فترة من الرسل – ان تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير)[45] .

هذا على المستوى الجماعي لمسألة القدر والحرية .. اننا نرى بوضوح من خلال هذه النماذج القرآنية كيف ان أية جماعة أو أمة انما هي مسؤولة عن فعلها فحسب ، إذ ليس من العدل ان تحمّل نتائج أفعال غيرها من

---

٣٨ الاسراء ١٨ – ٢١ .
٣٩ غافر ٥١ .
٤٠ الكهف ١٠٦ – ١٠٨ .
٤١ الجن ١٦ .
٤٢ الأنعام ١٣١ .
٤٣ الاسراء ١٥ .
٤٤ النساء ١٦٥ .
٤٥ المائدة ١٩ .

الجماعات ، يفصلها عنها الزمن أو المكان ، كما نرى كيف تكافأ الجماعة الواحدة بجزاء يستمد عجينته من بنية التجربة التي تمارسها هذه الجماعة إن خيراً أو شراً .. ومن ثم تجيء رحمة الله ، أو يجيء (ختمه) على القلوب والأسماع والأبصار .

ان الله سبحانه يمنح نعمه التي تنزل وفق النواميس الطبيعية ، بالقسطاس ، على الأمم والشعوب ، الا ان الجماعة التي تسيء التصرّف ، وتطغى وتتجبر ويسوقها الطغيان والجبروت إلى الكفر والمروق والتمرّد على النظام الكوني ومبدعه ، فان العقاب في الانتظار . واننا لنلمح في الآية (٢٨٦) من سورة البقرة موقفاً مغايراً تماماً لما عودتنا عليه الرؤى الغربية منذ عهد (اسخيلوس) حتى (يونسكو) و (بكت).. موقف التعاطف بين الله والإنسان وغفران الله لكل ما من شأنه أن يصدر عن ضعف الإنسان وعجلته وأخطائه غير المتعمدة ، ونسيانه .. ودعوة الإنسان لخالقه الا يحمّله في حياته الدنيا أكثر من طاقته !! .

وتتدفق الصور والمواقف بعد هذا .. فنجد في آية (الجاثية ٣٨) الأمم والجماعات تجثو عند بارئها فيعرض عليها كتابها الذي هو حصيلة فعلها التاريخي في الأرض ، ثم يكون الجزاء وفق خامة الفعل نفسه .. ويتقدم الشهود (النساء ٤١) أنبياء وزعماء ، لكي يدلوا بكشف كامل وشهادة عادلة عن الدور الذي لعبته أمتهم في التاريخ .. وفي آية (التوبة ٥١) يمتد قدر الإنسان لكي يلتقي بارادة الله فيتعانق معها بانسجام وتوافق لا يدع مجالاً لتردد أو خوف أو حزن .

وفي آيات أخرى نجد تأكيداً دائماً على استمرارية الجزاء على الفعل وتواصله في الأرض والسماء . وثمة آيات أخرى تبين لنا ان من يرد (لاحظ فعل الارادة) ثواب الدنيا فله ذلك ، ومن يرد ثواب الآخرة فلن يصده عن هدفه شيء . وفي آية (النحل ٤١) دعوة للجماعة المؤمنة

لأن تتحرك وألا تقف ساكنة ازاء الظلم والطغيان ، من أجل أن تحقق (بإرادتها) (الأحسن) و (الأفضل) في دنياها وآخرتها .

وكثيراً ما تنتهي الآيات القرآنية في هذا المجال بعبارة (بما كانوا يصنعون) تعقيباً على الجزاء الذي يلحق بأمة أو جماعة .. وفي آية الأحقاف (٢٠) نلتقي بالأفعال البشرية (أذهبتم) (استمتعتم) واضحة في نسبتها إلى الارادة الحرّة ، الأمر الذي يجعل الجزاء عادلاً ازاء جماعة اذهبت بارادتها طيباتها واستمتعت بها بغير الحق . وما أكثر ما كانت دعوات الأنبياء والمرسلين للجماعات البشرية تجيء لكي تناديهم ان (يختاروا) طريق الإيمان لكي يحظو بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة .. وما كان لأي من هؤلاء المرسلين أن يلزمهم الزاماً بالانتماء إلى دعوته !! .

ثم تجيء الآيات الأخيرة في هذا العرض اشارة حاسمة إلى ان الله سبحانه ما كان ليضرب جماعة ما ، او أحداً من عباده، قبل أن يبعث اليهم بالنذير ، ويدلهم على الطريق ، ويعطيهم الفرصة لكي يختاروا بملء ارادتهم أن ينتموا للحق ، أو تسوقهم الشهوات إلى التشبّث بمواقع الباطل حيث يحق العقاب كجزء من خطة العدل الإلهي الشاملة في سياسة الكون كله .. انّ الصورة القرآنية هنا تبدو مغايرة في جوهرها للصيغ التي طرحها الغربيون منذ عهد اليونان وحتى القرن العشرين عن العلاقة بين الله وعباده .

إن (القدر) في تصورهم ضربة مفاجئة تجيء على حين غفلة لكي تقصم ظهر الإنسان ، ودعابة درامية ثقيلة ومحزنة تصور الآلهة وهم يرسمون الخطط الخبيثة لإيقاع العباد في الشباك التي نصبت بمهارة .. ان الصورة القرآنية تكنس في طريقها هذا الغثاء ، لكي تعيد صيغة العلاقة بين الناس وأقدارهم إلى موقعها الإنساني ، المنطقي ، العادل (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من

لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون) [٤٦] .

أكثر من هذا ، ان القرآن الكريم يبين لنا بوضوح ان الله سبحانه وضع الحجة والبرهان في قلب كل واحد منا ، وركز الدلالة اليــه في فطرة كل انسان لحظة بعثه إلى الحياة ، ومن ثمّ حمّله المسؤولية ، وفق هذا الامتداد الباطني ، في أن يختار – بارادته – الطريق الذي يقوده إلى الله ، انسجاماً مع تكوينه الذاتي ومعطياته الفطرية الأساسية .. وبهــذا يؤكد الإسلام موقفه الإنساني المفتوح ، ورفضه الكلي للقدرية التراجيدية القائمة على الغشم والمفاجئة .. هذا التأكيد الذي يجيء وفق تحذيرات واشارات تنبثق من داخل كل انسان كشهادة حرّة – ابتداء – ثم تصدر اليه مرة أخرى من الخارج عن طريق رسل الله .. (وإذ أخذ ربك من بني آدم ، من ظهورهم ، ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون) ؟ [٤٧] .

(فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرةَ الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيّم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون) [٤٨] .

هذا على النطاق الجماعي لمسألة القدر والحرية ، فأما على النطاق الفردي فهنالك آيات كثيرة أخرى تضرب على نفس الوتر ، وتطرح علينا ذات القيم والمعاني :

---

٤٦ الانبياء ١٦ – ١٨
٤٧ الاعراف ١٧٢ – ١٧٣
٤٨ الروم ٣٠ .
٤٩ الاسراء ١٥ .

(من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ، ومن ضلّ فانما يضلّ عليها ، وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولاً) [49] .

(قل كلٌّ يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً) [50]

(ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى)[51]

(وأن ليس للانسان إلا ما سعى . وان سعيه سوف يُرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى) [52] .

(إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) [53] .

(لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ) [54] .

(من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى ، وهو مؤمن ، فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) [55] .

(ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً) [56]

(من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب) [57] .

(ووُفّيت كل نفس ما عملت وهم أعلم بما يفعلون) [58] ... هم أعلم بما يفعلون !! وذلك مفتاح القضية كلها !! [59] .

---

٥٠ الاسراء ٨٤
٥١ الأنعام ١٦٤ .
٥٢ النجم ٣٩ – ٤١ .
٥٣ الإنسان ٣ .
٥٤ البقرة ٢٥٦ .
٥٥ النحل ٩٧ .
٥٦ الاسراء ٧٢ .
٥٧ الشورى ٢٠ .
٥٨ الزمر ٧٠.
٥٩ وانظر كذلك . البقرة ٢٧٢ آل عمران ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٦ ، ١١٧، ١٤٥ ، ١٧٦ النساء ٦٤ ، ٧٨ – ٧٩ ، ١١٨ – ١١٩ المائدة ٤١ الأنعام ١٧ ، ٢٥ ، ٣٥ – ٣٦ ، ٣٩ ، ٥٣ ، ٦٣ – ٦٤ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١١١ – ١١٢ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٥، ١٣١، ١٤٤ ، ١٤٨ – ١٤٩ ، الأعراف ٢٧، ١٣١ ، ١٤٦، ١٧٨ – ١٧٩، ١٨٦ ، =

ان معظم الآيات التي تتناول الموضوع تؤكد على (الموقف) **التالي** : ان الله سبحانه لا يطبع على قلب انسان ويختم على مصيره بالكفر أو الإيمان الا بعد علم مسبق بتكوين هذا القلب وطبيعة نبضه كماً ونوعاً .. وهذا التكوين المسبق ليس أمراً (مجبراً) عليه الإنسان ، بل هو ثمرة اختياره الحرّ المتأثر بظروفه البيئية والوراثية التي هي بدورها حصيلة البيئة على مرّ الزمان .. ومن ثم فان اصرار القرآن على ان يكون المجتمع المسلم خاصة ، أو أي مجتمع مؤمن عامة ، ملتزماً ايجابيته (الايديولوجية) وموقفه الإيماني الحركي الصحيح ، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، واقامة لحكم الله في الأرض ، معناه السعي الجاد لايجاد البيئة (والأرضية) والمناخ التي تتيح لأكبر عدد ممكن من الناس والجماعات أن تتفتح قلوبهم للحب والإيمان والخير ، وأن تمتلك أفئدتهم القدرة على التعامل الفعّال مع شريعة الله ، لكي يصوغوا وجودهم ومصيرهم ، بما يطمح اليه ، ويتمناه ، كل انسان .

= الأنفال ١٧ ، ٢٣ – ٢٤ ، التوبة ٢٤ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٧٧ – ٧٨ ، ١١٥ ، يونس ١٣ ، ٢٢ – ٢٣ ، ٧٤ ، ٩٦ – ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، الرعد ٢٧ ، ٣١ ، ٣٣ ، ابراهيم ٤ ، النحل ٣٥ ، ٣٧ ، ٥٣ – ٥٤ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، الاسراء ٤٦ – ٤٧ ، ٩٧ ، الكهف ٢٨ – ٢٩ ، ٥٧ ، ١٠١ ، مريم ٧٦ ، طه ١٢٤ – ١٢٥ ، الحج ١٦ ، ٥٣ -- ٥٤ ، النور ٤٦ ، الفرقان ٣١ ، الشعراء ٢٠٠ – ٢٠١ ، النمل ٨١ ، القصص ٥٦ ، ٦٨ – ٦٩ ، ٨٥ ، العنكبوت ٦٢ ، ٦٩ ، الروم ٩ ، ٢٩ ، ٣٧ ، ٥٩ ، السجدة ٣ ، ١٣ ، الأحزاب ٢٨ ، سبأ ١٧ ، ٣٦ ، ٣٩ ، فاطر ٨ ، ١١ ، ٢٤ ، ياسين ٤ – ١١ ، الزمر ٣ ، ١٩ ، ٢٢ ، غافر ٦٧ ، فصلت ٥ – ٦ ، ٤٤ الشورى ٨ ، ١٣ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٤٤ ، ٥٢ ، الزخرف ٢٠ ، ٣٦ ، ٤٠ ، الجاثية ٢١ ، ٢٣ ، محمد ١ ، ٨ – ٩ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٩ ، الفتح ١٨ الحجرات ٧ ، ١٧ ، ق ١٦ – ٢٧ الحديد ٢٢ – ٢٣ الحشر ١ – ٦ ، الصف ٥ المنافقون ٣ ، التغابن ٢ ، ١١ ، الإنسان ٣٠ – ٣١ ، التكوير ٢٩ ، المطففين ١٤ الأعلى ٣ ، ١٠ – ١١ ، البلد ١٠ ، الليل ١ – ٢١ .

٤

ان مسألة الحرية الانسانية تقودنا — بالضرورة — إلى طبيعة العلاقة بين الإنسان وبين عملية تكوين الحدث التاريخي . وإذا كان القرآن قد حدثنا ، بصدد الفعل الإلهي المباشر، أن الله سبحانه يخلق بالكلمة الوقائع والأشياء والموجودات والأحداث بأن يقول لها : كن فتكون ، فان لنا هنا أن نتمعن في طبيعة العلاقة المتبادلة بين الإنسان وبين الحدث ، فعلاً وردّ فعل ، في عملية الخلق ، وفي المؤثرات التي تنعكس في أعقاب هذاه العملية على سلوكية الإنسان .

ان القرآن يتوغل بعيداً في هذه المسألة ، انه يتجاوز منطق التسطيح الذي سلكته بعض مذاهب التفسير ، وبخاصة المادية التاريخية ، في ردّ كل تصرفات الانسان إلى الانعكاسات المادية التحتية ، أو (المثالية الهيغلية) في جعلها كل تصرفاته تخضع لمسيرة العقل المنظم الكليّ . ان القرآن يتيح ، منذ البدء ، من خلال عروضه لمسألة الحرية الانسانية، مركزاً ممتازاً للدور البشري في الأرض . فهو من جهة خليفة الله في الأرض والذي قُدّر له أن يصنع احداث تاريخه بارادته واختياره ، سلباً وايجاباً (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) [١] (ونفسٍ وما سوّاها . فألهمها

---

١ الإنسان ٣ .

فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دسّاها) [2] .
(لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ..) [3] .

وهو من جهة أخرى يجد كتلة السماوات والأرض قد سُخرت له لأداء مهمته هذه .. ومن ثم تجيء ارادته الحرّة في صياغة الأحداث ، صدوراً فوقياً عاقلاً مريداً يخضع التحتيات ويشكلها كما يشاء هو ، مع تأثره بطبيعة الحال بنواميسها وعلاقاتها المادية وأبعادها وأحجامها ومساحاتها .. لكن الكلمة الأخيرة في الصياغة تجيء دائماً على يد الإنسان الفاعلة المتفننة القديرة .. أكثر من هذا ، ان القرآن يصعّد الموقف ، ويتجاوز به كل ما من شأنه أن يحيطه بالغموض وعدم الوضوح ، بل انه يحسم المسألة بهذه الآية القاطعة : (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) [4] .

وهكذا يتبوّأ الإنسان مركزه المنطقي العادل في الأرض كسيّد للعالمين ، فهو يخضع ولا يخضع ، يصوغ ولا يصاغ ، يخطط وينفذ ولا يتخذ مجرد أداة لتنفيذ خطط الطبيعة ومتطلبات العلاقات المادية .. مع هذا التحفظ الدائم الذي نطرحه مراراً كيلا نخرج عن حدود العلم الذي يغرسه القرآن في نفوس الباحثين ، وهو ان الإنسان ، كما انه يفعل في المادة خلال صياغة الواقعة التاريخية ، فانه ينفعل بها أيضاً ، وهذه بديهية لا تحتاج إلى تأكيد بطبيعة الحال .. والمهم هو الاجابة عن هذا السؤال : لمن الكلمة النهائية في صياغة التاريخ ؟ ! .

---

٢ الشمس ٧ — ١٠ .
٣ البقرة ٢٥٦ .
٤ الإسراء ٧٠ .

ومهما يكن من أمر فان علاقة الإنسان بالتاريخ من خلال المعطيات القرآنية تضعه في المصاف الذي أنزلته منه المذاهب الوضعية درجات ودرجات .. فأخضعه بعضها لإرادة العقل الباطني للعالم يفعل به ما يشاء كأداة لصياغة الأحداث المتلاحقة ووسيلة لتمرير الصيرورة الدائمة صوب مرحلة التجلّي .. وألصقه بعضها الآخر بالأرض ، مجرِّداً اياه من حريته ، جاعلاً منه عبداً ذليلاً مطيعاً لعلاقات الكتل المادية واحجامها وأوضاعها الديناميكية المتغيرة . انه في النظرة القرآنية يتخذ موقفه (الفوقي) العادل الذي ينسجم وقدراته المتنوعة المعقدة المتشابكة ، ويمكنه من التغيير والتبديل بما يشاء هو لا بما تشاء قواعد المادة تحت قدميه .

ولم تكن حركة الوقائع التاريخية يوماً سوى نتاج هذا التقابل الفعال بين الإنسان وبين المادة ، فعلاً وانفعالاً .. لكن الذي يمسك بالفعل ويعطيه ملامحه النهائية هو الإنسان وليست الكتلة المادية . وهذا يشبه إلى حد كبير طبيعة العلاقة المتبادلة بين (النحّات) وبين الكتلة التي يعمل إزميله فيها لإخراج (صيغة) كان قد رسمها في ذهنه سلفاً ، وها هو يعمل يديه لتنفيذ هذه (الخطة) المسبقة ، فاذا ما صادف ان استعصت الكتلة عليه ، فان له أن يستخدم أزاميل أخرى أشد نفاذاً في قلب الصخر والمرمر أو النحاس ، وان له أن يتركها إلى غيرها من الكتل الأكثر طواعية وليونة ، أو أن يعدّل في خطته ويبدّل من أجل أن يتمكن من كتلته ويقدر على تنفيذ الخطة .

وهكذا .. فان الواقعة التاريخية تجيء وفق هذه المدرجات الثلاث في العلاقة بين الإنسان والعالم التي يبدو الإنسان فيها جميعاً سيّد (الموقف) أن يُخضِع خامات الواقعة لارادته كلية ، أو أن يتحول عنها إلى خامات أخرى أكثر طواعية لصياغة ما يريد ، أو أن يبدّل ويعدّل في جوانب نشاطه وخططه لكي يقدر على صياغة الواقعة ممـــا تحت يديه من خامات .

وسنتكلم في فصل لاحق على ضرورة أن يكون للعالم مقاومة ، وأن تمارس كتله المادية نوعاً من التمرّد أو الاستعصاء على الارادة البشرية داخل اطار التسخير الشامل. لأن تلك المقاومة وهذا التمرّد أو الاستعصاء هو الذي يستفزّ ردّ الفعل البشري ويمكنه من الحركة والمضي إلى غاياته ، ويتجاوز بالإنسان مرحلة الكسل والاتكال والسلبية .

فالمسألة في صميمها إذن تبادل أفعال وردود أفعال بين الإنسان وخامة العالم .. الا ان بدء هذه الحالة الاهتزازية الدافعة ، ومفتاحها ، يكمن في الإنسان . هذا إذا استثنينا بطبيعة الأمر حالات الطبيعة الشاذة التي تفوق مقدرة الإنسان والتي تجيء عنيفة كاسحة : زلازل وبراكين وفيضانات وجفاف .. ولكن حتى هذه ، فان التقنية أعطت للانسان مقدرة أمضى على تطويعها والسيادة عليها .. أكثر من هذا انها مكنته من تحويلها لصالحه وصالح تطوره الحضاري المتنوّع .

من أجل ذلك كان الإنسان عامة ، والإنسان المؤمن على وجه الخصوص ، غالياً عزيزاً عند الله ، لأنه كلمته الفاعلة في الأرض ، وارادته النافذة في العالم .. ومن أجل ذلك كان قتل الإنسان وصدّه عن أداء دوره (خطأً كبيراً) .. أكثر من هذا ، انه قتل للناس جميعاً ، لأن جريمة القتل تجيء هنا موجهة ضد بني آدم سواء حصدت منهم واحداً أم مئات أم ألوفاً (من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) [٥] .

ومن أجل ذلك نادى القرآن بني آدم (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إنّ قتلهم كان خطئاً كبيراً) [٦] ، (ولا

---

٥ المائدة ٣٢ .

٦ الإسراء ٣١ .

تقتلوا النفس التي حرم الله – إلا بالحق – ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يسرف في القتل انه كان منصوراً)[7] ، وأعلن (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً الا خطئاً)[8] ، (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ، ولعنه ، وأعدّ له عذاباً عظيماً)[9] .. هذا بينما يضيع (الإنسان) ويزداد تفاهة ورخصاً في عدد من المذاهب الوضعية التي تجعله مجرد أداة للفعل التاريخي سواء في عالم الفكر أم في عالم المادة .. بل انها تبيح قتله فرداً وجماعة ما دامت مصلحة (التجلّي) الفكري للعالم أو (مشيئة) التبدل المادي لوسائل الإنتاج قد أمرت بذلك ! !

* * *

إن القرآن الكريم يخطو بنا خطوات أخرى ، من خلال معطياته عن طبيعة العلاقة بين الإنسان والواقعة التاريخية .. ونحن نلمس في هـــذه المعطيات حفاظه المعجز على الواقعية، والنفاذ، والتوازن ، ورفض التوتر على الموقف الواحد أو الرؤية من خلال الزاوية الواحدة ، الأمر الذي يكاد يتحكم في مناهج الوضعيين .. انه كلمات الله .. وهي تجيء دائما شاملة ، محيطة ، تتعامل مع (الموقف) تعاملاً موضوعياً خالصاً فتتفحصه من كافة أطرافه وتتمعن في علاقاته ومكوناته من كل زوايا الرؤية التي تقود اليه .

صحيح ان القرآن يعلن بوضوح – على المستوى الأفقي – تفضيل

٧ الإسراء ٣٣ .
٨ النساء ٩٢ .
٩ النساء ٩٣ .

الإنسان على سائر خلق الله ، وسيادته على العالمين .. إلا أنه لا يترك مسألة التوغل (العمودي) في أعماق الإنسان وتكوينه الذاتي المتشكل عن نفخة الروح العلوية في قبضة الطين السفلية .. ان هذا التشكّل الثنائي ، كما انه يمنح الانسان الحرية والمقدرة ، ويخلق في نفسه مطامح النزوع إلى الاستعلاء ، فانه — من جهة أخرى — يشده إلى الأرض ، وإلى المادة ، ويقيم بينه وبين غرائزه وشهواته علاقات متشابكة ، ومراكز ثقل تسحبه دائماً إلى اسفل مهما سعى للنزوع إلى فوق . ان طبيعة علاقة الإنسان بالواقعة التاريخية ، وهو على هذا المستوى من التعقيد والتداخل والتشابك الناتج عن لقاء الروح بالتراب ، تجيء هي الأخرى — وبالضرورة — معقدة ، متداخلة ، متشابكة ، ليست أبداً على ذلك المستوى من التبسيط والتسطح اللذين نجدهما في عدد من المذاهب الوضعية التي تسعى إلى قولبة العلاقة بين الإنسان والتاريخ وفق صيغة ثابتة واضحة لا تقبل تغيراً ولا تبدّلاً .

ان القرآن بتوغلة العمودي العليم بأعماق الإنسان وتكوينه الذاتي ، يحدثنا في أكثر من موضع ، وبمواجهة اعلانه الأول عن تفضيل بني آدم وسيادتهم .. عن نقاط الضعف والسلبية في سلوكية الإنسان .. أولاً لكي يوقفه على حقيقته فلا يشذ ولا يطغى معتقداً انه قادر على صياغة أي شيء والتحكم في أية واقعة ، وصنع تاريخه ناجزاً كما يريد . وثانياً لكي يستفز فيه قوى التحدي والمقاومة والاجتياز للتفوق على ضعفه وعجزه والتوغل — أكثر — في قلب العالم وهو أشد قوة وأمضى عزيمة وأعمق توحداً في نسيجه الروحي — المادي على السواء . وثالثاً لأن الإنسان — وبموضوعية تامة — هكذا خلق ، يحمل في اللحظة الواحدة والموقف الواحد عناصر قوته وضعفه ، ما دام قد رُكب وفق هذا الأسلوب وما دام قد أراده الله أن يكون بشراً يصارع ويقاوم في الداخل (الجهاد الأكبر) وفي الخارج (الجهاد الأصغر) ، لا مجرد ملك يتلقى ويستلم ويطيع !!

(يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً) [10] .

(ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً) [11] .

(خُلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتي فلا تستعجلون) [12] .

(إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان انه كان ظلوماً جهولاً) [13] .

(وإذا أنعمنا على الإنسان أعرضَ ونأى بجانبه وإذا مسّه الشرّ فذو دعاء عريض) [14] .

(ان الإنسان خُلق هلوعاً . إذا مسّه الشرّ جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً . إلا المصلين ..) [15] .

(قُتل الإنسان ما أكفره !! من أي شيء خلقه ؟ من نطفة خلقه فقدّره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره . كلا لما يقضي ما أمره) . [16] .

(وتأكلون التراث أكلاً لما . وتحبون المال حباً جماً) [17] .

(لقد خلقنا الإنسان في كبد) [18] .

(ان الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) [19] .

(.. وكان الإنسان قتوراً) [20] .

(قال : انك لن تستطيع معي صبراً . وكيف تصبر على ما لم تحط به خُبراً ؟) [21] .

---

١٠ النساء ٢٨ .
١١ الاسراء ١١ .
١٢ الأنبياء ٣٧ .
١٣ الأحزاب ٧٢ .
١٤ فصلت ٥١ .
١٥ المعارج ١٩ – ٢٢ .
١٦ عبس ١٧ – ٢٣ .
١٧ الفجر ٢٠ .
١٨ البلد ٤ .
١٩ العلق ٦ – ٧ .
٢٠ الاسراء ١٠٠ .
٢١ الكهف ٦٧ – ٦٨ .

(الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ً ثم جعل من بعدة قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) [٢٢] .

(ومن نعمّره ننكّسه في الخلق ، أفلا يعقلون ؟) [٢٣] .

وفي سورة (التين) يطرح القرآن المعادلة البشرية بطرفيها (.. لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ..) [٢٤] .. لكي يبين لنا ان هذا الضعف ليس أبدياً فينا وان بامكاننا أن نتجاوزه ونتفوق عليه . ولئن جاءت المعادلة في هذه السورة على مستوى النشاط البشري كله ، فان القرآن في سورة الأنفال يعرضها محددة في اطار الصراع والقتال ، ضارباً بها التفسير المادي لتقابل القوى مؤكداً في الوقت نفسه على قوة الإنسان وعلى ضعفه اللذين ينبثقان عن تركيبه الداخلي وايمانه الذاتي ، لا عن أية فرضية خارجية (.. ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلِمَ أن فيكم ضعفاً فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين – باذن الله – والله مع الصابرين) [٢٥] .

ان القرآن يسلط أضواءه الكاشفة على كل دوافع الإنسان ونوازعه الباطنية ، الشعورية واللاشعورية ، ويشير إلى كل مساحات تركيبه الداخلي قوة وضعفاً ، صبراً وتعجلاً ، إقداماً وإحجاماً ، أملاً ويأساً ، استقامة وطغياناً ، التزاماً للقيم العليا أو خضوعاً للمال ، تصعيداً للتجربة الروحية

---

٢٢ الروم ٥٤ .
٢٣ ياسين ٦٨ .
٢٤ ٤ – ٦ .
٢٥ الأنفال ٦٥ – ٦٦ .

أو ارتكاساً في الشهوات .. ليس هذا فحسب ، بل انه يدور مع الإنسان ، في شتى مراحل عمره التي يتعاقب فيها الضعف والقوة ، وكأنه يريد أن يذكرنا بطبيعة الموقف البشري على الأرض عامة ، ذلك الذي ينهزم مرة وينتصر أخرى ، يضعف حيناً ويقوى أحياناً .. ولن يجيء ذلك — في الحالتين — إلا انبثاقاً عفوياً عن طبيعة التجربة التي يعانيها الإنسان أولاً وعن مدى تأثره بالبيئة المحيطة به ثانياً . ان القرآن ، بتسليطه الأضواء الكاشفة على هذه النقاط جميعاً، يقدم لنا الإيضاحات النفسية لوقائع التاريخ البشري وأحداثه ، ويفسر أسباب الهزيمة والانتصار فيها جميعاً .. ويتجاوز (التبسيط) و (الواحدية) اللذين يسطحان الموقف البشري ازاء الواقعة التاريخية ويردانه إلى علاقة رياضية آلية متبادلة بين الإنسان والمادة، وكأن الإنسان صنوٌ للمادة، إن لم نقل تابعاً لها في تغيراتها الدينامية ، وكأنه في مقابلته أو خضوعه هذا للتغيرات المادية (ماركس) أو الفكرية (هيغل) ، لا يعدو أن يكون هو الآخر (وصلة) ميكانيكية ، وقطعة آلية لا تنطوي جوانبها على نسيج معقد متشابك صعب من العواطف والأحاسيس والمنازع الروحية والاهتزازات الوجدانية والدوافع والغرائز . والشهوات ، والعقد ومركبات النقص والأزمات النفسية ، والتخيل والتذكر والتأمل ، والشعور واللاشعور ، والوعي و اللاوعي ، والقدرة على الإبداع والتنفيذ أو السلبية والانعزال ، والارادة الذاتية في الرفض أو القبول .

ان ردّ كل المواقف البشرية ازاء حركة التاريخ إلى انفعال بسيط ، لا إرادي ، بالمتغيرات الخارجية (الحتمية) يذكرنا بما قاله (ماكيفر) و (جارلس بيج) عن علم النفس الماركسي من انه « يفتقر إلى الكفاءة » وان هذا « ربما كان الضعف القتال للحتمية كلها . فقد زعم ماركس ان الإنسان يستجيب للتغيرات التي تدخل في نظام الانتاج .. أما كيف

تدخل ، فهو لا يقول لنا لأنه يتكلم كما لو كان الاسلوب الفني المتغير في الانتاج هو نفسه يوضّح نفسه وهو السبب الأول في صيرورة هي- ببساطة - محتومة . انه يتجاهل تعقيدات التعوّد من جهة والنفور من جهة أخرى . انه يبسط النظرات التي تتجمع حول الأنظمة ، فالتماسك والاخلاص بالنسبة للعائلة والمهنة والأمة كلها خاضعة للطبقة الاقتصادية.. ما يحتمه الاقتصاد، أي بكلمات أخرى لا تحل المشاكل الكبرى للمؤثرات الاجتماعية . وان الحل الذي استهدفته هذه المحاولة يستبعد تأثير عوامل أخرى كثيرة جداً) [٢٦] .

ما الذي دفع (نيرون) إلى احراق روما ؟ ما الذي دفع (كيلوباترا) إلى الانتحار ؟ ما الذي دفع (تيمورلنك) الأعرج !! إلى اقامة المجازر البشرية في طريقه أو بناء المنائر من جماجم الموتى ؟ ما الذي دفع (قمبيز) الامبراطور الفارسي إلى أن يقتل نفسه ، ما الذي دفع (روبسبير) إلى حصد رؤوس رفاقه في الفكر والثورة ؟ ما الذي جعل (خالد بن الوليد) ينتصر في المعارك التي خاضها جميعاً ؟ ما الذي دفع (نابليون) إلى أن يضحي بما يقرب من نصف مليون من خيرة جنده في ثلوج روسيا ؟ ما الذي دفع (هتلر) إلى مجازفاته الحربية التي لم يلتفت فيها إلى نصائح وتحذيرات رجالات أركان حربه ؟ ما الذي دفعه وأقطاب حزبه إلى الانتحار ؟ ما الذي دفع المسلمين إلى تجاوز الأراضي الخصبة في فتوحهم ، والتوغل في صحارٍ شاسعة وجبال رهيبة كانت قبورهم تنتظرهم فيها ؟ ما الذي مكنهم - وهم الأقل غالباً عدة وعدداً - من الانتصار على أعدائهم الذين كانوا يفوقونهم في مقاييس المادة والقوى المنظورة ؟ ما الذي دفع السلطان العثماني (عبد الحميد الثاني) إلى أن يرفض منح اليهود أرضاً

---

٢٦ أنظر الفصل الأول من هذا البحث .

في فلسطين لقاء تسليف دولته المتعبة قرضاً ضخماً والتبرع ببناء أسطول بحري لها وتسديد ديونها ؟ ما الذي دفعه إلى أن يضحي بعرشه — كما تبين وثيقة هامة بخط يده وجهها إلى رئيسه في الطريقة التي ينتمي اليها — في سبيل أن تبقى فلسطين بأيدي أصحابها الشرعيين ؟ ! .

وعشرات غيرها من المواقف التاريخية الحاسمة ، بل مئات ، يمكن أن يقدمها لنا سجل التاريخ البشري الحافل .. والتي لن تفسّرها أبداً مسألة التبدل في وسائل الانتاج ، بل لن يفسرها أبداً المنطق المادي في عمومه ، لأن هنالك من وراء المادة ، وفي تكوين كل واحد منا،ذلك المزيج المعقد المتشابك والنسيج الفذ المركّب من قوى العقل والروح والعاطفة والوجدان ، والغرائز والأعصاب، والدوافع والشهوات ، والذي عجز العلم التجريبي حتى الآن — على تقدمه الهائل في ميادين الطبيعة والرياضة — أن يكشف عن واحد بالمائة من بواطن هذا الكائن المتفرد (المجهول) ، كما يقول الكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل في الطب والجراحة ، وكأن تحليله العلمي الدقيق هذا يجيء مصداقاً لما طرحه القرآن الكريم ، بتركيز بالغ ، عن الروح البشري (ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً)[٢٧] .

* * *

ولقد انعكس موقف القرآن الموضوعي المتشعّب من الإنسان ، على المعطيات العقائدية والتشريعية للاسلام نفسه، لكي يكون أكثر واقعية وانسجاماً مع التكوين البشري ... فبينما نجد عدداً من المذاهب الوضعية تنطلق من نظرتها (الواحدية) و (التبسيطية) لحركة التاريخ إلى صبّ الناس جميعاً في قالب واحد ، شاءوا أم أبوا ، وطمس تفردهم وتميزهم

---

٢٧ الإسراء ٨٥ .

الذي يجعل كلاً منهم (عالماً قائماً بذاته) ، مع ارتباطه الفعال ببني جلدته ، ووضعهم في خط تشابهي واحد ، وقسرهم على أن يعيشوا تجربة واحدة ، ويروا رؤية واحدة ، وكأنهم أرقام متشابهة صمّاء ، أو كتل حشرية تعمل في مستعمرات للنحل أو للنمل ... نجد الإسلام — من خلال قرآنه وسنة نبيه (ص) — يضع أسساً مرنة لحركة التاريخ البشري وتشكيل المصير ، فهو يرسم الخطوط الأساسية العريضة للنظام والفكر الذي يلزم به أفراد المجتمع الإسلامي من المنتمين للاسلام ، عن طواعية واختيار بطبيعة الحال ، كي يغدو كل واحد منهم متجانساً مع الآخرين ، متسقة تجربته مع تجربة الأمة الأكبر والأشمل ، وقادراً — من ثم — على الاسهام — بشكل أو بآخر — في حركة تاريخها .

الا ان الإسلام — من جهة أخرى — يفتح الطريق أمام (المتفوقين) الذين تجاوزوا مواقع ضعفهم ،وانتصروا على قوى الشرّ التي تشدّهم إلىأسفل للوصول بجهدهم الدائب وعطائهم المبدع إلى القمم التي لا يستطيع بلوغها ، إلا القلة الطليعية الفذة . وهؤلاء هم الذين تقع على عواتقهم مسؤولية توجيه التاريخ وتشكيل حركته ، شرط أن يضمنوا مسيرة الجماهير وراءهم ، والا فانهم سيصعدون وحدهم ، وسوف تتّسم تجربتهم بالفردية ولا تنعكس بشكل كافٍ على مسيرة الأمة كلها في اطار النظام والفكر الإسلامي .

ومن ثم يلزم القرآن ، هذه الطليعة المؤمنة ، المبدعة ، المتقدمة ، أن تندمج في موكب الجماهير ، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر ، ويحذّرها من الانعزال (الرهباني) السالب في اطار تجربتها الذاتية ، لأن هذا لا يعدو أن يكون تجميداً للطاقات الابداعية وتجريداً للمجتمع من قدراته الخلاقة .. ان هذا التأكيد على لقاء الفرد بالجماعة ، والقيادات بالجماهير ، والقلة المبدعة بالكثرة المتّبعة ، والذي يغطي مساحات واسعة

من معطيات القرآن الكريم يقودنا إلى مسألة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها في نطاق معالجتنا للواقعة التاريخية والقوى التي تصوغها ، تلك هي مسألة الدور الذي يلعبه كل من الفرد والمجتمع ، أو البطل والجمهور ، في عملية الصياغة التاريخية هذه .

* * *

وفي كل المواقف ، وازاء سائر القضايا الأساسية ، يصدر القرآن عن قاعدته الشمولية ، المتوازنة ، المحيطة ، التي لا تغفل ولا تتطرف ولا تهمل ولا تتوتّر ، فتضيع الحقيقة – كما هو الحال في المناهج الوضعية – وسط هذا الاغفال والتطرف والاهمال والتوتر ، لأنها تصدر عن قواعد جزئية ، قلقة ، نسبية .

إننا حيثما تلفتنا ، وجدنا كتاب الله يحدثنا عن الواقعة التاريخية التي يصوغها قطباها الأساسيان : الفرد والجماعة ، البطل والجمهور ، النبي والأمة ، القلة المبدعة والكثرة المتبعة ، لأن هذا هو الذي يحدث فعلاً ، والتفسير المنطقي العادل هو الذي يتحدث من خلال (ما يحدث فعلاً) ! !

ترى .. لو لم يبرز (نابليون) بعد عقدين من قيام الثورة الفرنسية ، أكان يمكن أن يشهد التاريخ الأوربي ذلك الصراع الخطير ، السريع ، المتمخض ، الذي غطى على عقدين آخرين من تاريخها ؟ ! ولو لم تتحرك الجماهير الباريسية أكان يمكن أن تقوم الثورة الفرنسية أساساً ؟ انه حتى أشد المذاهب انكاراً لدور الفرد في صياغة الواقعة التاريخية ، كالمادية الجدلية ، لم تكن لتشهد انتصارها الفعلي في التاريخ ، وقيام الاتحاد السوفيتي أو الصين الشعبية لولا القيادات الذكية ، المخلصة ، البارعة ، التي مكنتها من الانتصار .. لكن هذه القيادات ما كانت لتستطيع المضي في أداء دورها بدون ارادة الجماهير ورغبتها الأساسية في الثورة والتغيير ..

وفي الجهة المقابلة لم تكن الثورة الاميركية التي بعثت الولايات المتحدة إلى الوجود لتنجز أهدافها لولا الجهد المشترك الذي بذلته قياداتها المخلصة وقواعدها الواعية .. وهكذا بالنسبة لأي حدث في تاريخ البشرية حيث نجد هذا التعاضد والتكامل والتقابل بين دوريْ الفرد والجمهور في صياغة الأحداث .

إلا ان الفكر الأوروبي الذي اعتاد التأرجح المتطرف بين أقصى اليمين وأقصى اليسار ما كان له إلا أن يمارس منهجيته الخاطئة هنا أيضاً ، فيبسّط الأمور ، وينطلق من الرؤية (الواحدية) التي تردّ الفعل النهائي في صياغة الوقائع التاريخية إلى الفرد وحده (البطل) ، أو الجماعة وحدها ، (الجماهير) ، سواء عملت في اطار (الطبقة) كما يرى ماركس أو في نطاق (الدولة) القومية كما يرى (هيغل) .. ونحن نجد بين كتاب (البطل في التاريخ) لسدني هوك الاميركي و (المادية التاريخية) لستالين الروسي ، بوناً شاسعاً ، وهوة عميقة ، تفصل بين الفرد والجماعة ، ولا تتيح — على المستوى النظري — أي لقاء بين الطرفين ، رغم انه على المستوى العملي ووفق ما يحدث (فعلاً) لا تجيء الأحداث إلا تمخضاً عن ارادة الطرفين .

إننا نلمح هذا التوازن الواقعي في توزيع مساحات الفعل الذي يصوغ الواقعة التاريخية ، على الفرد والجماعة ، في خطابات القرآن الموجهة للطرفين على السواء (يا أيها الإنسان .. .) (يا أيها الناس ...) (يا أيها الذين آمنوا ..) سواء في التكاليف العقائدية والأخلاقية والتشريعية ... التي أنيطت بهما ، أو في العروض التاريخية التي يبرز فيها دور الأفراد (الأمر الذي يبدو واضحاً في التأكيد على أدوار الأنبياء عليهم السلام) أو دور الجماعات سلباً وايجاباً : الأمم والشعوب والجماعات والقرى التي آثرت الإيمان أو التي ظلت على كفرها .

ان الإنسان (فرداً) يرد في القرآن في حوالي خمسة وستين موضعاً ،

والنفس (المفردة) في حوالي مائة وأربعين موضعاً ، والانفس (جمعاً) في حوالي مائة وستين موضعاً ، والمؤمنون ، بتصريفاتها وضمائرها (جمعاً) في حوالي أربعمائة وسبعين موضعاً ، والأمة في حوالي خمسة وستين موضعاً ، والقرية (كوحدة اجتماعية) في حوالي خمسة وخمسين موضعاً ..

وهكذا .. فحيثما تمعنا في استخدامات القرآن اللغوية المتعلقة بالفرد والجماعة ، على مستوى (التكليف) أو (الإخبار) و (التحذير) ، فاننا سنلتقي بتعابير عديدة تدلنا على الأهمية الكبيرة التي يوليها القرآن للفرد والجماعة على السواء ... اننا بمجرد أن نجري مقارنة شاملة، من خلال العروض القرآنية ، بين أدوار الأنبياء (ع) كأفراد أو أبطال وبين الأمم أو الجماعات التي آمنت بدعوتهم أو وقفت في الخطوط المضادة [٢٨] ، فاننا سنضع أيدينا على الصيغة المتوازنة التي يطرح بها كتاب الله موقف الإنسان فرداً وجماعة من حركة التاريخ وصياغة وقائعه الدائمة .

ان هذا التوازن ليس أمراً مقصوراً على نظرة القرآن التفسيرية لأحداث التاريخ انما هو جزء أساسي في صميم بنيته العقائدية والتشريعية .. وبينما تنحرف المفاهيم الوضعية باتجاه الفردية ، حتى تصل بالفرد إلى مرتبة الألوهية ، تاركة الجماهير تحت رحمة الطغيان الفردي هذا ، أو باتجاه الجماعية ، حيث تصل بالطبقة مرحلة الألوهية ، تاركة الفرد ، كوحدة ذاتية متميزة مستقلة ، تحت رحمة الطغيان الجماعي .. نجد الإسلام يحفظ التوازن ويحميه ، عبر سلسلة طويلة من التوجيهات والتشريعات والآداب والممارسات الأخلاقية التي لا مجال لذكرها هنا بطبيعة الحال .

في التفسير المادي يضيع الفرد ، وتتحول الجماعة إلى مجال حيوي

---

٢٨ أنظر جدول العروض التاريخية في أول هذا الفصل .

لتنفيذ مشيئة التبدلات الديناميكية في عالم المادة ، والتغيرات الدورية في وسائل الانتاج وظروفه ، وفي التفسير المثالي يغدو (البطل) أداة طيّعة يعتمدها العقل الكلي لتمرير صيرورته إلى غايتها ... وتبرز الأمة ، أو القومية ، كصيغة (حقيقية) معبرة عن مشيئة هذا العقل في السلم والحرب ، ويصبح الأفراد ظلالاً باهتة ، غير حقيقية على الاطلاق ..

أما (توينبي) فانه يسعى إلى تعديل هذه الصيغة المتطرفة ومنح القلة القيادية المبدعة دوراً كبيراً في صياغة الأحداث ، اعتماداً على اتباع الأكثريات في الداخل (البروليتارية الداخلية) والخارج (البروليتارية الخارجية) ومحاكاتها لمعطيات هذه القلة .. وهو يبدو في هذا تكراراً لمقولات (ابن خلدون) في (المقدمة) .. ولكن (توينبي) ما يلبث أن يطعم نظريته ، سيما في الأجزاء الأخيرة ، بقيم مسيحية تمنح الإنسان والجماعة يقيناً غير مسؤول بنظرية الخطيئة والخلاص ، وتجرد الفرد ، بشكل أو بآخر ، من مسؤوليته الكاملة في صياغة مصيره من خلال اسهامه في الحدث التاريخي .

أما القرآن فانه يتجاوز هذا كله لكي يعطي الدور لطرفي المسألة ويعلّق المسؤولية الكاملة ، في صياغة الواقعة ، على الإنسان الفرد وعلى الجماعة (وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) [٢٩] . (تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يعملون) [٣٠] . ويطرح - بوضوح كامل - قضية التميّز البشري على مستوى الإنسان الفرد (قل كلٌّ يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو

---

٢٩ الإسراء ١٣ - ١٤ .

٣٠ البقرة ١٤١ .

أهدى سبيلاً) ٣١ . وهو التميّز الذي تقوم به حركة التاريخ،وتتغاير وتتنوّع وقائعه وأحداثه .

* * *

إن مسألة موقف الإسلام من الحرية الإنسانية ، ومن المساحة التي قدّر للانسان ــ فرداً وجماعة ــ أن يتحرك عليها في عملية صياغة الحدث أو الواقعة التاريخية ، تقودنا إلى الدائرة الأوسع ، دائرة (المهمة) التي خلق الإنسان ــ أساساً ــ لممارستها في العالم ، والمركز الذي يحتله في الكون .. وهنا ، بمجرد مقارنة النظرية الإسلامية بسائر النظريات الوضعية ، سيبدو الفرق النوعي شاسعاً بعيداً بين النظرتين .. ان هذه القضية تقودنا ــ بالضرورة ــ إلى القسم الثاني من هذا البحث نظراً لارتباطها الأساسي (بالمسألة الحضارية) .

---

٣١ الإسراء ٨٤ .

الفَصْلُ الثَالث

المَسْألة الحَضَارِيّة

١

تزداد أهمية (المسألة الحضارية) في التفسير التاريخي يوماً بعد يوم ، بحيث انها تغطي مساحة واسعة في أي مذهب للتفسير مهما كانت بنيته ، وتشكل (القاسم المشترك) بين المذاهب جميعاً. وأما في (التفسير الحضاري) لتوينبي فتغدو المسألة سدى مذهبه ولحمته ، وتشكل مضامينه وأُطره . وما من شك في أن الحصيلة النهائية لدور الجماعة التاريخي تقاس بمدى دورها الحضاري، حماية ونقلاً أو ابتكاراً وابداعاً . وتختلف – بعد ذلك – المواقف والاتجاهات .

فابن خلدون – مثلاً – يرى في التحضّر مسألة محتمة تجيء دائماً في أعقاب توطّن العناصر البدوية في الأمصار ، وتجاوزها مرحلة التنقّل والرعي .. وهيغل يراها مسألة دينامية شاملة تنبثق عن صراع النقيضين في عالم الأفكار في تسلسل طويل ينتهي إلى مرحلة تجلّي المتوحّد حين يصل العقل الكلّي قمة تعبيره وكامل انطباقه على حضارة العالم ومؤسساته، ومن خلالهما . وأما ماركس فانه يأخذ عن هيغل دينامية الحركة الحضارية المتولدة عن صراع النقائض الا انه يقصرها في نطاق المادة ووسائل الانتاج و (الظروف) التي تعمل فيها ويرى في هذا المثلث القاعدة التحتية التي تنبثق عنها سائر الفعاليات والمنجزات الحضارية (الفوقية) ، متأثرة بها ، متلوّنة بلونها ، حاملة دماءها ، متكونة بخلاياها ، حتى لو كانت قيماً

خلقية وممارسات دينية ومنازع عاطفية وعلاقات جمالية ... أما **توينبي** المتأثر بسلفه شبنجلر إلى حدّ كبير ، فيراها وليدة مقدرة الجماعة الإنسانية على الاستجابة للتحديات البيئية ، الجغرافية والبشرية ، المحيطة بها ، ويتناسب حجم العطاء الحضاري كماً ونوعاً تناسباً طردياً مع حجم الاستجابة وأمدائها بمقاييس الكم والنوع كذلك .

ما الذي يقوله لنا كتاب الله في هذه المسألة ؟ إن كلمة (حضارة) و (تحضّر) لم تكن شائعة في استعمالات العربية اللغوية أول مرّة ، وطيلة القرون التي أعقبت مرحلة الفتوحات الإسلامية ، ويكاد ابن خلدون أن يكون أوّل من نبّه اليها واستخدمها في (مقدمته) إلا ان اصطلاحه الأثير الذي كان يستغني به معظم الأحيان عن هذه الكلمة هو (العمران البشري) الذي يقابل (الحضارة البشرية) .. ومهما يكن من أمر فان المصطلح الحضاري ، بتصريفاته المختلفة ، قد فرض نفسه في القرن الأخير ، بعد الاحتكاك الثقافي الشامل بين الشرق والغرب وتقدم الأخير في حقول التفسير التاريخي والدراسات الحضارية .. وبدلاً من هذا فاننا سنلتقي من خلال القرآن الكريم بصيغ ومفردات عديدة أخرى تُعتمد للتعبير عن المسألة الحضارية ، لأن القرآن ما جاء إلا لكي يخاطب العرب بلغتهم (الراهنة) ومن خلال مفرداتهم الشائعة .

نستطيع أن نتلمّس البدايات الأولى للمسألة بالرجوع إلى حادثة (خلق آدم) كرّة أخرى، باعتبارها حجر الزاوية في الوجود البشري .. ولكن أليس من حقنا أن نتساءل انه ما دامت الحضارة فعلاً وابداعاً ومجابهة لكتلة العالم الطبيعية ، واستجابة للتحديات الدائمة ، وتهيئة واعماراً وتمهيداً وتطوراً ، وما دامت الواقعة التاريخية، عموماً ، تجيء بأمر الله الذي لا رادّ لأمره وبارادته التي تعلو على الارادات ، فهل لنا أن نرجع بالمسألة إلى ما وراء خلق آدم،إلى سائر العمليات التي أريد بها تهيئة العالم لاستقبال

المخلوق الجديد وإحاطة نشاطاته المختلفة بالضمانات ، بل إلى ما قبل ذلك ، إلى اليوم الذي قال فيه الله للسماوات والأرض (ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا : أتينا طائعين) ؟ إن آدم عليه السلام ، وذريته من بعده ، ما داموا حلقة من حلقات الإبداع الإلهي في الكون فان لنا أن نصل معطياتهم الحضارية بما هو أشمل وأرحب ، وبما يعطيها مساحتها الحقيقية في حركة الكون دونما إفراط أو تفريط ؟

إن التاريخ الحضاري – في القرآن – إذن يمتد إلى ما قبل آدم .. إنه كل فعل تمتزج فيه ارادة الله وروحه وكلمته بالمادة ، فتصوغها كتلاً كونية أو نظماً طبيعية أو خلائق تحمل بصمات الحياة الأولى من نبات أو حيوان .. أو تخلقها بشراً سوياً . ويجيء الإنسان – من ثم – خليفة لله ، كما يؤكد القرآن في أكثر من موضع ، لاعمار الأرض التي (أنزل) اليها وهو يحمل العدة لهذا العمل ، ويمتلك الشروط الأساسية لمجابهة العالم وتحويله وتغييره وتطويره ، سواء مما ركّب الله في ذاته من عقل وروح وارادة وتكييف جسدي فذّ ، ليس المشي على قدمين ، وتحرّر اليدين ، ومطاوعة الأصابع بأقلها خطورة .. أو مما هيأه الله في الأرض وما حولها من امكانيات التعامل الحيوي معها ، والاستمرار في أطرافها ، والتحاور المبدع الخلاق بينها وبين الإنسان الذي جُعل بهذا التمهيد المزدوج لأداء مهمته الحضارية : سيداً للعالمين ، وفُضل على كثير من خلق الله تفضيلاً ؟! .

وما دامت عملية بناء الكون وتهيئة الأرضية الصالحة للحياة على الأرض ، قد سبقت خلق آدم بأزمان لا يعلمها إلا الله ، وما دامت المقاييس الآدمية تجيء دائماً نسبية قاصرة محدودة إزاء خلق الله ، فليس لنا أن نطمح للإحاطة الكاملة والتفسير الشامل لقضية (التكوين) هذه ، وليس لنا – كذلك – أن نفترض نظريات لا جدوى من ورائها .. إن هذا فوق

طاقتنا ، وإن أية محاولة في سبيله لا تعدو أن تكون عبثاً (ميتافيزيقياً) يذكّرنا بما كان يفعل جل الفلاسفة اليونانيين ، والاسلاميين المتأثرين بهم ، والذين أفنوا أعمارهم في هذا السبيل . وهذا لا يعني أبداً التشكيك بالمحاولات العلمية – التجريبية لدراسة الجانب الطبيعي القائم (فعلاً) من الكون والسعي للكشف عن قوانين بنيانه المحكم ، لأن هذا هو الموقف الذي يدعو له القرآن في عشرات الآيات .. انما القصد هو الجانب الفلسفي التصوّري لبدايات الخلق والبحث عن (العلّة) و (المعلول) و (متناهي الأول) ... إلى آخره .. وكل ما يبيّنه القرآن عن امتداد عملية الخلق هذه في عصورنا التاريخية الراهنة والمقبلة ، أن الكون ماضٍ في حركته الدايناميكية نحو الاتساع الدائم بارادة الله (والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون) [1] ، وأن هذه الهدفيّة على المستوى الكوني ، الكليّ وهذه الحركة صوب الاتساع ، لا بدّ وأن تنعكس في التصور الإسلامي ، على حركة التاريخ البشري نفسه ، ومصير الإنسان في العالم ، قبل أن يجيء اليوم الذي أعلن عنه القرآن مراراً ، حيث تطوى السماوات كطيّ السجلّ للكتاب ، وتكفّ الحياة والتاريخ البشري عن (الاستمرار) تمهيداً ليوم الحساب ، وتبدأ صفحة جديدة في تاريخ الخلق الإلهي الدائم (كما بدأنا أول خلقٍ نعيده ، وعداً علينا إنا كنا فاعلين) [2] .

اننا ، حيثما تنقلنا في أرجاء القرآن الفسيحة لمطالعة الآيات والمقاطع الخاصة بخلق الكون وتهيئة الظروف الصالحة للحياة على الأرض ، وتمعنّا فيها ، وجدناها ترتبط ارتباطاً عضوياً أصيلاً بالدور المنتظر الذي بعث الإنسان لكي يلعبه ، وبالقصد والجدوى والنظام والاعمار والغاية التي بعث

---

١ الذاريات ٤٧ .

٢ الأنبياء ١٠٤ .

من أجلها ، وهي كلها قواعد أساسية لأي نشاط حضاري فعّال هادف منظم متطور على الأرض :

(وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ، ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) [٣] .

(ان ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، يدبّر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه ، ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ؟ اليه مرجعكم جميعاً ، وعد الله حقاً ، انه يبدأ الخلق ثم يعيده ، ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون . هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصّل الآيات لقوم يعلمون) [٤] .

(وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً) [٥] .

(هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم) [٦] .

(الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش وسخّر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ...) [٧] .

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ

---

٣ هود ٧ .
٤ يونس ٣ — ٥ .
٥ الاسراء ١٢ .
٦ البقرة ٢٩ .
٧ الرعد ٢ .

لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون . وله من في السماوات والأرض ، ومن عنده ، لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبّحون الليل والنهار لا يفترون) [8] .

(الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، ما لكم من دونه من وليّ ولا شفيع أفلا تتذكرون؟ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون . ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين) [9] .

(هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير) [10] .

(قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا : أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى إلى كل سماء أمرها ، وزينّا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم) [11] .

(الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور) [12] .

---

٨ الأنبياء ١٦ – ٢٠ .
٩ السجدة ٤ – ٧ .
١٠ الحديد ٤ .
١١ فصلت ٩ – ١٢ .
١٢ الملك ٢ .

(أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟) [١٣] .

(والعصر . ان الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) [١٤] .

فنحن – من خلال هذه الآيات وغيرها كثير – ازاء تجربة اختبار وابتلاء ، تتطلب منا أفراداً وجماعات ، عملاً وإبداعاً .. ولكن أي عمل وابداع يتوجبان على الإنسان في الفرصة التي ستنتهي إلى (أجلها المسمى) ؟ انه ليس ارتجالاً كيفياً ، ولا مواقف جزئية مفككة ، كما انه ليس فوضى لا يحدّها نظام ولا يسلكها هدف .. انما العمل والإبداع اللذين ينبثقان عن تخطيط مرسوم ، وينطلقان من مواقف كلية شاملة ، ويصدران عن نظام مبرمج يهدف إلى غاية دينامية لا حدود لها أبداً تلك هي (عبادة الله) .

إن (عبادة الله) وحده ، بالمفهوم الإبداعي الشامل الذي سنتحدث عنه عما قليل ، هي الهدف الذي يتوجب على الإنسان ، فرداً وجماعة ، أن يصّعد اليه كافة أوجه نشاطاته الحضارية .. وبينما ترسم المذاهب الوضعية – هي الأخرى – أهدافاً لحركتها الحضارية ، تتميز حيناً بالغموض والمثالية كما هو الحال عند هيغل ، وتتميز حيناً آخر بالتحديدات الصارمة والمادية كما هو الحال عند ماركس وانكلز ، وتتميز حيناً ثالثاً بصبغة مسيحية باهتة ، غير مبررة عقلياً ، كما هو الحال عند توينبي .. الأمر الذي قاد الأول – وهو يتحدث عن تجلّي المتوحد من خلال (الدولة) – إلى أن يعطيها كافة المبررات الفلسفية لممارسة سياستها العدوانية التي قد تقود ولا ريب إلى الدمار الحضاري والظلم البشري ، وقاد الثاني إلى اعلان دكتاتورية الطبقة العاملة كهدف للحركة التاريخية ، وتبرير أي

---

١٣ القيامة ٣٦ .
١٤ العصر ١ – ٣ .

أسلوب تعتمده لتحقيق هدفها ما دامت لا تعدو أن تكون منفذة أمينة لمنطق التبدل في وسائل الانتاج ، الأمر الذي قادها — ويقودها — إلى تنفيذ المجازر الجماعية تجاه كافة القوى المعارضة والتي لا تنسجم وبداهات التحضّر البشري الحرّ .. وقاد الثالث ، وهو بصدد حقن الحضارة الغربية المعاصرة بالأمل ، إلى عملية ترقيع غير منطقية بين القيم الروحية المسيحية وبين بعض معطيات الديانات العالمية الكبرى كاليهودية والبوذية والإسلام فيما سماه (الديانة الرباعية الجامعة) .. الأمر الذي يتناقض أساساً مع طبيعة التجربة (الدينية) القائمة على التلقّي عن المصدر الواحد والتوجّه المتوحد صوب هذا المصدر دون سواه، وفق عقيدة تتميز بالوحدة والترابط .

ثم ماذا بعد هذه الأهداف التي تؤكد المذاهب الوضعية انها آتية لا ريب فيها ؟ وهي في تأكيدها هذا تقع في التناقض الصريح مع (الدايناميه) التي أقرتها كأساس لحركة التاريخ البشري ونموّ الحضارات ؟ ماذا بعد دكتاتورية الطبقة العاملة وتجلّي المتوحّد ؟ إن التجربة البشرية أوسع دائماً ، وأغنى ، وأشمل ، من أن تحصرها حدود طبقية تقوم على فرض التشابه الجماعي بالقسْر ،ومجابهة كل تفرد أو تميز انساني ، ولا يعدو مصيرها في نهاية الأمر أن يكون انشاء مجتمعات لا تزيد في نشاطاتها ومعطياتها عما نشهده في عوالم النحل والنمل من نظم هندسية صارمة دقيقة ، وعمل دائب ، وانتاج متزايد .. أو أن تحصر هذه التجربة البشرية الواسعة الغنية المعقدة المتنوعة الشاملة ، دولة عالمية يتجلى فيها المتوحد الهيكلي ، ويسوسها عرق ممتاز ، مبررة سلفاً كل ممارساته العدوانية ونزعاته الشوفينية .

بينما ترسم المذاهب الوضعية أهدافاً كهذه تتميز بالغموض أو الطغيان أو التناقض أو الانغلاق ، نجد القرآن الكريم يعلن هدفه الواضح المتوحّد المفتوح الذي يستقطب حوله كافة الفاعليات والمعطيات : عبادة الله ، والتلقي عنه ، والتوجه اليه .. ويطلب من القوى المؤمنة أن تتحرك على

مدار التاريخ ، وفق كل الأساليب الإنسانية الشريفة الممكنة ، لتجميع البشرية حول هذا الهدف الكبير (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله) [١٥] .. ولكي تتوحد في ممارساتها ومعطياتها وعلائقها جميعاً مع النواميس الكونية الشاملة والنظام الإلهي الملزم في مداه البعيد ، والذي ما منح هذا القدر من الحرية للانسان، لا لكي يعتمدها باختياره ، في التساوق مع هذا النظام والاندماج في المجرى العام لخلائق الله جميعاً ، تميزاً له — بهذه الحرية التي تنبثق عن دوره كخليفة ، ومكانته كسيد للعالمين — عن سائر خلق الله .. وفرق شاسع ، على كل المستويات الذاتية والاجتماعية والحضارية ، في النتائج المتمخضة عن نشاط يبذله الإنسان وهو متساوق مع نواميس الكون ، متناغم مع مسيره ومصيره ، أو وهو منشقّ على هذه النواميس ، متنافرٌ معها بدءاً ومصيراً ..

والواقع ان الإنسان — فرداً وجماعة — ينسى في معظم الأحيان ان دائرة حريته محدودة فيما يقدمه من أفعال ، وما يتخذه من مواقف ويلتزمه من أهداف ، وانه فيما وراء ذلك ، محكوم بسنن ونواميس الهية تفوق طاقاته وقدراته جميعاً ، وبدونها لا يمضي حق وعدل ، ولا يستقيم نظام كوني ولا وجود بشري ، ولا تتحقق حكمة الله سبحانه من تسيير الكون والخلائق جميعاً وفق طرائق محددة منضبطة تؤول بهم جميعاً إلى الأهداف التي رسمها علم الله المطلق ، ودفعتهم اليها ارادته التي لا رادّ لها .... والآيات التالية تعرض علينا المسألة في أبعادها المتكاملة ومن زواياها المختلفة :

(ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ...) [١٦] .

---

١٥ البقرة ١٩٣ .

١٦ الرعد ١٥ .

(وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق) [17] .

(ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة ، والملائكة ، وهم لا يستكبرون) [18] .

(وله ما في السماوات والأرض ، وله الدين واصباً ، أفغير الله تتقون ؟) [19]

(تسبح له السماوات والأرض ، ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً) [20] .

(ألم تر ان الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس حق عليه العذاب ...) [21] .

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار) [22] .

(أولم يتفكروا في أنفسهم ، ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ، وان كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون) [23] .

(ان الله خالق كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل . له مقاليد السماوات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون) [24] .

(وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . وما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) [25] .

---

١٧ الحجر ٨٥ وانظر النحل ٣ ، العنكبوت ٤٤ الزمر ٥ .

١٨ النحل ٤٩ .

١٩ النحل ٥٢ .

٢٠ الاسراء

٢١ الحج ١٨ وانظر النور ٤١ – ٤٢

٢٢ ص ٢٧ .

٢٣ الروم ٨ وانظر الأحقاف ٣ .

٢٤ الزمر ٦٢ – ٦٣ .

٢٥ الدخان ٣٨ – ٣٩ .

(وخلق السماوات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) [٢٦] .

(وله من في السماوات والأرض كل له قانتون) [٢٧] .

(بل جاءهم بالحق ، وأكثرهم للحق كارهون . ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن ، بل اتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) [٢٨] .

ولو تمعنا قليلاً في موقفنا عبر الكون لرأينا أننا مجبرون — بالحق والعدل والنواميس ، وباعتبارنا جزءاً من خليقة الله ، شئنا أم أبينا — في مساحات واسعة حاسمة من وجودنا : اننا مجبرون على أن نولد ومجبرون على أن نموت .. اننا مجبرون على أن نبعث وأن نحاسب على أعمالنا ، وأن نساق إلى جنة أو إلى نار وفق هذا الحساب العادل المحفّز .. اننا مجبرون على أن ننتمي إلى هذا الاقليم أو ذاك ، وإلى هذه القبيلة أو تلك الأمة، وإلى هذا الجنس أو ذاك ، وإلى هذا اللون أو ذاك .. مجبرون كذلك على أن نخضع لمتطلبات حياتنا البيولوجية والحسيّة ، وعلى أن نتقلب في تجاربنا النفسية بين الحزن والفرح والغم والانشراح ، والخوف والطمأنينة ، والتمزق والتوحد .. وفوق هذا وذاك فاننا مجبرون على حمل ملامحنا الشخصية المتفردة ، وسماتنا الخاصة ، وبصمات أصابعنا .. وبدون هذه الالتزامات الحتمية تتبدد الحياة وتفقد وحدتها وتماسكها ومعناها .. بدون هذا (الجبر) تضيع البشرية ، ويحدث التناقض في النواميس ، وتختفي قيم الحق والعدل الأزلية ..

والمساحة المتبقية لممارسة حريتنا انما منحت لنا لتمييزنا عن سائر خلق

---

٢٦ الدخان ٢٢ .
٢٧ الروم ٢٦ .
٢٨ المؤمنون ٧١ .

الله وتفضيلنا على العالمين .. ان هذه المساحة تمتد هي الأخرى إلى أمداء واسعة : الموقف الذي نتخذه من العالم..الأعمال و الأهداف والمعطيات التي نقدمها في الحياة .. هذه الحرية التي تقف بالإنسان والأمم والشعوب والحضارات على مفترق طريقين : فإما أن تكون مواقفنا وأعمالنا وأهدافنا منسجمة مع نواميس الكون وسنن الحياة ، متوافقة معها ، مما يترتب عليها انجاز حضاري أغنى ، وتوحد بشري أشمل ، وسعادة نفسية أكثر عمقاً ، ومصير في الأرض والسماء أشد توافقاً مع مهمة الوجود البشري في الأرض .. وهذا ما سعت الأديان لتحقيقه في العالم ، وما يسعى الإسلام ، وسيظل ، من أجل تحويل البشرية كلها اليه (حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) ..

وإما أن تجيء هذه المواقف والأعمال والأهداف منشقة ، بالقدر الذي منحت فيه اختيارها بطبيعة الحال ، عن نواميس الكون وسنن الحياة ، مرتطمة بها،الأمر الذي يترتب عليه انجاز حضاري متفكك ، وتمزق بشري شامل ، وشقاء نفسي عميق ، ومصير سيىء في الدنيا والآخرة ، يندّ عن طبيعة الدور الذي بعث الإنسان إلى العالم لأدائه ، ويجيء مكافئاً لعصيانه وتمرده ورفضه أداء المهمة.. وهذا ما سعت المذاهب الوضعية ، وتسعى، لتحقيقه في العالم وتحويل البشرية كلها اليه .

ومن ثم فان القرآن ، في تفسيره لأدوار الأمم والشعوب والحضارات ، انما يتخذ ، هذا المقياس الكوني المصيري الحاسم في تحديد مدى توافق التجربة البشرية مع النواميس أو ارتطامها بها ، ويدعونا إلى مواقع الانسجام والتوافق ، نافخاً فينا روح العمل والإبداع ، مستقطباً ممارساتنا ومعطياتنا في الهدف الواحد الشامل الذي أعلنه الله سبحانه (وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون) . ولا بدّ أن نقف هنا لتلمّس الملامح الأساسية الشاملة لمفهوم التعبّد في الإسلام .

إن القرآن يؤكد ، هنا وفي أماكن أخرى ، ان الله سبحانه ما خلق (معشر الجن والإنس) إلا (ليعبدوه) ، وليس مفهوم العبادة هنا ، مساحة ضيّقة لا تتجاوز دائرة (الشعائرية) و (الاتصال الروحي) بالله . . انه تجربة حياة كاملة يتوازن فيها الأخذ والعطاء ، وتغدو أشبه بالبرنامج الشامل الذي ينظم فاعليات الجماعة البشرية في الأرض ، ويمنحها معنى ، ويسير بها إلى هدف واضح مرسوم .. انه يمنح التجربة الحضارية طابعها الخاص ، ويعطيها الدافع والمبرّر ، وينفخ فيها روح الابداع ، والابتكار والتطور الدائم الفعال .. كما انه يتجاوز بها السفوح الدنيا للنشاط البشري ، إلى القمم التي تليق بمكانة البشرية في ساحة العالم .. وبهذا تُسقط ، ابتداءً ، كافة السلبيات التي يمكن أن تعلق بأي نشاط حضاري لا يعتمد برنامجاً شاملاً ، أو لا يسعى إلى هدف واضح ، ولا يلتزم أخلاقية الإنسان في حواره مع خالقه .

وتبرز من بين هذه السلبيات مسألتا (العبث) و (اللاجدوى) اللتان تسيطران على مساحات واسعة من أنشطتنا الحضارية المعاصرة على مستوى الواقع والفكر [٢٩] . ،في وقت تنتفيان فيه أساساً ، من خلال الموقف القرآني ، الذي يبين لنا مراراً ان خلق السماوات والأرض ما جاء عبثاً ، وان سعي الإنسان في العالم ليس أمراً محكوماً باللاجدوى :

(أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون ؟) [٣٠] .

(أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟) [٣١] .

(وأن ليس للانسان إلا ما سعى . وان سعيه سوف يرى . ثم يجزاه

---

٢٩ أنظر مقالي (الإنسان والكون في المسرح الغربي المعاصر) للمؤلف ،(مجلة حضارة الإسلام) ، عدد ٨ سنة ١٣ وعدد ٥ سنة ١٤ .

٣٠ المؤمنون ١١٥ . ٣١ القيامة ٣٦ .

الجزاء الأوفى) [٣٢] .

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون) [٣٣] .

ويعلن ان وراء هذا النشاط والجهد البشري غايات أساسية يتمحور حولها وتنشدّ جميعاً إلى غاية الغايات ، والمركز الذي تتجه اليه الخلائق جميعاً في نشاطاتها المختلفة لتحقق به وجودها وتجد مصيرها .. تلك هي عبادة الله والتلقي عنه والتوجه إليه .

« إن ثمة ظاهرة أساسية يتميز بها النشاط التعبّدي في الإسلام ، ذلك انه لا يقتصر على فترات مقتطعة من الزمن ، أو أماكن محدّدة من العالم ، وإنما ينساح لكي يشمل كل الأماكن والأزمان . ليس هذا فحسب بل انه في جوهره تذكّر للوجود الإلهي في الكون ، وادراك لأبعاده الشاملة : قدرة وارادة وإحاطة ورقابة وعلماً .. واتصال دائم بالله سبحانه في كل ما يصدر عن الإنسان من أفعال ظاهرة مرئية ، أو ارادات لم تتشكل في أفعالها بعد ، أو نيّات وخواطر وتأملات وهواجس تدور في أعماق النفس .. وتقدير لعظمة الله الذي خلق الكون والحياة والإنسان على أروع وأدق نظام .. واعتراف بالجميل للخلاق المبدع الذي هيّأ للبشرية ظروفاً تمكنها في كل وقت من تحقيق السعادة الكاملة في الأرض والسماء ... ان التعبّد — بهذا المعنى — يمتد إلى كل مساحات الحياة البشرية الظاهرة والخفية ، الخاصة والعامة ، الفردية والجماعية ، المادية والروحية ، تماماً كما تمتد الدماء وتسري في أوصال الجسد البشري وخلاياه .

« وتنبثق عن هذه الحقيقة ضرورة التفريق بين هذه القاعدة التعبدية

---

٣٢ النجم ٣٩ — ٤١ .

٣٣ الأنبياء ١٦ — ١٨ .

الشاملة ، وبين بعض صور العبادة التي حدّدها الإسلام على شكل شعائر وطقوس ذات أشكال ومضامين معينة كالصلاة والصيام والحج والزكاة .. ففي الحالة الأولى يبدو ان كل ممارسة ، باطنية كانت أم ظاهرية ، يمكن أن تكون تعبّداً إذا كمنت وراءها نيّة مؤمنة تسعى إلى أن تجعل من كل فاعلية في الحياة وسيلة يتقرب بها الإنسان من الله ، ويتعبّد اليه ، ويتذكر وجوده الشامل القادر المريد .. هذه القاعدة الشاملة التي تضم ، فيما تضمّ ، الشعائر الإسلامية الخمس نفسها مضافاً اليها كل الفاعليات الأخرى ، ابتداء من أشدها مادية وكثافة (كالتجربة الجنسية وتجارب الطعام والشراب) وانتهاء بسهر الليالي الطوال تقرباً إلى الله وتأملاً في ملكه .

« والحق أن من الصعوبة بمكان الفصل بين الشعائر الإسلامية وبين القاعدة التعبدية نظراً للارتباط الدقيق بينهما ، فضلاً عن أن هذه الشعائر نفسها لا تنصب على الجانب الروحي ، التأملي ، فحسب ، بل تنساح إلى كل جوانب النشاط الإنساني الحركي : جسداً وعاطفة وروحاً وعقلاً وفسلجة ووجداناً . إلا أنه لا بد من هذا التفريق لغرض ايضاح الحقيقة الأساسية في بنية الإسلام الذي يرسم لأتباعه برنامجاً عملياً للصعود والترقّي ينتهي بأبعد آفاقه في تلك اللحظات التي يتوحد الإنسان فيها مع ذاته وعقيدته ، ويغدو تعبيراً حيّاً عنها ، بحيث انه لا يمارس عملاً الا وهو يستشعر ، خلال تلك الممارسة، الوجود الإلهي المحيط المريد، وحينذاك يكون المسلم قد حقق أقصى درجات اسلاميته وهي (الاحسان) ويكون (الإسلام) قد أدى دوره الكامل !! .

» ولا ريب ان سؤالاً يتبادر إلى الأذهان في هذا المجال ، وهو انه إذا كانت الأرضية التي تقوم عليها العبادة الإسلامية تمتد وتشمل هذه المساحة الواسعة من حياة الإنسان ، فلماذا أضاف الإسلام اليها شعائر يومية وموسمية محددة تتمثل بصيام أو حج أو زكاة .. وأوجب على المسلمين

الالتزام بها ، واعتبر التخلي عنها حدّاً بين الكفر والإيمان ؟ والجواب يجيء سريعاً في ان الإسلام جاء لكي (يضبط) و (يحدّد) و (ينظم) انطلاقاً من ايجابيته وواقعيته في تحديد الأشياء والعلاقات والقيم ، ذلك ان ترك الإنسان حرّاً في ممارسة تعبّده لا يضمن أساساً قيام هذا التعبد لدى بعض المتمين واستمراره لدى بعضهم الآخر ، فلا بد إذن من وضع حدّ أدنى (ملزم) يكون بمثابة قاعدة يمكن أن يبنى فوقها المزيد من النشاطات التعبدية التي تصل بالمسلم (اختياراً) ، وعلى حسب المقدرة ، إلى درجة الاحسان وإلى تحويل الحياة كلها إلى ساحة للتعبّد والتذكّر ! ! »[٣٤]

قد يسأل سائل : « إذا كان هدف الإنسان في الكون هو أن يعبد الله – كما يؤكد القرآن الكريم – أفلا يعني هذا ان الإنسان مغبون إذ قدّر عليه أن يقف في موضع يطلب منه فيه العطاء فحسب ، دونما أي قدر من (الأخذ) ؟ والجواب (كلاّ) لأن العبادة في الإسلام – كما مر بنا – هي التجربة الحياتية الكبرى القائمة على توازن فذّ عجيب بين الأخذ والعطاء ، والإنسان يبلغ قمة انسانيته عندما يصل تلك النقطة التي يحقّق فيها ذلك التوازن ، حيث نجده يبلغ أقصى درجات الانسجام ، والتوحد الباطني ، والحيوية الحسيّة ، والنشاط الروحي ، والتفتح العقلي ، والحركة الحسدية ، لأن الله سبحانه ، وهو أدرى بخلقه ، جعل عبادته التي هي هدف الخليقة جميعاً ، مفتاح هذا المصير الذي يطمح اليه كل انسان ، وأي انسان في الأرض لا يطمح لان يكون متوحداً ، منسجماً ، حيوياً ، نشيطاً وحركياً ؟! .

« ان العبادة في الإسلام لا تعني – كما هو الحال في كثير من الأديان والعقائد – حواراً جزئياً مع الله سبحانه ، في ساعات معينة من الليل أو

---

٣٤ عن الملامح الأساسية للعبادة الإسلامية أنظر بالتفصيل بحثاً للمؤلف في مجلة الوعي الإسلامي ، سنة ٩ (١٩٧٣) .

النهار ، حواراً يعبر عن نفسه باداء حركات محددة ، واستعادة تعابير وصلوات مكتوبة سلفاً ، وهدوءاً جسدياً موقوتاً بزمن هذا الحوار . وما ان تم هذه العبادة الجزئية ، أو الصلاة التي لا تعدو أن تكون (صلة وقتية) ، تسودها الآلية والكسل الروحي في معظم الأحيان ، حتى ينقلب الإنسان إلى تيّـار الحياة الهادر الصاخب لكي (يحرّك) مكوناته التي جمدتها لحظات الصلاة !! ولكي ينطلق متعاملاً مع الآخرين بشخصيته الثانية ، الشخصية الدنيوية العملية الحركية . اما في الإسلام فان كل فاعليات الإنسان تبدو عبادة لله ، ما دام ذلك الإنسان قد وضع الله نصب عينيه !! .. وكلما كان الله سبحانه أكثر تجلياً للانسان خلال احدى ممارساته ، كلما جاءت تلك (الممارسة) أكثر انسجاماً مع مفهوم العبادة الشامل العميق . وهذا التجلّي ، أو (الاحسان) بلغة الرسول (ص)، لا يتحقق الا بالصبر والمران والدأب ، لكي ما يلبث أن تجيء ثماره حلوة كالرحيق المختوم .. هنالك حيث تتوازن تجربتا الأخذ والعطاء » [٣٥] .

---

٣٥ أنظر مقال (الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي) للمؤلف (مجلة الرسالة الإسلامية الأعداد ٥٠ – ٥٥) .

٢

ان موقف القرآن الكريم من المسألة الحضارية في جانبها الإنساني يبدأ بخلق آدم ، وفي الظروف والدلالات والرموز والارهاصات التي رافقته وأعقبته (وإذ قال ربك اني جاعلٌ في الأرض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : اني أعلم ما لا تعلمون . وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ؟ قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم اني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم مني هدى ، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار

هم فيها خالدون) [1] .

تلك هي الخطوط العريضة ، الواضحة ، لمسألة الوجود البشري في العالم ... الصورة المتماسكة البيّنة التي تساقطت عندها قرناً بعد قرن عشرات المحاولات التفسيرية التي تطرفت باتجاه الخيال اليهودي (الاسرائيليات) أو التبرير العقلي المتوتّر .. وبقيت الصورة القرآنية الخالدة على وضوحها وبيانها . اننا — من خلال هذا العرض المركز — نلتقي بقواعد أساسية ومبادىء كلية ، تتجاوز الجزئيات والتفاصيل وتُلقي ضوءها الشامل على كل ما يهمنا في المسألة الحضارية من خلال الموقف القرآني : خلافة الإنسان عن الله في الأرض ومنحه القدرة على التعلم والفعل والاستيعاب ، وتكريمه الأقصى بسجود الملائكة له ... مجابهته بابليس وبدء (الصراع) بين الطرفين (والهبوط) الزمني (الموقوت) إلى الأرض كأول تجربة من تجارب هذا الصراع ..... (تعليق) الدور البشري في الأرض على تلقّي (الهدى) من الله وحده ، وتحديد المصير الذي سيؤول اليه موقف الإنسان (الحرّ) ازاء هذا الهدى في الأرض والسماء .

تلك هي المبادى الكبرى الأساسية التي يقدمها لنا هذا المقطع القرآني الخطير والتي تعيننا على تفهم الموقف الإسلامي من المسألة الحضارية بأبعادها الشاملة وهي مبادىء تملك من الوضوح والصلابة والاستمرارية والتماسك ما تبدو ازاءه — غامضة مفككة مضطربة — كل محاولات التفسير الوضعي لنشأة التاريخ البشري وبدء الخليقة وأصول الحضارات .. لأنها تكل أمر هذه اللحظة الفاصلة للصدفة العمياء ، أو تطور وسائل الانتاج المادية في الخارج ، أو محاولة العقل الكلي ، الغامض غير المحدّد ، لأن يعبر عن نفسه من خلال العالم ويقطع الطريق الطويل من أجل التجلّي ! ! أو رغبة

---

١ البقرة ٣٠ — ٣٩ .

الطبيعة في تنشئة خلائقها وترقيتهم عن طريق منحهم – غير المحدّد والمبرر – لحياة لا تمتلكها هي نفسها ، الأمر الذي يشكل تناقضاً فاضحاً ازاء تحديد مصدر هذه الحياة . . ولنبدأ من ثم بتحليل هذه المبادىء القرآنية من خلال آيات ومقاطع أخرى نلتقي بها في القرآن الكريم نفسه .

* * *

لقد أراد الله للانسان أن يكون خليفته في الأرض ، فمنحه القدرة العقلية على التعلم، والمقدرة الجسدية على التنفيذ والعمل والابداع ، والارادة (الحرة) لاختيار أسلوب الحياة التي يقوده اليها فكره ودوافعه النفسية والجسدية . . ولكي لا يحسّ الإنسان (بالدونية) ولا تدور في خاطره أية فكرة عن (سلبية) دوره في العالم ، رفعت مكانته إلى أعلى مصاف وطلب من الملائكة أن يسجدوا له . . وتلك هي أسس تقود ولا ريب إلى تصور دور الإنسان في العالم كقوة فاعلة ، مفكرة ، مريدة ، منفذة ، مستقلة ، مفضلة ، .. الأمور التي لا بد منها لأي ابداع حضاري على الأرض . فاذا ما أضفنا إلى هذا ما سبق وان أشرنا اليه من أن العالم قد مُهد تمهيداً للدور البشري على أرضيته ، وما سنشير اليه فيما بعد من أبعاد (الصراع) التي لا بدّ منها (للحركة التاريخية) ومن خطورة التعاليم التي كانت تتنزل حيناً بعد حين لكي (تضبط) و (تنظم) حركة الإنسان في الأرض،أدركنا كم هي عميقة شاملة متكاملة الأسس التي منحت للبشرية لكي تعتمدها في ممارسة خلافتها العمرانية ، أو الحضارية في العالم .

ان مسألة (الاستخلاف) تتكرر أكثر من مرة في القرآن الكريم : (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ، فمن كفر فعليه كفره ، ولا

يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً) [٢] .

(هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم) [٣] .

(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) [٤] .

(قال : عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) [٥] .

(ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) [٦] .

(فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك ، وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) [٧] .

(ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله ؟ قليلاً ما تذكرون) [٨] .

(وعد الله الذين آمنوا منكم ، وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) [٩] .

ومسألة الاستخلاف تبدو خلال هذه الآيات مرتبطة بالخيط الطويل العادل من طرفيه : العمل والابداع ومجانبة الافساد في الأرض ، وتلقّي القيم والتعاليم والشرائع عن الله والالتزام الكامل بها خلال ممارسة الجهد

---

٢ فاطر ٣٩ .
٣ الأنعام ١٦٥ .
٤ الأعراف ٦٩ .
٥ الأعراف ١٢٩ .
٦ يونس ١٤ .
٧ يونس ٧٣ .
٨ النحل ٦٢ .
٩ النور ٥٥ .

البشري في العالم . . والعلاقة بين هذين الطرفين علاقة أساسية متبادلة ، بحيث ان افتقاد أي منهما سيؤول إلى الخراب والضياع في الدنيا والآخرة ، ويقود إلى عملية استبدال للجماعة البشرية بغيرها ممن تقدر على الامساك بالخيط من طرفيه : العمل والجهد والابداع ، والتلقي الدائم عن الله لضبط وتوجيه هذا العمل والجهد والابداع في مسالكه الصحيحة التي تجعل الانسان يقف دائماً بمواجهة خالقه كخليفة مفوّض عنه لإعمار العالم : (قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو الذي أنشأكم في الأرض واستعمركم فيها) [10] .

ويبلغ من تأكيد القرآن على العمل والجهد البشري لاعمار العالم، على عين الله وتوجيهه ، أن ترد اللفظة بتصريفاتها المختلفة فيما يزيد على الثلاثمائة والخمسين موضعاً ، وهي كلها تشير — سلباً وإيجاباً — إلى ان المحور الأساسي لوجود الإنسان — فرداً وجماعة — على الأرض هو العمل الذي يتخذ مقياساً عادلاً لتحديد المصير في الدنيا والآخرة ، وهو (موقف) ينسجم تماماً مع فكرتيْ (الاستخلاف) و (الاستعمار) الأرضي ... إن القرآن الكريم يحدثنا ان مسألة خلق الموت والحياة أساساً إنما جاءت لابتلاء بني آدم ، أيهم أحسن عملاً ؟ (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور) [11] . كما يحدثنا في سورة العصر ان موقف الإنسان في العالم سيؤول إلى الخسران بمجرد افتقاد شرطيه الأساسين (الإيمان ، والعمل الصالح) . . ويصدر أمره الحاسم إلى الأمة المسلمة أن تلتزم دورها الايجابي الفعال في قلب العالم (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك

---

١٠ هود ٦١ .
١١ الملك ٢ .

لهم عذاب عظيم) [١٢] . وفي مكان آخر يصف هذه الأمة بأنها (خير أمة أُخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) [١٣] .

وفي مقابل هذا يندد القرآن بكل عمل أو نشاط خاطىء من شأنه أن يؤول إلى الفساد في الأرض وإلى هدم وتدمير المكتسبات التي يصنعها العمل الصالح بالصبر والدأب والمثابرة . . وهو من موقفه هذا يسعى إلى حماية منجزات الإنسان الحضارية ووقف كل ما يعوق مسيرتهـا ونموّها ، وملاحقة أية محاولة لانزال الدمار بها من الداخل تحت أي شعار كانت .. وهذه الحماية الحضارية لا تنصبّ – كما هو الحال في كثير من التجارب الوضعية – على الجوانب المادية من الانجاز البشري ، والتي يصطلح عليها أحياناً باسم (المدنية) تلك التي تواصل تصاعدها الدائم ، كمّاً ونوعاً ، بغض النظر عن منحنيات الموقف الحضاري بمفهومه الإنساني الشامل ، لأن القاعدة التي يتحرك عليها هذا التصاعد ، مادية صرفة ، تسعى إلى تجميع كافة المنجزات البشرية في هذه الدائرة وتسليمها للأمة الأنشط والأقوى لمواصلة تصعيدها ، الأمر الذي يجعلنا نعود فنربط نموّها ، لا ديمومتها ، بالموقف الحضاري الشامل الذي تتخذه أمة من الأمم على كل المستويات ...

إن هذا مسألة ثانوية وهو يجيء دائماً في المرتبة التالية وأحياناً كنتيجة لقاعدة تسبقه وتفوقه أهمية تلك هي المنجزات الفكرية والأخلاقية والروحية والنفسية بمفهومها الإنساني الشامل من أجل الصمود في المواقع التي بلغها الإنسان وهو يواصل طريقه لإعمار العالم ، عبر سلسلة طويلة من كفاح مبعوثي الله إلى بني آدم ، ومن أجل ألا تصاب – هذه المنجزات (الأساسية)–

---

١٢ آل عمران ١٠٤ – ١٠٥ .

١٣ آل عمران ١١٠ .

بنكسة أو كارثة ترجع بحركة التاريخ البشري إلى الوراء ، وفقاً للمقاييس الإنسانية . ومهما بقي التقدم المادي الصرف على صعوده وغناه ...

إلا ان هذا لا يعني أبداً أن أي موقف (سلبي) ازاء حماية الانجاز المادي من الدمار يمكن أن يقرّه القرآن .. لأن الاصلاح والاعمار المنوطين بالاستخلاف مسائل تتداخل فيها كل الفاعليات الحضارية مادية وأخلاقية وروحية ، وان أي ضرر أو إفساد يلحق باحدها ينعكس — بشكل أو بآخر -- على الجوانب الأخرى ، وهذا واضح بيّن في أكثر من آية (ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها ..)[14] . (قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بيّنة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، ذلك خير إن كنتم مؤمنين)[15] .

(... وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين)[16] .

(ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون)[17] .

(أفمن أسّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خيرٌ أم من أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهدي القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم)[18] .

(والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأ ض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار)[19] .

---

١٤ الأعراف ٥٦ .
١٥ الأعراف ٨٥ .
١٦ الأعراف ١٨٢ .
١٧ الروم ٤١ .
١٨ التوبة ١٠٩ — ١١٠ .
١٩ الرعد ٢٥ .

(ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون)[٢٠] .

(يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين . انما يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله ما لا تعلمون)[٢١] .

(كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً ، فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم ، كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ، وخضتم كالذي خاضوا ، أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون)[٢٢] .

(الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون)[٢٣] .

(وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلا بالله ...)[٢٤] .

(وليزيدنّ كثيراً منهم ما أنزل اليك من ربك طغياناً وكفراً ، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ، ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين)[٢٥] .

والقرآن الكريم لا يكتفي بتقديم هذه الأمور السالبة عن الإفساد الروحي والمادي وعما يؤول اليه من دمار لحضارة الإنسان ، ولرقيه وسعادته وتقدمه ، ومن عرقلة لدوره في العالم كخليفة عن الله فيه ، ولكنه يطلب من الجماعة المؤمنة أن (تتحرك) لوقفه بأسرع ما تستطيع وبأقصى ما تطيق ، لئلا يتحول الفساد إلى فتنة عمياء لا ترحم أحداً ولا تبقي وهي تدوّم فوق رؤوس الجماعة كلها ظالماً أو مظلوماً :

---

٢٠ الشعراء ١٥١ – ١٥٢ .
٢١ البقرة ١٦٨ – ١٦٩ .
٢٢ التوبة ٦٩ .
٢٣ هود ١٩ .
٢٤ هود ٨٨ .
٢٥ المائدة ٦٤ .

(فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض ، الا قليلاً ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) [٢٦] .

(والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ...) [٢٧] .

(واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب) [٢٨] .

إن القرآن يرفض في نظرته للمسألة الحضارية ، أشد ما يرفض ، موقف التجزئة والفصل واقامة الجدران بين مساحات التجربة البشرية ويرى فيها وحدة حيوية تسري فيها روح واحدة وتغذيها دماء واحدة .. وأن تجزئتها وعزل بعض جوانبها ، خلال العمل عن بعضها ، ليس خطأً فحسب ، لكنه مسألة تكاد تكون مستحيلة ، إذا ما أردنا — مسبقاً — أن نصل إلى نتائج صحيحة .

---

٢٦ هود ١١٦ — ١١٧ .

٢٧ الأنفال ٧٣ .

٢٨ الأنفال ٢٥ .

٣

ومن خلال تحقّق الشرطين السالفين : الاصلاح ، ووقف الفساد ومجابهته على كل المستويات ، واستناداً إلى التعاليم الإلهية التي يجيء بها الأنبياء حيناً بعد حين ، تمارس الجماعة البشرية المؤمنة خلافتها في الأرض وتواصل (الحضارة) تقدمها ونموّها من خلال ارادة الإنسان ، وموقفه الفوقي على الكائنات ، وقدراته التي منحه الله اياها على التصوّر والتخيّل والتخطيط والتنفيذ ، والفعل والابتكار ... قدرات على مستوى العقل والروح والعاطفة والوجدان والجسد ، على السواء .. وليس ثمة شيء في العالم أو قوة في الكون ، غير قوة الله وحده ، بقادرة على أن تصد الإنسان عن أهدافه ومطامحه التي قرر أن يسعى اليها .

إننا هنا بازاء علاقة (تغاير) نوعي حاسم بين الجماعة البشرية المريدة القديرة الفاعلة ، وبين كتلة العالم والطبيعة التي لا تملك قدرة ذاتية ولا فعلاً مرسوماً لمجابهة الإنسان .. انها أساساً ، وفق المعطيات القرآنية ، قد سُخّرت له تسخيراً ، وان الله سبحانه قد حدّد أبعادها وقوانينها ونظمها وأحجامها بما يتلاءم والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان في العالم ، وقدرته على التعامل مع الطبيعة تعاملاً ايجابياً فاعلاً .

وإذا ما أردنا أن نعتمد اصطلاحات (توينبي) ومقاييسه الحضارية

في مسألة النموّ الحضاري هذه ، فاننا سنرى في العالم (تحدياً مناسباً) للانسان ليس (معجزاً) ولا هو دون الحدّ المطلوب لاثارة التوتر البشري للردّ ... وكأن ارادة الله سبحانه قد شاءت أن تقف به عند هذا الحدّ لكي يحقق المدى الأقصى من الحوار الخلاق بينه وبين خليفته في الأرض ، فلم يشأ أن يمهد العالم تمهيداً كاملاً ويكشف للانسان عن قوانينه وأسراره بالكلية لأن هذا نقيض عملية الاستخلاف والتحضّر والإبداع التي تتطلب مقاومة وتحدياً واستجابة ودأباً وإبداعاً ، ولأنه يقود الإنسان إلى مواقع السلبية المطلقة ويسلمه إلى كسلٍ لا تقرّه مهمة الإنسان على الأرض أساساً .

« .. ترى .. لو أعطي الإنسان ، يوم خلقه ، المفتاح الذي يدخل به مباشرة إلى ساحة الطبيعة ، فيدرك قوانينها دون عناء ، ويقفز ، إلى الحضارة الخارجية بلا تدرج أو تطور ، أكان يشهد التاريخ البشري هذه الجهود العظيمة ، وتلك المحاولات الدائبة ، وذلك التشبّث والسعي صوب الكشف والتحضير ؟ أكان يمكن أن يكون للبشرية تاريخ أساساً ؟ وما هو دور العقل إذن إذا كان بإمكان العين أن ترى القانون الأكبر ، والأذن أن تسمعه ، واليد أن تلمسه ، ما هو – وهذا هو الأهم – دور الارادة الإنسانية التي ركزها الله في الإنسان ، والطاقات التي جهزه بها كي يكون للانسان امكانيّة التصدي للغموض الطبيعي والحواجز الطبيعية ؟ أفيمكن دون أن يستثير الله سبحانه عنصر التحدّي الإرادي بين الإنسان والطبيعة ، أن تكون هناك محاولة جادة لاستخدام العقل والارادة ، والتغلب على الغموض والتعقيد ، ومن ثم التقدم والتحضّر ؟ ثم هل بمقدورنا أن نجد ثمة حضارة واحدة في تاريخ البشرية لم يسهم في بعثها إلى الوجود هذا التحدي الأبدي بين الطبيعة والإنسان ؟ .

« ان أخلاقية الوجود البشري على الأرض تقتضي هذا الحوار الفعّال بين الإنسان والطبيعة ... هو يسأل وهي تتمنّع على الإجابة ، وهو يسعى

اليها متسائلاً قلقاً ، وهي ترفض أن تفتح له أحضانها وتلقي اليه بكنوزها .. معنى هذا أن على الإنسان أن يرفض الكسل والقعود ، أن يتخلى عن السعي الهادىء المطمئن إلى رزقه وتأمين حياته ، وإحاطة وجوده على الأرض بالضمانات ، ان عليه – كما أراد له الله سبحانه – أن يمشي ويتحرك ، أن يجدّ ويكد ، ان يستخدم كل الطاقات التي وهبها إياه من أجل تحقيق هذا الهدف وهو ان تردّ الطبيعة على جوابه وتسلم اليه القياد . .

« وفي القرآن الكريم مئات الآيات والاشارات تنفخ في الإنسان هذا المعنى الحضاري العظيم ، وتعلمه ان حواره مع الطبيعة لن يثمر إلا بالسعي والكدح والحركة . من أجل هذا أيضاً كان الإسلام – خاتم الرسالات ومصدّقها – دعوة حركية على هذا النطاق ، كما هو دعوة حركية على النطاق الأكبر : نطاق العقيدة والدين والمنهج ، حركة الإنسان والشعوب والأمم من الجهل والتخلّف إلى العلم والتحضّر ، من الظلام إلى النور ، ومن النظرة المسترخية الكسولة للطبيعة والأشياء ، إلى التمعّن المتوتر النشيط للطبيعة والأشياء .. هذه الحركة التي يطلب القرآن أن تكون متفجرة أبداً لا تكلّ ولا تملّ .. ثم يطلب منها – وهذا هو الإعجاز العظيم – الا تقصر سعيها على مستوى الأرض ، ويعلمها أن وطن الإنسان ليس هو الأرض فحسب ، بل الكون كله ! ! وكما انه يدعوه للحركة العقائدية في نطاق الكون كله ، فكذلك يطلب أن تكون حركته (العقلية) في نطاق الكون كله ، فالأرض جزء من الكون ، والناموس الذي يحكم الأرض هو نفسه الذي يحكم الكون ، والله سبحانه خالق القوانين والأوضاع والإنسان (وهو الذي في السماء اله وفي الأرض اله ،) ! ومن ثم فان اللقاء بين الحركتين ، حركة العقل وحركة الوجدان ، حركة الحس وحركة الروح ، حركة الذهن وحركة القلب ، هذا اللقاء القائم على التوافق والتوحّد والانسجام سيكون محتماً في المدى القريب والبعيد ، لأن كلتا

الحركتين ستطلع الإنسان على الملكوت وتهوده إلى الله ... »[1] .

ان الله سبحانه لم يشأ — من جهة أخرى — أن يجعل العالم على درجة من التعقيد والصعوبة الطبيعية والانغلاق والغموض يعجز معها الإنسان عن الاستجابة والإبداع ، الأمر الذي يتنافى — أيضاً — ومهمته الحضارية التي أنيطت به كخليفة لله على الأرض جاء لإعمار عالم غير مقفل ولا مسدود :

(ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء انه بعباده خبير بصير . وهو الذي ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد . ومن آياته خلق السماوات والأرض ، وما بث فيهما من دابة ، وهو على جمعهم — إذا يشاء — قدير . وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير)[2] .

(الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون . والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون . والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين)[3] .

والحق ان الآيات الخاصة بمسألة التسخير (المتوازن) ، المناسب هذا ، منبثة في مواضع من القرآن كثيرة لا تعدّ ولا تحصى ..

إنه الحدّ (الوسط) الذي يتحدى الإنسان إلى نقطة التوتر والقدرة

---

١ أنظر بالتفصيل : فصل (خطوات في مواقع العلم والدين) من كتاب (تهافت العلمانية) للمؤلف .

٢ الشورى ٢٧ — ٣٠ .

٣ الزخرف ١٠ — ١٣ .

على الاستجابة والفعل والإعمار ، ويتجاوز التكشّف الكامل أو الانغلاق الكامل اللذين يستحيل معهما الفعل الإنساني .

وثمة سؤال ملحّ يفرض نفسه هنا ، نظراً لارتباطه الوثيق بالمسألة التي نناقشها ، وهو : لماذا ترك الإنسان ، على المستوى الطبيعي ، يجهد بنفسه ويبتكر ويكشف ويطوّر بينما ألزم — على المستوى العقائدي الديني — بالاعتماد الكلّي على تعاليم السماء ؟ هل بمقدور الإنسان أن يبتكر بنفسه (المنهج) أو (الدين) الذي يقوده عبر الطريق ؟ ما هو السبب — بعبارة أخرى — في تعليق هداية الإنسان الشاملة على نزول الأديان والتزامه بتعاليمها ، وما هو الفرق بين القانون الطبيعي والقانون الديني الأخلاقي ؟ ولماذا لم يكشف الله عن الأول كشفاً كلياً بينما قدم التعاليم النهائية الحاسمة عن القانون الثاني ؟ .

« في البداية يجب أن ندرك ، انه في المدى البعيد ، مدى علم الله الذي تتقطع دونه الأعناق ، في هذه الحياة الدنيا ، الا من ارتضى من رسول ، في مدى هذا العلم الإلهي تنتفي هذه الثنائية بين القانونين : قانون الطبيعة وقانون الدين ، تذوب الحواجز وتتلاشى الفوارق ، ويلتقي كلا القانونين في مدى صنع الله وارادته ونواميسه الكبرى التي تسيّر ملكوت السماوات والأرض بما عليهما من جماد وحيوان . إن المادة نفسها — التي يرتكز عليها القانون الطبيعي — قد حطمها اليوم العلم نفسه .. لم تعد العينة الصلبة من المادة هي أساس الطبيعة . لقد كشف لنا العلم الحديث عن جانب خطير من القانون الطبيعي ، وعلمنا ان أساس البنية الطبيعية هي الحركة وليست المادة ، الذرات بأشكالها المتناهية في الصغر تتحرك وفق مسارات معينة فتضفي الشكل المادي الخارجي للاشياء ، وهذه الذرات تتشكل هي الأخرى وفق حركة معجزة في كيانها الداخلي .. لكأنه تسبيح أبدي لكل قوى الطبيعة لربّ الملكوت (وان من شيء إلا

يسبّح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم)[٤] . ولكأنه ايماء عجيب للانسان المعاصر بزيف هذه الثنائية التي قسمت خلق الله إلى قسمين وأقامت بينهما جداراً من التباعد والصمت والغموض . ان الحركة — بمعناها الشامل — هي أساس الوجود المادي تماماً كما هي أساس الوجود الحيوي .. هذا ما كشف عنه العلم أخيراً ، وما هذا الكشف الا جانب ضئيل مما يمكن أن يكشف عنه المستقبل القريب والبعيد .

« ومهما يكن من أمر فان السؤال يبقى على أهميته الفائقة في حياتنا الراهنة ... وجواباً عليه لا بدّ أن نتمعن قليلاً في دور الإنسان نفسه في هذا العالم ، الإنسان بارادته وطاقاته وامكاناته ، الإنسان بما هو انسان .. ترى لو تركت للانسان حرية الكشف عن منهج الحياة بمفهومها الشامل (المنهج الديني) بنفسه ، أكان يمكن أن يصل إلى بغيته ؟ أكان من السهل عليه تحقيق هدفه المنشود ؟ إذن لماذا لم تستطع المذاهب والمحاولات الوضعية طيلة آلاف السنين من عمر البشرية أن تحقق هذا الهدف ؟ أليس من العبث والتناقض أن يتحرك الإنسان هكذا ؟ يتعثر طوال حياته على الأرض ولا يجد من يهديه سواء السبيل ؟ أن يظل أسير جهله وتخبطه اللذين لا يرتفع من وهدة حتى يسقطاه في وهدة أعمق منها وأبعد غوراً ؟ أليس من العبث والتضييع أن يهدر الإنسان طاقاته الفاعلة في سبيل البحث عن المنهج والقيم الكبرى ، وهل بامكان الإنسان أساساً أن يصل إلى المنهج الأمثل ، ويحدد — بموضوعية تامة — قيمه العليا التي يتحرك على ضوئها وبالتزاماتها ؟ .

« في مجال الطبيعة والأشياء لم يشأ الله سبحانه أن يكشف للانسان عن قوانينها ، لأن هذا يعني اهمالاً لطاقات الإنسان الخلاّقة وقدرتها على الفعل

---

٤ الاسراء ٤٤ .

والكشف والابتكار ، ولو حدث وان وجد الإنسان نفسه فجأة أمام تكشّف النواميس الطبيعية على حقيقتها ، لألغيت — اذن — وبشكل محتم — كما سبق وان بيّنا — جل قدراته ومحاولاته الإبداعية ، ولأسلم نفسه لكسل فكري واتكالية لم يرد الله للانسان أن يقع في إسارها ، أما العقيدة والمنهج والقيم الخلقية ، فهل كان من المنطق أن تظل غامضة ، وأن يسعى الإنسان بنفسه للكشف عنها ؟ ان هذه القيم وتلك العقيدة وذلك المنهج ، ما داما يرتبطان أساساً بالعالم الأوسع ، ويمتدان إلى ما وراء الحسّ الظاهر للعيان ، ما داما ينأيان دائماً عن رؤية الإنسان المباشرة وحركته النسبية ، وحريته المحدودة ، ونسبيّته الحسيّة ، فليس من السهل عليه — إذن — أن يترك وحده للسعي وراء أهداف لم يهيأ للكشف عنها .

« ان تجربة (الخطأ والصواب) تغدو مجدية في مجال التعامل مع الطبيعة لأنها ستعلّم الإنسان دوماً طريقة جديدة أو تمنحه ابتكاراً جديداً ، وما منجزات الغرب التقنيّة المعاصرة سوى (تراث) بشري أسهمت في صنعه وبنائه وتطويره معظم أمم الأرض وشعوبها بعد أن مارست كثيراً من تجارب الخطأ والصواب . وما زال العلم إلى الآن ينفي اليوم — بتجريبيته — ما أثبته بالأمس ، ويثبت ما سوف ينفيه غداً ، ولكن هذا النفي والاثبات وهذه الظنية التي تحكم ميادين النشاط العلمي ، لم تؤثر في يوم من الايام على التطور المستمر للانجازات (المدنيّة) ، بل ان هذه — كما سبق وان ذكرنا — في صعود مستمر نحو الأكثر والأحسن والأرقى ، الا إذا جوبهت بحرب عالمية شاملة لا تبقي ولا تذر ، وهذا أمر مستبعد الحدوث على الأقل في القرون القليلة التالية . أو إذا أصيبت بعض أنحاء العالم المتقدم بنكسة جغرافية شاملة كما حدث مثلاً بالنسبة لقارة (اطلانطا) التي يقال — ظناً — انها بلغت شأواً كبيراً من التقدم والتحضّر ، وهذا أمر احتمالي بعيد هو الآخر ...

« أما في المجال العقيدي والأخلاقي والديني فلا يمكن للانسان أن يمارس تجربة الخطأ والصواب لأن هذه ستكون على حساب كينونته ووقته وجهده ومصيره في نهاية الأمر ، ولأنها – وهذا هو الأهم – لن تقدم له (الصواب) المطلق الذي لا خطأ بعده في يوم من الأيام ، ذلك انه لا يملك (الوسائل) التي تمكنه من بلوغ هذا الصواب وتمحيصه على السواء . ثم ان عملية النفي والاثبات هنا ليست سوى عملية سلبية ، اذ ان (نفياً) كهذا سيوقع الأمم والشعوب في فوضى لا حدّ لها ، وسيصيب الإنسان نفسه بمشاكل ذاتية وقلق وتمزق داخلي يشلاّنه عن المضي في طريق الإبداع والتطور الحضاري .

« لقد أعطى الله الإنسان امكانيات خلاّقة وقدرات فذّة ورؤية عظيمة واسعة الامداء، ولكن هذا وحده لا يكفي، ان امكانياته وقدراته ورؤاه لها أرضية واسعة للسعي والحركة ، وان تقليص هذه الأرضية هي اهدار لطاقات الإنسان أو تجميدها،وهي – بمعنى أوسع – احتقار للارادة الإنسانية . لكن هناك مدى أوسع بكثير من هذه الأرضية ، ولو ترك الإنسان وحده لظل يتحرك كالأعمى ، يقوم ويسقط ، إلى أن يأتي يوم يسقط فيه في الهوة التي لا قيام بعدها . ولقد حدث هذا فعلاً لكل الناس والأمم والشعوب التي تعبّدها (الوضعيون) من دون الله ، قالوا لها ان بامكانهم اعطاءها (العقيدة) والمنهج والقيم ، فسارت وراءهم رغباً ورهباً ، وتلقت عنهم دينها وقيمها ومناهجها ، بالأحرى عبدتهم من دون الله .. ولكن ما لبث أن سقط الأرباب والعبيد على السواء .. » [٥] .

ونعود ثانية إلى مسألة (التسخير) .. ان هنالك آيات ومقاطع قرآنية عديدة تحدثنا عن هذا التسخير للعالم والطبيعة لخدمة الدور الذي أنيط بالإنسان

---

٥ أنظر بالتفصيل عن هذه المسألة الفصول ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، من كتاب (تهافت العلمانية) للمؤلف

في الأرض ، وهي تمنحنا التصوّر الإيجابي لدور الإنسان الحضاري ينأى كلية عن التصورات السالبة لعديد من التفاسير الوضعية التي جرّدت الإنسان من كثير من قدراته الفاعلة وحريته في حواره مع كتلة العالم ، وتطرف بعضها فأخضعه إخضاعاً كاملاً لمشيئة هذه الكتلة وارادة قوانينها الداينامية الخاصة التي تجيء بمثابة أمر لا رادّ له ، وليس بمقدور الإنسان إلا أن يخضع ويساير ويتقبل هذا الذي تأمر به .

وسواء التزم التفسير الوضعي المنطق الديالكتيكي على مستوى الفكر الكلي غير المحدد ، كما فعل هيكل ، أو على مستوى المادة وتبدل وسائل الإنتاج وظروفه (الخارجية) كما فعل ماركس وانكلز ، فان الإنسان يغدو تابعاً وليس متبوعاً ، وإن الانجاز الحضاري يجيء وكأن الإنسان جزء منه أو مساحة من مكوناته فحسب ، وانه ليس أمامه إلا أن يتشكّل وفق مقتضيات مسيرة أكبر حجماً من ارادته وأوسع مدى من قدراته ومطامحه ونزوعاته الذاتية والجماعية على السواء .

اننا نلتقي من خلال القرآن بصيغة أخرى للعلاقة بين الإنسان والعالم تختلف من أساسها .. صيغة (السيّد الفاعل المريد) الذي سُخرت وأخضعت له مسبقاً كتلة العالم والطبيعة لتلبية متطلبات خلافته في الأرض وإعماره للعالم على عين الله (وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار) [6] :

(وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر) [7] .

(وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً) [8] .

---

٦ ابراهيم ٣٢ – ٣٣ .
٧ النحل ١٢ .
٨ النحل ١٤ .

(ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض ؟) [٩] .

(ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) [١٠] .

(ألم تروا ان الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض ؟) [١١] .

(وسخرنا مع داود الجبال يسبّحن والطير) [١٢] .

(فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) [١٣] .

---

٩ الحج ٦٥ .
١٠ العنكبوت ٦١ .
١١ لقمان ٢٠ .
١٢ الأنبياء ٧٩ .
١٣ ص ٣٦ .

٤

والقرآن الكريم لا يقف عند مرحلة تأكيد هذه العلاقة (الفوقية) للانسان على الطبيعة فحسب ، وانما يدعوه في أماكن عديدة لأن (يتحرك) لاعتماد هذه العلاقة في تنفيذ متطلبات استخلافه العمراني (او الحضاري) على الأرض ، وهذا لن يتأتى إلا بالنظر العميق في ملكوت السموات والأرض ، والدراسة المتأنية لنواميسه وقوانينه وأسراره ، والسعي الدائم وفق أشد الأساليب العلمية تجريبية ، للكشف عن هذه النواميس والقوانين والأسرار من أجل فهم أكثر لقدرات الله الخلاقة وايمان أعمق به ، ومن أجل استخدامها لتطوير الحياة على الأرض ، ومواصلة العمران ، وتحقيق مفهوم الاستخلاف على كل المستويات .

« لقد دعا القرآن الناس إلى التبصّر بحقيقة وجودهم وارتباطاتهم الكونية عن طريق (النظر الحسيّ) إلى ما حولهم ، ابتداء من مواقع أقدامهم وانتهاء بآفاق النفس والكون ... وأعطى للحواس مسؤوليتها الكبرى عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب ... قال له (ولا تقفُ ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسؤولاً) [1] .

---

١ الاسراء ٣٦ .

وناداه أن يمعن النظر إلى ما حوله .. إلى طعامه (فلينظر الإنسان إلى طعامه . انا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا فيها حباً . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غلباً . وفاكهة وأبّاً) [2] .. إلى خلقه (فلينظر الإنسان مم خلق ؟) [3] . .. إلى الملكــوت (أو لم ينظروا إلى ملكوت السماوات والأرض ؟)) [4] .. إلى التاريخ وحركة الإنسان في الأرض (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أكثر منهم قوة) [5] .. إلى خلائق الله (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت ؟) [6] .. إلى آياته المنبثة في كل مكان (أنظر كيف نبين لهم الآيات) .. [7] إلى النواميس الاجتماعية (أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) [8] .. إلى الطبيعة وهي تنبعث من قلب الفناء برحمة من الله ومقدرة (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ؟) [9] .. إلى الأثمار وهي تتــدلى من غصون الأشجار (أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) [10] .. إلى الحياة الأولى كيف بدأت ، وكيف نمت وارتقت (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) [11] .. ودعاه ان يحرّك (سمعه) باتجاه الأصوات لكي يعرف ويميز ، فيأخذ أو يرفض ، فمن الاختيار البصير ينبعث الايمان (لا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون) [12] .

---

٢ عبس ٢٤ – ٣١ .

٣ الطارق ٥ .

٤ الأعراف ١٨٥ وانظر يونس ١٠١ ، ق ٦ .

٥ غافر ٨٢ .

٦ الغاشية ١٧ .

٧ المائدة ٧٥ وانظر الأنعام ٤٦ و ٦٥ .

٨ الاسراء ٢١ .

٩ الروم ٥٠ .

١٠ الأنعام ٩٩ .

١١ العنكبوت ٢٠ .

١٢ الأنفال ٢١ وانظر البقرة ١٧١ و ١٨١ ، الجن ١ و ٢٧ المائدة ٨٣ ، القصص ٥٥ و ٧١ ، فاطر ١٤ ، فصلت ٤ و ٢٦ ، الملك ١٠ ، مريم ٤٢ ، الأنبياء ٤٥ ، الأنعام ٢٥ و ٣٦ ، الأعراف ١٠٠ ، يونس ٦٧ ، الفرقـان ٤٤ ، السجدة ٢٦ ، الشعراء ٧٢ ، ياسين ٢٥ الأنفال ٢٣ ، غافر ٢٢ ، الزمر ١٨ ، الاعراف ٢٠٤ ، الحج ٧٣ ، الكهف ١٠١ .

« وانتقل القرآن خطوة أخرى وسألهم أن يحركوا (بصائرهم) : تلك التي تستقبل في كـل لحظة مدركات حسية ، سمعية وبصرية وحسية لا حصر لها ، ومن ثم تتحمل (البصيرة) مسؤوليتها في تنسيق هذه المدركات وتمحيصها وموازنتها وفرزها من أجل الوصول إلى (الحق) الذي تقوم عليه وحدة نواميس الكون والخليقة (فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها) [١٣] .

« ان العقل والحواس جميعاً مسؤولة ، لا تنفرد احداها عن الأخريات في تحمل تبعة البحث والتمحيص والاختيار .. والإنسان مبتلى بهذه المسؤولية لأنه من طينة أخرى غير طينة الأنعام (انا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) [١٤] .. ومن ثم تتوالى الآيات ، تؤكد مرة تلو المرة على ان السمع والبصر والفؤاد جميعاً هي التي تعطي للحياة الإنسانية قيمتها وتفردها ، وان الإنسان بتحريكه هذة القوى والطاقات ، بفتحه هذه النوافذ على مصراعيها ، باستغلال قدراته الفذّة العجيبة حتى النهاية ، سيصل قمة انتصاره العلمي والديني على السواء ، لأن هذه الانتصارات ستبوئه مركزه المسؤول كسيّد على العالمين وخليفة لله في الأرض ، وانه بتجميد هذه الطاقات ، وقفل نوافذها ، وسحب الستائر والأغشية عليها ، يكون قد اختار بنفسه المنزلة الدنيا التي ما أرادها له الله يوم منحه نعمة السمع والبصر والفؤاد .. منزلة البهائم والأنعام (أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم) [١٥] .

---

١٣ الأنعام ١٠٤ وانظر القصص ٧٢ ، الذاريات ٢١ ، الأعراف ١٧٩ ، الحج ٤٦ ، الزخرف ٥١ ، الطور ١٥ ، البقرة ١٧ ، يونس ٤٣ ، السجدة ٢٧ ، ياسين ٩ ، الصافات ١٧٥ ، يوسف ١٠٨ ، القيامة ١٤ — ١٥ ، ق ٨ ، النمل ١٣ ، العنكبوت ٣٨ ، الملك ٣ — ٤ ، الجاثية ٢٣ ، آل عمران ١٣ ، النور ٤٤ ، الحشر ٣ .

١٤ الإنسان ٢ .

١٥ محمد ٢٣ وانظر النحل ٧٨ ، الاعراف ١٧٩ ، المؤمنون ٧٨ ، الحج ٤٦ الزخرف ٤٠ ، هود ٢٠ ، ق ٣٧ ، الأنعام ٤٦ و ١١٠ ، الجاثية ٢٣ ، البقرة ٧ ، المائدة ٧١ .

« وحشد آخر من الآيات ، بلغ ما يقرب الخمسين ، حث على تحريك (العقل) المفتاح الذي منحه الله بني آدم وقال لهم : افتحوا به أبواب الملكوت ، وادخلوا ساحة الايمان بالله الذي سخّر لكم ما في السماوات والأرض (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) [16] وآيات أخرى دعت الإنسان إلى (التفكير) ، التفكير العميق ، المتبصّر ، المسؤول بكل ما يحيط به من علامات وأحداث وأشياء وموجودات (قل : هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ؟) [17] .

« وما يقال عن (التفكّر) يمكن أن يقال عن (التفقه) ، وهي خطوة عقلية أبعد مدى من التفكير ، إذ هي الحصيلة التي تنتج عن عملية التفكير ، وتجعل الإنسان أكثر وعياً لما يحيط به ، وأعمق إدراكاً لأبعاد وجوده وعلائقه في الكون ، كما تجعله متفتح البصيرة دوماً ، مستعداً للحوار المسؤول ازاء كل ما يعرض له من أسئلة وعلامات (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟) [18] .

« وأكد القرآن على الأسلوب الذي يعتمد (البرهان) و (الحجة) و (الجدال الحسن) للوصول إلى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء والمقارنة والموازنة والتمحيص استناداً إلى المعطيات الخارجية المتفق عليها ، والقدرات العقلية والمنطقية لأولئك الذين بلغوا شأواً بعيداً في هذا المضمار (تلك أمانيهم ! ! قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) [19] .

---

١٦ البقرة ١٧١ ، ٢٤٢ ونظر العنكبوت ٤٣ ، ٢٢ ، يوسف ٤٢ ، الحج ٤٦ .

١٧ الأنعام ٥٠ وانظر الروم ٨ ، سبأ ٤٦ ، آل عمران ١٩١ ، الاعراف ١٧٦، الحشر ٢١ .

١٨ النساء ٧٨ وانظر هود ٩١ ، الأنعام ٦٥ ، طه ٢٨ ، الأعراف ١٧٩ ، الأنفال ٦٥ ، التوبة ٨٧ و ١٢٢ ، المنافقون ٧ . .

١٩ البقرة ١١١ وانظر المؤمنون ١١٧ ، النساء ١٧٤ ، النمل ٦٤ ، القصص ٣٢ و ٧٥ ، الأنعام ٨٣ و ١٤٩ ، النحل ١١١ ، العنكبوت ٤٦ ، الحج ٨ .

« هكذا يبدو العلم ، بمفهومه الواضح ، الشامل ، (فاعلية) في غاية الأهمية في المجتمعات التي ترتضي الدين أو المنهج الإلهي طريقة لها في الحياة .. ولا بد أن نضيف هنا حقيقة أخرى في غاية الأهمية ، تلك هي ان كلمة (العلم) وردت في القرآن الكريم مراراً كمصطلح على (الدين) نفسه الذي علمه الله أنبياءه (ع) .. على النواميس التي يسيّر الله بها ملكوته العظيم .. على الحقائق الكبرى الموجودة عند الله في (أمّ الكتاب) ، وكإشارة إلى القيم الدينية التي نزلت من السماء في مقابلة الأهواء والظنون البشرية. ومن ثم يغدو العلم والدين سواء في لغة القرآن. ان كلمات الله سبحانه تعلمنا هذه الحقيقة، وتبصّرنا بمواقع العلم والدين الفسيحة ، الممتدة ، المتداخلة ، كما أراد لها أن تكون ، لا كما يريد لها الوضعيون الذين يسعون جهدهم للفصل بين (الكلمتين) (ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير)[20] .. (والراسخون في العلم يقولون : آمنا به ، كل من عند ربنا)[21] . (ما لهم به من علم الاّ اتباع الظن)[22] . (وقال : انما العلم عند الله وأبلغكم ما أُرسلت به)[23] ... ولا يسعنا هنا استعراض جل ما ورد من آيات في هذا المجال ، أو حتى الاشارة اليه ، ويكفي أن نشير إلى ان كلمة (علم) بتصريفاتها المختلفة ، وردت في عدد من الآيات جاوز السبعمائة والخمسين »[24] .

ومن ثم فلا يتصورنّ أحد ان القرآن ما جاء إلا لكي يؤكد في موقفه من العمل الحضاري على الجوانب الأخلاقية والروحية فحسب .. اننا

---

٢٠ البقرة ١٢٠ .
٢١ آل عمران ٧ .
٢٢ النساء ١٥٧ .
٢٣ الأحقاف ٢٣ .
٢٤ أنظر بالتفصيل الفصل الأول من كتاب (تهافت العلمانية) للمؤلف .

بإزاء آيات عديدة تضع الجماعة البشرية المؤمنة في قلب العالم والطبيعة وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس في أعماق التربة وفي صميم العلاقات المادية بين الجزئيات والذرات . . . اننا بإزاء حركة حضارية شاملة تربط ، وهي تطلب من الإنسان أن ينظر في السماوات والأرض ، بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع ، بين التلقّي عن الله والتوغل قدماً في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وأغاميضها ، بين تحقيق مستوىً روحي عال للانسان على الأرض وبين تسخير قوانين الكيمياء والفيزياء والرياضيات لتحقيق نفس الدرجة من التقدم والعلوّ الحضاري على المستوى المادي (المدني) .

ولم يفصل القرآن يوماً بين هذا وذاك، انه —كما قلنا— يقف دائماً موقفاً شمولياً مترابطاً ، ويرفض الفصل والتقطيع والتجزيء في تقييم الموقف (الحيوي) أو الدعوة اليه (ويجب ألاّ يغيب عن أذهاننا هنا ، وفي أماكن عديدة من هذا الفصل ، ان القرآن في مواقفه من المسألة الحضارية لا يتحدث في معظم الأحيان ، عما (كان) فحسب وانما عما يجب أن (يكون) مع تأكيده الدائم على الدور (الطليعي) الذي يتوجب على الأمة الإسلامية أن تلعبه في العالم) .

ولقد انعكس هذا (التوحّد) بين قيم الروح والمادّة بوضوح كامل عبر مسيرة الحضارة الإسلامية التي قطعت القرون الطويلة وهي تحتفظ بتوازنها المبدع بين الطرفين ، وأنجزت وابتكرت وكشفت ونفّذت الكثير الكثير من المعطيات الحضارية التي لم تهمل جانباً من الجوانب المرتبطة جميعاً ، ارتباطاً متيناً ، بخلافة الإنسان على الأرض ودوره الحضاري في العالم . وليس من داع لأن نشير هنا إلى ان ما حققه أبناء هذه (الحضارة) التي استمدت منهجها من القرآن الكريم نفسه — في مجالات الطبيعة والفلك والرياضة والطب والصناعة التطبيقية وغيرها — لا يقل في مستواه — كما

ونوعاً – عما أنجزوه في ساحات العلوم والدراسات الإنسانية ، فلهذا مجال آخر [٢٥] .. وما كان لها إلاّ أن تكون كذلك وهي تعمل في ظلال مناخ حضاري متوازن نتلمّسه بوضوح من خلال آيات عديدة ، هذه بعض نماذجها :

(فلينظر الإنسان إلى طعامه . انا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا فيها حباً . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلباً . وفاكهة وأباً) [٢٦] .

(فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب) [٢٧] .

(أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ؟) [٢٨] .

(أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها وما لها من فروج . والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد) [٢٩] .

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت ؟) [٣٠] .

(وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً) [٣١] .

(فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها) [٣٢] .

(انظروا إلى ثمره – إذا أثمر – وينعه) [٣٣] .

---

٢٥ أنظر على سبيل المثال كتاب (تهافت العلمانية) للمؤلف .

٢٦ عبس ٢٤ – ٣١ .

٢٧ الطارق ٥ – ٧ .

٢٨ الأعراف ١٨٥ .

٢٩ ق ٦ – ١٠ .

٣٠ الغاشية ١٧ – ٢٠ .

٣١ البقرة ٢٥٩ .

٣٢ الروم ٥٠ .

٣٣ الأنعام ٩٩ .

(قل انظروا ماذا في السماوات والأرض) .[٣٤]

(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق)[٣٥] .

(ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيّناها للناظرين)[٣٦] .

ان القرآن — من خلال هذه الآيات ، وغيرها كثير — يريد أن يضعنا في قلب الطبيعة ، على مستوى الكون والعالم ، وأن يختار لنا موقعاً (تجريبياً) يعتمد النظر والتمعّن والفحص والتجريب من أجل الكشف والابتكار والإبداع ، ومن أجل ألا نفقد توازننا الحضاري فنجنح باتجاه الروح أو الأخلاق ونهمل التكييف والتطوير الماديين الملازمين لأية حضارة متوازنة تريد أن تتحقق بالشرط الأكبر للوجود الإنساني على الأرض وهو عبادة الله ، والتوجه اليه ومحاورته أخذاً وعطاء .

ان هنالك بداهة من أشد بداهات الإيمان أهمية ، تلك هي ان الله سبحانه ما دام قد (عبّر) عن ابداعه وقدرته الكلية على مستوى الروح والمادة ، الإنسان والطبيعة .. فليس ثمة معنىً أبداً لأي موقف بشري من المادة أو الطبيعة يتميز بالهروب أو الاحتقار أو السلبية أو الاستعلاء ، ان هذا (الموقف) مهما كانت درجته ، غير مبرّر في بداهات الإيمان ، ولا في مقتضيات (الاستخلاف) ، ليس هذا فحسب ، بل انه يقف نقيضاً لهذه البداهات والمقتضيات ، ومن ثم فهو مرفوض في القرآن ابتداء ..

ان القرآن يوجه أنظارنا ، في الآيات السالفة ، إلى أشد الأمور ماديّة وثقلاً : الطعام ، النطفة الأولى ، الأرض والسماء والجبال ، وإلى دنيا النبات والحيوان ... ويدعونا لأن نسبر بحثاً عن سنن هذه العوالم ، وادراكاً لأبعاد خلقها المعجزة التي لا تتحقق الا بارادة كلية نافذة لا يعجزها شيء ..

---

٣٤ يونس ١٠١ .

٣٥ العنكبوت ٢٠ .

٣٦ الحجر ١٦ .

ان القرآن يدعو إلى (حضارة) (تنمو) على كل المستويات الروحية والأخلاقية والطبيعية .. وهو يخصص المقاطع والآيات الطوال للمسألة الحضارية في مستواها الطبيعي ، المادي ، ولكن شرط أن تضبطها القيم والمقاييس الدينية الآتية من عند الله .

إن كل آية تتناول مسألة طبيعية أو حيوية أو مادية تنتهي بافعال التقوى والإيمان وبالدعوة إلى ربط أية فاعلية بالله .. وهذا التأكيد المتكرر له مغزاه الواضح ... إن منطق (التوازن الحركي) الذي يرفض الانحراف أو السكون ، هو القاعدة التي نتلمسها في القرآن الكريم بوضوح من خلال عدد كبير من آياته ، والتي تكفل نمواً سليماً لأية حضارة تستطيع أن تحافظ على نقطة التوازن بين تجربتي الروح والمادة ، ولا تنحرف باتجاه أحدهما ، مهملة الأخرى ، أو ضاغطة عليها ، مستخدمة ازاءها أساليب القمع والكبت والتحديد ... التوازن الذي يمكن الحضارة من الحركة الدائمة ، لأن الأهداف التي يضعها أمامها تأخذ مستويات صاعدة لا يحدّها أفق ولا يقف في طريقها تحديد صارم ، انها تبدأ بتأمين متطلبات الحياة اليومية المباشرة .. وتتقدم — بعد هذا — صوب إعمال الفكر في قلب العالم للكشف عن نواميسه ، أو في أمداء الكون لادراك سرّه المعجز .. هذه الفاعلية الفكرية التي ما لها من حدود تقف عندها ..

ومن ثم توالي خطواتها لتنفيذ أكبر قدر من ضمانات التجربة الروحية الشاملة ، وايصالها إلى مطامحها التي تتجاوز الأرض إلى أعماق السماء ، وتغادر اللحظة الموقوتة العابرة إلى عالم الخلود .. ان حضارة تسعى إلى تغطية متطلبات الغريزة والفكر والوجدان والروح بهذا القدر من التوازن ، لا يمكن أن تبلغ حالة السكون أبداً ، إلا إذا وُجهت اليها ضربة (خارجية) شديدة القسوة تفوق قدراتها العسكرية على الردّ ، وتظل — من ثم — على حركتها الدائمة تلك ، متجاوزة خطوط الأهداف القريبة والبعيدة

التي يستثيرها فيها الإيمان المبدع ، من أجل أن تتجاوزها إلى خطوط هدفية أخرى .

ان الصورة الفذّة التي يطرحها القرآن عن ذلك التناغم الكامل بين الإنسان والطبيعة ، وما وراءها ، وذلك التوازن الرائع بين تسخير القوى المادية (وتصنيعها) وبين عبادة الله سبحانه ، وذلك التقابل المبدع بين النزعتين الجمالية والعملية ، وهذه المعادلة الواضحة بين جبروت الإنسان وقدرته الفعّالة وبين نسبيته وضعفه وحاجته الدائمة إلى الله ، وهذا التأكيد المستمر على حماية الفاعلية البشرية من الجنوح والانحراف بعيداً عن المتطلبات المادية والطبيعية .. نجدها تبلغ القمة في ذلك العرض (الرمزي) — إذا صحّ التعبير — لتجربة داود وسليمان (ع) والتي لم تأت عبثاً : (ولقد أتينا داود منا فضلاً يا جبال أوّبي معه والطير وألنّا له الحديد . ان اعمل سابغات ، وقدّر في السرد ، واعملوا صالحاً ، اني بما تعملون بصير . ولسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه — بإذن ربه — ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء ، من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكراً ، وقليل من عبادي الشكور . فلما قضينا عليه الموت ما دلّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خرّ تبيّنت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين)[٣٧] . وفي مقطع آخر نجده في سورة (ص) نقرأ ، تأكيداً واستكمالاً للموقف (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أوّاب . إنا سخّرنا الجبال معه يسبّحن بالعشيّ والإشراق . والطير محشورة كل له أوّاب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب)[٣٨] . ثم تعود

---

٣٧ سبأ ١٠ — ١٤ .

٣٨ ص ١٧ — ٢٠ .

الآيات لكي تتحدث عن سليمان كرة أخرى (قال : رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي انك أنت الوهّاب . فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب . والشياطين كل بنّاء وغوّاص . وآخرين مقرّنين في الأصفاد . هذا عطاؤنا ! ! فامنن أو أمسك بغير حساب) [39] .

ان هذه المقاطع التي آثرنا الوقوف عندها كنماذج ، من بين عشرات غيرها ، تبين لنا قمة الاندماج الحضاري الفاعل بين الإنسان الكامل والقوى غير المرئية والطبيعة ، في حوارها الخلاّق مع الله سبحانه أخذاً وعطاءاً .. إن طاقات الكون كله تنسجم هنا وتتناغم وتعمل بتوافق رائع في خدمة الإنسان الذي يتوجه إلى الله في أصغر فاعلياته وأكبرها ، حامداً شاكراً عابداً ، للمنعم الذي منحه هذا كله لكي يختار موقعه الصحيح الذي أنشئت الحياة على الأرض من أجله (وما خلقتُ الجن والإنس إلاّ ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) [40] .

« والعبادة التي تطرحها هذه الآية العريضة ليست – كما مرّ بنا – علاقة ثنائية سالبة بين الله والإنسان ، كما انها ليست عطاءً ومنحاً ، احاديّ الجانب ، يشكر الإنسان به ما وهبه الله اياه في نفسه وفي عالمه .. انها حوار ايجابي ، وجدل فعّال ، وممارسة حضارية تسودها علاقات الأخذ والعطاء .. ان هذه الآيات تجيء لكي تعطينا صورة ، من عشرات الصور التي يطرحها القرآن عن طبيعة العلاقة بين الله والإنسان ، وعما تؤول اليه على نطاق النفس البشرية والعالم كله ، حيث لا انفصال – في الإسلام – بين الإنسان والعالم ، ولا انقطاع بين عالمي الحضور والغياب ، وحيث الارتباط الكليّ الذي يضم الإنسان إلى الطبيعة ، إلى ما وراءها

---

٣٩ ص ٣٥ – ٣٩ .
٤٠ الذاريات ٥٦ – ٥٧ .

لكي تتحقق مشيئة الله في إعمار الأرض ، والتوجّه المسؤول صوب خالق الكون والحياة والإنسان وتأدية مسؤولية الخلافة بوعي وأمانة .

« اننا هنا نلتقي باثنين من عباد الله المصطفين ، داود وسليمان (ع) وقد سخرت لهما قوى الطبيعة الهائلة والطاقات الغيبية التي لا تحدّها جدار زماني أو حاجز مكاني ، سخرت جميعاً لكي تعمل تحت إمرة الإنسان المؤمن المسؤول : الجياد ، الطير ، الحديد ، الريح ، القطر (النحاس) الجن ... في عدد مشار اليه من مساحات العمل الحضاري : صناعة وعمراناً وبناءً وفنوناً .. وتثير عجبنا في ميدان هذا النشاط تلك الاشارات الواضحة إلى الحديد والنحاس اللذين قد تبيّن لنا في قرننا العشرين هذا ، كم هما ضروريان أساسيان للحضارة المعاصرة ، ولكل حضارة تريد أن تعمّر وتصنع وتبني وتتفنّن وتطبق .. ويثير عجبنا — كذلك — ان الله سبحانه لم يمنح الحديد فحسب ، لداود ، ولكنه يعلمه كيف يليّنه ، فبدون هذا لن تكون ثمة فائدة لهذا الخام الخطير . ولن ننسى هنا الاشارة إلى (الريح) التي تروح في شهر وتغدو بمثله ، وقد تبين لنا من خلال الدراسات الجغرافية والطبيعية ، كم هي عظيمة خطيرة طاقة الريح هذه في إعمار الأرض والحياة أو في دمارهما وفنائهما على السواء ...

« ان هذه الآيات ، وغيرها كثير ، تقدم لنا الرد الإلهي الحاسم على القائلين بأن الأديان السماوية ما جاءت إلا لكي تقود المؤمنين إلى مواقع الانعزال والسلب والفرار ، وتلقي في روعهم ان الدنيا (قنطرة) وان عليهم أن يعبروها ولا يعمروها .. ومن ثم يغدو (الدين) في تصورهم هذا نقيضاً (للتحضر) ، ويقف الإيمان بمواجهة الخلق والابتكار والإبداع ، وتتحول العلاقة بين الإنسان وخالقه إلى مسألة سكونية (ستاتيكية) تاركة للمذاهب الوضعية أن تأخذ زمام الحركة (الديناميك) من أجل تطوير الحياة وترقيتها .. ان هذا التصوّر الخاطىء مرفوض بالكليّة ، ومستبعد

من أساسه ، وأمامنا شاهد فحسب من مئات الشواهد القرآنية ، التي عرضنا لبعضها في أماكن عدة من هذا البحث ، على هذا الرفض لمواقف اتكالية مهزومة تسعى إلى ان تجعل الدين والتطور عدوّين لدودين .. اننا هنا نلتقي بالإنسان المؤمن ، بل بالنبي ، الذي يبلغ من فهمه عن الله وشكره لنعمائه أن يمنحه خالقه هذا القدر الكبير من القوى المذخورة ، ويكشف له عن هذه الطاقات الطبيعية الهائلة، ويحشر لخدمته الريح والحديد والنحاس والجان والنار .. من أجل ماذا ؟ من أجل أن يبني ويعمّر ويتفنن ويبدع ويبتكر ، ويتقدم بالحياة صعداً على طريق الخلافة المسؤولة ، المؤمنة ، الواعية ، التي لا ينحرف بها هذا النعيم الكبير ، والقدرات المتاحة ، عن التوجّه بالشكر للخلاّق العظيم ، مصدر القوة والطاقة والفاعلية ، وعن التزام الموقع الصحيح في العلاقة المطلوبة بين الله والإنسان . وقليل هم أولئك الذين يظلون في مواقعهم هذه بأمانة كاملة ... ولكن الآيات القرآنية ما تلبث ، في ختام الصورة ، أن تعرض حقيقة أخرى لا تقل أهمية ، لأنها تفعل فعلها الإيجابي في موازنة (الوضع) البشري كيلا ينحرف صوب الكفر والطغيان .. ان الموت بانتظار الجميع ، أنبياء كانوا أم أناساً عاديين، عمالقة كانوا أم أقزاماً ، ملوكاً أم فقراء .. انه نهاية المطاف لبني آدم جميعاً ، والسقطة التي لا بدّ منها للمرور إلى يوم الحساب ، وان عليهم أن يتذكروا هذا ، لأن الرجل النبيّ الذي سُخرت له طاقات الكون، ومنح النحاس والحديد وحشرت تحت قدميه النار والجان والرياح، ينتهي به الأمر إلى الموت، لكن ما تلبث الديدان، أقذر الحشرات وأحطّها، أن تأكل منسأته وهو ميّت لا يحس ولا يشعر »[41].

ان القرآن يقف بنا دائماً في نقطة التوازن الخلاّقة ، انه في هذه الصورة يبدأ بايصال الإنسان إلى قلب القوى الطبيعية ، ويحشرها في خدمته من

٤١ عن كتاب (آفاق قرآنية) للمؤلف ص٢٢٧ - ٢٣٠

أجل الإعمار والبناء ، فيسكت القائلين بالتعارض بين العلم والدين ، ولكنه ما يلبث في نهاية العرض أن يوقف الإنسان عند حدود (الحكمة) التي يفترضها الإيمان بوجود الله الأقدر والأعلم ، والتي تجيء بمثابة (فرامل ضابطة) تنظم سير القوى المسخّرة للانسان ، وتمنعه — في الوقت نفسه — من الجنوح باتجاه الجبروت والطغيان ، واعتماد هذه الطاقات الهائلة للإبادة والدمار ، وحصانة تفرّده وتقدّمه في الأرض ..

وهذا ، لو تحقق ، فانه سيؤول ، بطبيعة الحال ، إلى وضعية مضادّة للتحضر والتطور ، وضعية لا تقل في سلبيّتها وخطورتها عن تزييف الموقف الديني ودفعه إلى الرفض والفرار بمواجهة الدخول إلى قلب العالم والإسهام في تحضيره وتطويره .

وفي سورة (الحديد) نقرأ هذه الآية (لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، ان الله قويّ عزيز) [٤٢] .

« سورة الحديد ؟ هل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من تسمية سورة كاملة باسم خام من أهم وأخطر خاماتها ؟ هل ثمة أكثر اقناعاً لنزعة التحضر والابداع والبناء ، التي جاء الإسلام لكي يجعلها جزءاً أساسياً من أخلاقيات الإيمان وسلوكيته في قلب العالم ، من هذه الآية التي تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها الله لعباده ، وتعرض معها المسألة في طرفيها اللذين يتمخضان دوماً عن الحديد : (البأس الشديد) متمثلاً باستخدام الحديد كأساس للتسلّح والاعداد العسكري ، (والمنافع) التي يمكن أن يحظى بها الإنسان من هذه المادة الخام في كافة مجالات

---

٤٢ الحديد ٢٥ .

نشاطه وبنائه (السلميّ) ؟ وهل ثمة حاجة للتأكيد على الأهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن ، في مسائل السلم والحرب ، وانه غدا في عصرنا الراهن هذا ، وسيلة من أهم الوسائل في ميادين القوى الدولية سلماً وحرباً ؟ إن الدولة المعاصرة التي تملك خام الحديد تستطيع أن (ترهب) أعداءها بما يتيحه لها هذا الخام من مقدرة على التسلّح الثقيل .. وتستطيع — أيضاً — أن تخطو خطوات واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعاتها وغناها ؟ !

« اننا هنا بإزاء الحلقة ، أو المستوى الثالث ، من مستويات المنهج القرآني في التعامل مع الطبيعة ، تلك المستويات التي يعمل أولها في الاطار (الفلسفيّ) حيث التأمل العميق في الكون والعالم من أجل الوصول إلى الله وادراك قدرته الخلاقة ، واحاطته الشاملة . ويعمل ثانيها وثالثها في الإطار (العلمي) ، إذ بينما يتجه أحدهما إلى حثّ الإنسان المسلم على دراسة الكون والعالم للكشف عن القوانين التي تحكمها ، ومحاولة الاحاطة بأكبر قدر منها ، فيما يعرف اليوم بالعلوم (المحضة) أو (النظرية) ، يتجه آخرهما إلى تحريك الإنسان المسلم باتجاه استخدام هذه المعرفة العلمية للقوانين الطبيعية ، استخداماً (تطبيقياً) في واقع حياته من أجل تغيير هذا الواقع صوب الأحسن والأرقى .. وليس هذا الموقف من خام الحديد ، بأبعاده المختلفة ، سوى مثل من الأمثال العديدة المنبثة في القرآن الكريم حول هذه الحلقة الثالثة من حلقات التعامل مع الطبيعة والعالم .

« ان كل موقف قرآني يشكل وحدة عضوية لا تنفصم عراها ، يمكن أن نحظى بأبعادها وصيغتها النهائية بمجرد أن نجمع إلى بعض كل الآيات التي تغذّي هذا (الموقف) وتشكل مادته الحيّة : في الاقتصاد ، في الاجتماع ، في السياسة ، في الادارة ، في النفس ، في العلاقات الدولية ، في العقائد ، في الآداب ، في المعاملات .. إلى آخره .. في كل قطاع

من هذه القطاعات نلتقي بعدد من المواقف المتكاملة المحبوكة التي تصنعها وتصورها وتمنحها شكلها النهائي مجموعة من الآيات المنبثة في ثنايا القرآن .

« والآن ونحن نتكلم عن الحديد نلتقي بسورة كاملة بهذا الاسم ، ونتذكر في الوقت نفسه الآيات السابقة من سورة (سبأ) التي تذكر **نعمة الله على داود بتليين الحديد له، أو تعليمه كيف يلين الحديد!!** وهي بصدد الحديث عن الإعمار والبناء والتصنيع ، ونتذكر أيضاً ذا القرنين وهو ينادي الجماعة المضطهدة لكي يحميها من الغزاة (آتوني زبر الحديد ، حتى إذا ساوى بين الصدفين قال : انفخوا ، حتى إذا جعله ناراً قال : آتوني أفرغ عليه قطراً ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً) [43] . وتفرض آية أخرى نفسها لإتمام المسألة ، تلك التي تنادي الجماعة الإسلامية : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) [44] . لكي ما يلبث الإنسان المسلم والجماعة المسلمة أن يعتمدا الحديد، هذا الخام الخطر المذكور في عدد من المواضع، والذي سميت إحدى السور باسمه، مادة أساسية لإعداد (القوة) وارهاب الأعداء ، في عالم يضيع فيه ويداس من لا يملك القدرة على ارهاب أعدائه ، هذه القدرة التي ترتبط دوماً بمدى النمو الحضاري ارتباطاً عضوياً ، وتسير معه في نفس المنحنيات التي يجتازها في أغلب الأحيان .

« ولا بد أن نلتفت — أخيراً — إلى هذا التداخل العميق والارتباط الصميم في آية الحديد ، بين إرسال الرسل وانزال الكتب معهم ، وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس ، وبين انزال الحديد الذي يحمل في طياته (البأس) ، ثم التأكيد على ان هذا كله انما يجيء لكي يعلم الله

---

٤٣ الكهف ٩٦ — ٩٧ .

٤٤ الأنفال ٦٠ .

(من ينصره ورسله بالغيب) و (ان الله قوي عزيز) . ان هذا الموقف المتشعب المتداخل يعود بنا ثانية إلى ما سبق وأن ذكرناه من أن الإسلام جاء لكي يشدّ الإنسان إلى أعماق الأرض ، ويدفعه إلى التنقيب فيها من أجل إعمارها وحمايتها .. وان المسلم لن تحميه وتنصره إلاّ يده المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد وتصوغه من أجل الحماية والتقدم والنصر .. وانه — بمجرد أن يتخلى عن موقفه الفعال هذا ، الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحركة الجهاد الدائمة ، ويختار ، بدلاً من ذلك ، مواقع الفرار والاتكال والانتظار السالب لمعونة الله — فانه يتناقض مع نفسه وعقيدته ، وانه سيهزم لا محال ، ما دام قد أشاح عن هذه المواقف القرآنية التي تكاد تصرخ بأعلى نبرة أنه بدون الاعتماد الواعي ، المسؤول ، الذكي ، الخبير ، على مصادر القوة والبأس فلن يكون هنالك (نصر) ولا (تقدم) ولا (حماية) للموازين والقيم العادلة التي جاء الأنبياء ، بكتبهم السماوية ، لتنفيذها في الأرض ، حتى ولو حبس المؤمنون أنفسهم ، في المساجد ، السنين الطوال ، يبكون ويتضرّعون » !! [45] .

* * *

إن (الإيمان) الذي يقوم عليه بنيان الدين ، يجيء دائماً بمثابة (معامل حضاري) يمتد أفقياً لكي يصبّ ارادة الجماعة المؤمنة على معطيات الزمن والتراب ، ويوجهها في مسالكها الصحيحة ، ويجعلها تنسجم في علاقاتها وارتباطاتها مع حركة الكون والطبيعة ونواميسها ، فيزيدها عطاءً وقوة وايجابية وتناسقاً .. كما يمتد عمودياً في أعماق الإنسان لكي يبعث فيه الإحساس الدائم بالمسؤولية ، ويقظة الضمير ، ويدفعه إلى سباق زمني لا مثيل له لاستغلال الفرصة التي أتيحت له كي يفجّر طاقاته ويعبّر عن قدراته

التي منحه الله اياها ، على طريق (القيم) التي يؤمن بها و (**الأهداف**) التي يسعى لبلوغها ، فيما يعتبر جميعاً — في نظر الإسلام — عبادة شاملة يتقرب بها الإنسان إلى الله . وتجيء مصداقاً للآية (وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون) .

ويتحدث القرآن الكريم عن هذا (السباق) الحضاري عندما يصف المؤمنين بأنهم (يسارعون في الخيرات) وانهم (لها سابقون) ، وفي كلا التعبيرين نلمس بوضوح فكرة (الزمن) ومحاولة اعتماده لتحقيق أكبر قدر ممكن من المعطيات ، ما تلبث أن ترتقي — بمقاييس الكم والنوع — بمجرد أن يتجاوز (المسلم) مرحلة الإيمان ، إلى المراحل الأعلى التي يحدثنا عنها القرآن في أماكن عديدة : (التقوى) و (الاحسان) ! !

وهكذا تجيء (التجربة الإيمانية) لا لكي تمنح الحضارة ، في مرحلة نموّها ، وحدتها وتفرّدها وشخصيتها وتماسكها ، وتحميها من التفكك والتبعثر والانهيار ، فحسب ، وانما لكي ترفدها بهذين البعديْن الأساسين اللذين يؤول أولهما إلى تحقيق انسجامها مع نواميس الكون والطبيعة : (أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من في السماوات والأرض ، طوعاً وكرهـاً ، واليه يرجعون ؟) [٤٦] . . (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين) [٤٧] .... ويعطيها ثانيهما قدرات إبداعية أكثر وأعمق ، تتفجر على أيدي أناس يشعرون بمسؤوليتهم ، ويعانون يقظة ضمائرهم، ويسابقون الزمن في عطائهم ، لأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ، و (لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً) [٤٨] .

---

٤٦ آل عمران ٨٣ .

٤٧ آل عمران ٨٥ .

٤٨ القصص ٨٣ .

والواقع ان القرآن ، وهو يحض المؤمنين على التسارع الحضاري عملاً وانجازاً وابداعاً مسؤولاً ، ويعلن رفضه للكسل والقعود والاتكال ، والعبور السالب للعالم دونما انشاء أو تغيير أو اعمار .. لا يتجاوز ، انطلاقاً من موقفه الوسطيّ الشامل ، مسألة في مقابل هذا كله ، على غاية في الأهمية ، لأنها تعدّ إحدى الملامح الأساسية الفاصلة بين التجربتين الحضاريتين : الدينية والوضعية : تلك هي التأكيد الدائم على ان حياة الإنسان في الأرض ، فرداً وجماعة ، ليست أبدية دائمة ، انما هي عابرة موقوتة ، وان معطياته فيها ليست خالدة باقية انما هي معرضة — في أية لحظة — للدمار والزوال ، بناء على طبيعة (الحياة الدنيا) القائمة على التغير والتنوع ، والصعود والهبوط ، والميلاد والموت .. وان الحياة الحقيقية هي الحياة الأخرى التي تتميز بالبقاء والدوام ، والتي كتب للانسان فيها الخلود المطلق . ومن ثم فان كل ما يقدمه في هذه الحياة الفانية من أعمال ومنجزات يجب ألاّ يكون هدفاً بحد ذاته ، كما هو الحال في جلّ التجارب الوضعية ، انما وسيلة فحسب لتهيئة الحياة الدنيا لعبادة الله وحده ، وايجاد المناخ المناسب لممارسة الاستخلاف التي جاء الإنسان إلى العالم لأدائها . وهكذا يغدو الإنجاز الحضاري في الإسلام وسيلة إلى غاية أكبر ، ويكتسب في في الوقت ذاته أخلاقية كبرى ، لا نجدها في سائر الحضارات ، تصدّه عن استخدام طاقاته وقدراته في غير الطريق الذي تحتّمه هذه الغاية الشريفة ، البعيدة التي لا تقف عند حدّ .

ان القرآن ، من أجل أن نظل دوماً في الموقف الوسط الذي يميزنا عن سائر المواقف القلقة ، النسبية ، المتأرجحة ، يحدثنا في أكثر من موضع ، ووفق أشد الصور إثارة ، عن هذه المسألة ، إلا انه يجب ألا يخطر ببالنا لحظة ، ان في هذه الصور والآيات دعوة للزهد أو الفرار ، لأن هذا يمثل تناقضاً أساسياً مع معطيات القرآن كله وتأكيده في مئات المواضع

على ضرورة العمل والابداع .. انما هو تقرير للحقيقة النهائية ، وتثبيت للموازين العادلة ، وعرض مقارن لعالمي الفناء والبقاء ، ورؤية للمؤمنين تصدّهم عن الافساد والطغيان :

(وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون) [49] .

(اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرّاً ، ثم يكون حطاماً ، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) [50] .

(واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدراً . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً) [51] .

ويتضح هذا المعنى الأخلاقي الايجابي للمسألة من خلال العديد من الآيات التي تندّد بالغرور البشري الذي ينبثق دائماً عن الالتصاق الكامل بالحياة الدنيا ، ويتمخض أبداً عن الظلم والافساد والطغيان :

(ذلك بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً ، وغرتكم الحياة الدنيا ...) [52]

(وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ، وغرّتهم الحياة الدنيا ..) [53]

(وغرّتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) [54]

---

٤٩ العنكبوت ٦٤ .
٥٠ الحديد ٢٠
٥١ الكهف ٤٥ - ٤٦ .
٥٢ الجاثية ٣٥
٥٣ الأنعام ٧٠ وانظر الاعراف ٥١ .
٥٤ الأنعام ١٣٠ .

(فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) [55] .

(كل نفس ذائقة الموت ، وانما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور) [56]

(بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضاً الا غروراً) [57] .

والغرور ، احساس مَرضيّ أشبه بالورم الخبيث الذي يمنع التقدير الموضوعي الصحيح لأحجام الاشياء .. وحيثما تلفّتنا وجدنا الشيطان ، عدوِ الإنسان ، يكمن وراءه وينفخ فيه :

(يعدهم ويمنيهم ، وما يعدهم الشيطان الا غروراً) [58] .

(وما يعدهم الشيطان الا غروراً) [59] .

(وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوّاً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون . ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه ، وليقترفوا ما هم مقترفون) [60] .

ونسبية التجارب البشرية ، وعدم دوامها ، لا تبدوان فقط بعرضهما على مطلقات الآخرة وخلودها ، انما من خلال حركة التاريخ البشري كذلك .. الحركة الدائمة التي ترفع وتخفض ، وتقدم وتؤخر ، وتنشىء وتعيد ، بارادة الله ، ووفق نواميسه في الكون :

---

٥٥ لقمان ٣٣ وانظر الحديد ٢٠ .
٥٦ آل عمران ١٨٥ .
٥٧ فاطر ٤٠ .
٥٨ النساء ١٢٠ .
٥٩ الاسراء ٦٤ .
٦٠ الأنعام ١١٢ – ١١٣ .

(انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، مما يأكل الناس والأنعام ، حتىً إذا أخذت الأرض زخرفها ، وازّيّنت ، وظن أهلها انهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً ، كأن لم تغنَ بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) [٦١]

وسنقف طويلاً عند هذه المسألة لدى حديثنا عن (سقوط الحضارات) .

---

٦١ يونس ٢٤ .

٥

وما دام نشوء الحضارات ونموّها من جهة ، وتدهورها وسقوطها من جهة أخرى، يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بمسألة (الصراع) وما يرافقه من (حركة) و (تناقض) أو (توازن) ، كان لنا أن نقف عندها بعض الشيء في محاولة لتتبع أبعاد (الصراع) الحضاري قبل أن نمضي إلى مدارج السقوط التي يحدثنا عنها القرآن فيُطيل الحديث . ولقد مرّ بنا كيف أن أهم المعطيات الهيغلية تتمثل في ذلك التأكيد الدائم على ان الحركة الحضارية إنما تحقق مسيرتها صوب الأحسن والأكمل عن طريق الصراع المستمر بين النقائض في عالم الأفكار ، ذلك الصراع الذي يتقابل فيه النقيضان لكي ما يلبثا أن يسقطا عنهما كل سيآتهما وسلبياتهما . ويلتقيان — من ثم — في موحّد يجمع خير ما فيهما .. ثم ما يلبث هذا الموحّد بدوره ان يصطرع مع نقيضه لخلق موحّد جديد يؤول إلى (تعبير) أرقى عن فكر العالم ، وإلى مزيد من الاقتراب صوب المرحلة التي يتجلّى فيها العقل الكلّي في حضارة بشرية لا تعدو أن تكون مرآة نقية تعكس بهندسية كاملة وأمانة لا ريب فيها أبعاد ومعطيات ذلك العقل الكلّي الذي — بأمرٍ منه — نشب الصراع بين النقائض وقاد ، بايجابية لا تعرف تردداً ولا رجوعاً إلى الوراء، صوب المثل الحضاري الأعلى .

وجاء روّاد التفسير المادي (ماركس وأنكلز) لكي يأخذوا عن هيغل

نظريته في صراع النقائض كأساس للحركة الحضارية ، وليجرّدوه بعد من كل حسنة .. قالوا انه (مثالي) يتشبث بالمواقف التي لا يقرها العلم ولا المنطق التجريبي ، وان كتاباته تتميز – لذلك – بكثير من التعقيد والغموض الذي لا طائل وراءه .. وانه لم يدرك الساحة الحقيقية لاصطراع النقائض فعزاها إلى عالم الأفكار ، والحال ان مسرحها الحقيقي هو المادة، ووسائل الانتاج بالذات، تلك التي تخلق ظروفها الانتاجية فصيغها الحضارية ... وسخر ماركس منه عندما اتهمه بخلقه رجلاً يمشي على رأسه .. الا ان التفسير الماديّ ما لبث أن تعرض لنقد أشد مرارة لأنه قصر نطاق الحركة (الديالكتيكية) على ساحة التبدل في وسائل الانتاج ، وكان بامكانهم أن يقولوا ان ماركس ، وقد سعى إلى تعديل وضعية الرجل الهيغلي الذي يمشي على رأسه ، قد أخطأ المحاولة وجعل الرجل المسكين يمشي على بطنه !! على معدته !! .

وعندما جاء (توينبي) طرح نظريته في (التحدّي والاستجابة) مفسراً بها حركة الحضارات قياماً ونمواً وتدهوراً وسقوطاً وانحلالاً . فحيثما كان التحدي البيئي أو البشري مناسباً في حجمه لمقدرة الجماعة البشرية ، وحيثما كانت الجماعة في وضع تاريخي يمكنها من الردّ على التحدي ، حيثما كان للحضارة ان تتقدم وللحركة أن تواصل مساعيها لايصال المعطيات الحضارية إلى قمة منحناها . وبالعكس ، تؤول الحركة إلى التعثّر ، والحضارة إلى الانتكاس، حيثما جاء (التحدّي) دون ، أو اعلى ، من الحدّ المناسب ، أو عجزت الجماعة عن الاستجابة له والردّ عليه بقدر كافٍ من القوة والفاعلية .

ان هيغل كما يتبين لنا يقصر الصراع على نطاق الأفكار ويردّه إلى مشيئة العقل الكلّي الذي يعمل من خلال العالم نفسه ، لا من موقع (فوقي) كما قد يتوهم البعض فيقربه – خطأ – من التصوّر الديني ، وهو بهذا

بجرّد الانسان والجماعة البشرية من اختيارها الحرّ ، ودورها الارادي في حركة التاريخ . والماديّون يفعلون الشيء نفسه ، ولكن على مستوى المادّة التي يجد الانسان والجماعة البشرية أنفسهم حيالها غير قادرين على تغيير منطقها الجدلي الصارم الذي يمضي إلى غايته دونما أي اختيار أو تدخل بشري في طبيعة علاقاته الديالكتيكية .. أما توينبي فيقترب بنا خطوات واسعة صوب الرؤية الصحيحة والنظرة الأكثر انفتاحاً عندما يضع على ساحة الصراع والحركة طرفي المسألة : (البيئة) و (الانسان والجماعة) ، ويعطي للجانب الآخر اختياره وحريته في تقرير المصير .

الا ان أياً من روّاد هذه المذاهب التفسيرية الثلاثة (المثالية ، المادية ، الحضارية) لم يأتوا بجديد ، في أهم جوانب معطياتهم على الاطلاق ، وهو التأكيد على ان محور الفاعلية الحضارية ، وأسّ الأسس في الحركة التاريخية هو الصراع ، أو الجدل (الديالكتيك) أو تحاور النقائض المتقابلة .. وليس ثمة داع للاشارة إلى تكرار ورود هذه المسألة على ألسنة كثير من مفكري القرون القديمة والوسطى ... فالذي يعنينا هنا هو الموقف الإسلامي ازاء (الصراع) مستمداً من كتاب الله .

بمجرد أن نرجع إلى واقعة خلق آدم ، سنلتقي بهذا المقطع (.. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ..) .. الصراع في أول لحظة .. ذلك هو جوهر الحياة البشرية وتميزها عن سائر الحيوات الأدنى أو الأرقى ..

ولكن أي صراع هذا الذي يطرحه القرآن ؟ وما هي مساحاته وأبعاده ؟

إذا تتبعنا المعطيات القرآنية حول هذه المسألة وجدنا كتاب الله يمدّ (الصراع) إلى أبعد الأمداء ، طولاً وعرضاً وعمقاً ، بالاتجاهين العمودي والأفقي ، ويخصص له أوسع المساحات .. انه ما يلبث ، في آيات أخرى ، ان يغادر به ، محوره الأساسي : التقابل المتضادّ بين آدم والشيطان، إلى آفاق أخرى تعطيه صورته الكاملة والمقنعة في الوقت نفسه .. انه على مستوى الكون والطبيعة متوغل في صميم تركيبهما ، وعلى مستوى الإنسان والبشرية قائم في مدى علاقاتهما جميعاً .

في الكون والطبيعة هنالك التقابل الشامل بين السالب والموجب ، والتركيب الزوجي الذي يتجاوز عوالم الحياة على اختلاف درجاتها إلى صميم المادة .. وهو في كل الأحوال والأوضاع مصدر التوليد والتكاثر والاتساع والحركة الإيجابية الهادفة التي تؤول إلى ديمومة الاتساع الكوني الذي يتم بارادة الله من خلال النواميس الطبيعية الدقيقة المعجزة القائمة على هذا التحاور والتقابل بين (الأزواج) سلباً وايجاباً ، والذي يجيء مصداقاً لما أعلن عنه القرآن الكريم (والسماء بنيناها بايدٍ وإنا لموسعون) [1] .. نقرأ في كتاب الله :

(أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ؟) [2] .

(وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) [3] .

(وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) [4] .

(ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) [5] .

(سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) [6] .

---

١ الذاريات ٤٧ .
٢ الشعراء ٧ .
٣ لقمان ١٠ .
٤ ق ٧ .
٥ الذاريات ٤٩ .
٦ عبس ٣٦ .

(والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون)[7].

(وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) [8] .

وآيات أخرى كثيرة تشير إلى مدى ارتباط هذا التركيب الثنائي الفعّال في بنية الكون والطبيعة . واننا لنلتقي ، في الآيات السابقة ، بعبارات تثير التأمل العميق في هذه المسألة (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) (سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) .. ومهما كشفت علوم الطبيعة والرياضيات من أسرار هذه (الزوجية) في قلب الذرة ، فانها لم ولن تضع يدها بالكليّة على (مطلق) خفايا الكون ، وسوف تظل جوانب هائلة ومساحات شاسعة بحاجة إلى مزيد من الجهود العلمية ، التي يمكن أن تبذل على مدى قرون وقرون للكشف عن السرّ الكامل لهذا التركيب الثنائي ودوره في (تحريك) خلق الله ! !

* * *

على مستوى الإنسان والبشرية يأخذ الصراع ، أو التناقض ، أو التقابل الثنائي الفعّال ، أكثر من شكل ، ويمتد إلى أكثر من اتجاه .. منذ اللحظة الأولى لخلق آدم يجابه الإنسان بقوة الشرّ المقابلة متمثلة بالشيطان ، وكل ما يملك من أساليب يدهم بها الإنسان من الخارج أو يبرز له من الاعماق، من صميم الذات .. يجيئه من مسارب العاطفة والوجدان والنفس ، أو يندفع اليه من منافذ الحسّ، أو يستصرخ فيه شهوات الجسد، أو يتقدم اليه محمّلاً ببهرج الدنيا وزينتها .. يجند لقتاله والمروق به عن ساحة الخير ، كل القوى المادية والمعنوية وكل الذين يختارون — بارادتهم — أن ينتموا اليه أناساً كانوا أم شياطين أم جنّاً .. ورغم ان أسلحة الشيطان كثيرة ،

---

٧ الزخرف ١٢ .　　٨ طه ٥٣ .

متنوعة ، عاتية ، الا ان الإنسان قد وهب ازاءها قوى معادلة وامكانات مكافئة تعطي للصراع الدائم بين الطرفين مدى واسعاً ، ممتداً ، بحيث ان النصر والغلبة لن تجيء بسرعة ، سهلة ، كالضربة الخاطفة لأي منهما .. إن هذه (المقابلة) تمثل تحدياً واستفزازاً لا بدّ منهما (لتحريك) الإنسان فرداً وجماعة صوب الأحسن والأمثل ، وصقل طاقاتهما لكي يكونا أكثر مقدرة على المقاومة والصراع وبالتالي أقدر على مواصلة الصعود في الطريق الموصول بالسماء بدءاً ومنتهى

ان الصراع بين الشيطان والإنسان ، شامل واسع معقد متشابك ، انه تقابل بين الخير والشرّ على أوسع الجبهات ، تقابل لا بدّ منه إذا ما أريد للحياة البشرية أن تتجاوز الكسل إلى النشاط ، والفتور إلى التمخض ، والسكون إلى الحركة . انه ابتلاء فعّال لن يأخذ تاريخ البشرية — بدونه — شكله الايجابي ولا يمضي إلى غاياته المرسومة منذ هبوط آدم — ولا نقول سقوطه ،الكلمة التي لم ترد أبداً في أي مقطع قرآني يتحدث عن آدم — إلى يوم الحساب !! (كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة وإلينا ترجعون) [9] .

(وكذلك فتنّا بعضهم ببعض) [10] .

(قال : فإنا قد فتنّا قومك من بعدك وأضلّهم السامريّ) [11] .

(ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)[12].

(ولقد فتنّا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم) [13] .

(وظنّ داود انما فتناه ، فاستغفر ربّه وخرّ راكعاً وأناب) [14] .

---

٩ الأنبياء ٣٥ .
١٠ الأنعام ٥٣ .
١١ طه ٨٥ .
١٢ العنكبوت ٣ .
١٣ الدخان ١٧ .
١٤ ص ٢٤ .

(ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني) [15] .

(ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) [16] .

(أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟) [17] .

(واعلموا انما أموالكم وأولادكم فتنة وان الله عنده أجر عظيم) [18] .

(وإن ادري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) [19] .

(ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض ..) [20] .

ويبقى نداء الله الدائم للبشرية (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان) [21] . محوراً كبيراً يدور عليه الصراع ، والحركة ، والتقدم إلى أمام أو الرجوع إلى وراء .. ورغم ان الله سبحانه وهب بني آدم قدرات العقل والروح والارادة والعمل ، وعلّمهم الأسماء كلها ، الا انه — سبحانه — لم يتركهم وحدهم في تجربة صراعهم في الأرض ، وظل يمدّهم حيناً بعد حين ، بتعاليم السماء وشرائعها العادلة وصراطها المستقيم الذي يحيل حركة البشرية في العالم إلى حركة متقدمة ابداً في خط متوازن صاعد لا رجوع فيها إلى وراء ..

(قال : اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم مني هدى ، فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) [22] .

(الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا

---

١٥ الحديد ١٤ .
١٦ البروج ١٠ .
١٧ العنكبوت ٢ .
١٨ الأنفال ٢٨ .
١٩ الأنبياء ١١١ .
٢٠ الحج ٥٣ .
٢١ الأعراف ٢٧ .
٢٢ طه ١٢٣ — ١٢٤ .

أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)[٢٣] .

(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق)[٢٤] .

وأشدّ ما يرفضه القرآن في دعوة البشرية للإفادة من هذا الصراع وتحويله إلى حركة متقدمة صاعدة ، هي نزوع بعض الزعامات والجماعات إلى الوراء ، ومواقفهم الرجعية التي ترفض أية دعوة تسعى لكي يحتلوا مواقع في الامام :

(أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟)[٢٥].

(واذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ؟)[٢٦].

(واذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا)[٢٧] .

(قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟)[٢٨] .

(الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحلّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون)[٢٩] .

(قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون)[٣٠] .

---

٢٣ البقرة ٢٥٧ .
٢٤ الأنبياء ١٨ .
٢٥ المائدة ٥٠ .
٢٦ المائدة ١٠٤ .
٢٧ الأعراف ٢٨ .
٢٨ الأعراف ٧٠ .
٢٩ الأعراف ١٥٧ .
٣٠ الشعراء ٧٤ .

(ان هذا الا خلق الأولين) [٣١] .

(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟) [٣٢] .

(وانهم ألفوا آباءهم ضالين. فهم على آثارهم يُهرعون . ولقد ضل أكثر الأولين) [٣٣] .

(بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قل : أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون) [٣٤] .

* * *

والصراع المتنوع المتقابل قائم أيضاً في صميم العلاقات البشرية ، تستقطبه دائماً عبر مجراه الطويل كلمتا الايمان والكفر أو الحق والباطل ، وترفده جداول وأنهار متشابكة تجيء من هذا الصوب أو ذاك .. ومن خلال هذا الصراع الطويل تتحرك مياه التاريخ فلا تركد ولا تسكن ، وتحفظ بهذا قدرتها على الجودة والنقاء .

إن الارادة الحرّة ، والاختيار المفتوح اللذين منحا للانسان فرداً وجماعة ، للانتماء إلى هذا المذهب أو ذاك ، يقودان — بالضرورة — إلى عدم توحّد البشرية وتحوّلها إلى معسكر متشابه واحد أو أرقام في جداول رياضية صمّاء .. إن قيمة الحياة الدنيا وصيرورتها الحضارية الدائمة تكمن في هذا الصراع القائم بين كتل البشرية المختلفة المتضادّة الموزعة .. وان حكمة الله شاءت ، حتى بالنسبة للكتلة أو المعسكر الواحد ، أن تشهد

---

٣١ الشعراء ١٣٧ .

٣٢ البقرة ١٧٠ .

٣٣ الصافات ٦٩ — ٧١ .

٣٤ الزخرف ٢٢ — ٢٤ .

انقساماً وتغيراً وتنوّعاً وصراعاً .. هذه هي طبيعة العلاقات البشرية ما دامت تمارس حريتها في الأخذ والعطاء،وتلك هي ارادة الله المسبقة في أن تكون حياة الناس مغايرة نوعياً لحياة الخلائق الأخرى الأعلى مرتبة أو الأدنى سلّماً .

إن القرآن الكريم يحدثنا عن هذا التغاير الذي يقوم عليه الصراع البشري في أكثر من صورة ووفق أشد الصيغ واقعية ووضوحاً :

(ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ، ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من وليّ ولا نصير) [٣٥] .

(لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات) [٣٦] .

(وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون) [٣٧] .

(ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم !!) [٣٨] .

(ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسئلن عما كنتم تعملون) [٣٩] .

(لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ، فلا يُنازعنّك في الأمر ، وادع إلى ربك انك لعلى هدىً مستقيم) [٤٠] .

(ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم أفأنت تكره الناس حتى

---

٣٥ الشورى ٨ .
٣٦ المائدة ٤٨ .
٣٧ يونس ١٩ .
٣٨ هود ١١٩ .
٣٩ النحل ٩٣ .
٤٠ الحج ٦٧ .

يكونوا مؤمنين ؟) [٤١] .

(كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات، بغياً بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق، باذنه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) [٤٢] .

(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض .. ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ، ولكن اختلفوا ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد) [٤٣] .

أكثر من هذا ، ان القرآن ، انطلاقاً من موقفه الواقعي في التفسير ، يبين في أكثر من موضع ان (الاكثريات) البشرية تقف دائماً بمواجهة الحق ، الذي لا تنتمي اليه الا القلة الطليعية الرائدة ، نظراً لما يتطلبه هذا الانتماء من جهد وتضحية وعطاء دائم لا يتقبلها الكثيرون :

(بل جاءهم بالحق ، وأكثرهم للحق كارهون) [٤٤] .

(بل جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون) [٤٥] .

الا ان مصادر القوة والطاقة في صراع الحق والباطل لا تكمن — كما يعلمنا القرآن — في التباين العددي ، وهو تباين كمّي لا يقاس بالتباين النوعي الحاسم بين معسكري الايمان والكفر (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون) [٤٦] .

وكثيراً ما يكون اختلاف الألسنة والألوان — الذي هو بحدّ ذاته صيغة

---

٤١ يونس ٩٩ .
٤٢ البقرة ٢١٣ .
٤٣ البقرة ٢٥٣ .
٤٤ المؤمنون ٧٠ .
٤٥ الزخرف ٧٨ .
٤٦ الأنفال ٦٥ .

من صيغ الابداع الإلهي المعجز – والذي يعقبه تغاير الثقافات والقوميات ، أحد العوامل الكبيرة التي تكمن وراء الصراع البشري المحتوم ، ومن ثم يذكرنا القرآن به :

(ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون .. ومن ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ان في ذلك لآيات للعالمين) [٤٧] .

اما عن الهدف من وراء هذا (التغاير) البشري الذي يعقب تناقضاً فصراعاً فتحركاً .. فان القرآن يجيبنا عن كل سؤال يمكن أن يبرز في هذا المجال :

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين) [٤٨] .

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) [٤٩] .

تلك هي القاعدة الأساسية ، ان هذا التدافع والصراع المركوز في جبلّة بني آدم يقود إلى (تحريك) الحياة نحو الأحسن ، وتخطي مواقع الركون والسكون والفساد،ومنح القدرة للقوى الإنسانية الخيرة كي تشدّ عزائمها وتصقل قدراتها المقاومة الصاعدة في غمرة التحديات المتعاقبة التي يطرحها الصراع ، وأن تسعى لتحقيق المجتمع المؤمن الذي ينفّذ أمر

---

٤٧ الروم ٢٠ – ٢٢ .
٤٨ البقرة ٢٥١ .
٤٩ الحج ٤٠ – ٤١ .

الله في العالم وفق القاعدة الايمانية العريضة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ، على امتداد هذه القاعدة .

وثمة آيات أخرى تبين لنا كيف يكون الصراع (ميداناً) حيوياً للكشف عن (مواقف) الجماعة البشرية والتعرف على أصالة المؤمنين. ففي جحيم المعارك، وعلى وهجها المضيء، يتضح الذهب من التراب ، ويتميز الطيب من الخبيث ، وتتحول (التجربة) إلى منخال كبير ، يُسقط ، وهو يتحرك يميناً وشمالاً ، كل الضعفة والمنافقين والعاجزين والمترددين في مواصلة الحركة صوب المصير المرسوم :

(ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) [٥٠] .

(وليميز الله الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون) [٥١] .

(أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون) [٥٢] .

(أحسب الناس أن يُتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكافرين) [٥٣] .

(ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض) [٥٤] .

وفي آية أخرى يحدثنا القرآن الكريم عن رؤية الانسان القاصرة التي تعجز عن النفاذ إلى ما وراء الاحداث ، والتي لن تقدر مهما أوتيت من طاقة ، على الامتداد الزمني لتقدير عواقب الأمور .. وما أكثر ما يتساءل الإنسان عن الحكمة من التقاتل والقصد من سفك الدم البشري ، وما أكثر ما تخيّل الفلاسفة والمفكرون عالماً بشرياً ، لا يشهد قتالاً ،ولا تسفك في

---

٥٠ محمد ٣١ .
٥١ الأنفال ٣٧ .
٥٢ التوبة ١٦ .
٥٣ العنكبوت ٢ – ٣ .
٥٤ محمد ٤ .

ساحته دماء ... ولكن هيهات ، ما دامت المسألة مرتبطة في جذورها بالوجود البشري المتغاير المتنوع المتضاد المتصارع على الأرض ، وما دام (الصراع) أمراً لا مفر منه إذا ما أريد للحياة الإنسانية أن تتحرك وتتقدم وتتجاوز مواقع السكون والركود والفساد (كُتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم،وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) [٥٥] . هكذا ، دائماً تجيء رؤية الله الشاملة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها لكي تتمّم رؤية الإنسان وتنير لها الطريق.. (فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) [٥٦] .

إلا ان القرآن،وهو يتحدث عن (الصراع)الناجم عن التغاير البشري في المذاهب والأجناس واللغات والبيئات الجغرافية ، لا يقصر المسألة على التقاتل والتدافع ، انما يمدها إلى ساحة أوسع ، ويعطي للصراع البشري آفاقاً بعيدة المدى تبدأ باشهار السلاح وتمتد لكي تصل إلى الموقف الأكثر ايجابية والذي يجعل هذا التغاير البشري سبباً لعلاقات انسانية متبادلة بين الأمم والأقوام والشعوب تسعى للتقارب والتعاون والتعارف ، مع بقاء كل منها على مذهبه أو جنسه أو لونه أو لغته أو بيئته الجغرافية : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير) [٥٧] .

وبينما تسعى معظم المذاهب التفسيرية والمعطيات الفكرية للوضعيين إلى تصوّر عالم لا صراع فيه (الهيغلية في مرحلة تجلّي المتوحد ، والماركسية في مرحلة حكم البروليتاريا) يسوده السلام والمحبة ، فتتجاوز بهذا واقعيتها

---

٥٥ البقرة ٢١٦ .
٥٦ النساء ١٩ .
٥٧ الحجرات ١٣ .

وعلميتها ، وتغفل عن (الأساس) الدائم في تاريخ البشرية والمولّد الأبدي لحركته الحضارية ، وتتناقض تناقضاً أساسياً مع مذاهبها — هي نفسها — التي بدأت بالحركة وآلت إلى سكون غير واقع ولا ممكن .. بينما يحدث هذا إذا بالقرآن ينطلق من (موقف) واقعي — إذا صح التعبير — لأنه يتحدث عن تجارب واقعة وينبثق عن رؤية تجمع الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل .. فيؤكد مسألة (الصراع) من جهة ، ويقر من جهة أخرى التمايز الأبدي للشعوب والأقوام والجماعات ، ويصعّد من جهة ثالثة أساليب الصراع حتى ليصل بها إلى مرحلة التعامل الإنساني الكامل القائم على التعارف والتعاون ، دون أن يتجاوز بهذا واقعيته ابداً ..

* * *

ما هو دور الجماعة (المؤمنة) في ميدان الصراع الواسع الدائم هذا ؟ إن القرآن يبين لنا أولاً ، ان هذه الجماعة واحدة ، سواء عملت مع نوح أم انتمت إلى دين موسى ، أم آمنت بنداءات المسيح ، أم استجابت لدعوة الرسول (عليهم السلام) .. واحدة في تصورها وفي مسيرتها وفي أهدافها وفي مصيرها الذي تكدح لتحقيقه على مدى التاريخ :

(ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) [٥٨] .

(وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) [٥٩] .

وفي عشرات المواقع يحدثنا القرآن عن هذه (الوحدة) التي تربط بين الأنبياء وبين أتباعهم على مدار التاريخ ، ما داموا جميعاً استجابوا لنداء الله وآمنوا بوحدانيته المطلقة التي يتمخض عنها بالضرورة التلقي عنه وحده والتوجه إليه وحده . هذه الجماعة أو الأمة التي بلغت أقصى درجات نضجها وفاعليتها وامتدادها على يدي الرسول (ص) حيث

---

٥٨ الأنبياء ٩٢ .

٥٩ المؤمنون ٥٢ .

أعلن القرآن عن توقف الوحي نهائياً ، وعن القاء المسؤولية كاملة على الأمة الإسلامية وهي تعمل وتكافح لتحريك العالم صوب الأهداف التي رسمها القرآن ، كتاب الله الأخير ، المحفوظ .

إن الإسلام يحدثنا ، من خلال كتاب الله وسنة رسوله ، ان صراع المسلم في العالم (فرداً وجماعة) يتخذ اتجاهين احدهما باطني ذاتي عمودي سماه الرسول : (الجهاد الأكبر) لما يتطلبه من مصاعب ويستلزمه من قدرة على المقاومة والمراقبة والحذر والتجرّد،وهو يهدف إلى مواجهة الإنسان لذاته وتغييرها تغييراً حركياً مستمراً من أجل أن يُسقط عنها كل النزعات والشهوات والممارسات السلبية التي من شأنها أن تصدّها عن التوحد الكامل والاندماج الشامل في مسيرة الفكرة التي تتطلب – عبر ديمومتها الحركية – من المنتمين اليها شروطاً نفسية وأخلاقية وذهنية لا بدّ من توفرها إذا ما أريد للحركة أن تصل إلى أهدافها بأشد الأساليب نقاء وتركيزاً وتوحّداً (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ، ان الله لغني عن العالمين) [٦٠] .

والمسلم يجد نفسه إذن ، ازاء تجربة صراع ذاتي دائم لمجابهة قوى الشر والسلب في نفسه والتفوق عليها ، للاقتراب أكثر من جوهر الدعوة التي ينتمي اليها ، والاندماج فيه ، بعد اطّراح كل العوائق التي تنبثق في أعماق تكوينه الذاتي ، بما تطرحه قوى البيئة والوراثة من مؤثرات . وبدون هذا الصراع الارادي الباطني من أجل تغيير الذات ، فانه لا ينتظر أبداً حدوث أي تغيير أساسي على مستوى الصراع الخارجي في العالم . ان قاعدة الحركة نحو الأحسن والأكمل عقائدياً في صراعنا الخارجي مع القوى البشرية المضادّة هو أن نسعى لإحداث هذا التغيير باطنياً (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) [٦١] . وفي آية أخرى نلتقي

---

٦٠ العنكبوت ٦ .
٦١ الرعد ١١ .

بالصيغة المعاكسة (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتّى يغيروا ما بأنفسهم) [٦٢] . والقاعدة القرآنية في كلتا الحالتين هي أن أي تغير نوعي في الخارج لا يتحقق الا بعد حدوث التغير الباطني في الذات الانسانية ، سلباً وايجاباً . وسنعود مرة أخرى لهذه القاعدة القرآنية الحاسمة لدى تحليلنا لمسألة سقوط الحضارة ، نظراً لارتباطها الوثيق بها .

أما صراع الجماعة الإسلامية على مستوى العالم — والذي سنعود اليه هو الآخر لدى تحليلنا لمسألة السقوط — فيصطلح عليه القرآن والسنة باسم (الجهاد) . وهو يتضمن كل أشكال (الصراع) الخارجي على الاطلاق : مذهبياً ، سياسياً ، عسكرياً ، أخلاقياً ، اقتصادياً وحضارياً ، وهو — بهذا — يمثل مساحة للحركة أوسع بكثير من تلك التي تحتلها صراعات التفاسير المذهبية ، سيما المثالية والمادية ، كما انه يتضمن ديمومة زمنية يعبر عنها حديث الرسول (ص) (الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة) في وقت ترى فيه بعض مذاهب التفسير الوضعية انه سيجيء اليوم الذي يكفّ فيه الصراع على مستوى العالم . وهو أمرٌ يتناقض — كما سبق وان أكدنا — مع طبيعة معطياتهم (الحركية) من جهة ، ومع صميم العلاقات البشرية من جهة أخرى .

إن القرآن الكريم يبين لنا كيف ان هذا الجهاد هو صراع دائم بين معسكرين كبيرين كل منهما ينتمي إلى فكرة ويلتزم موقفاً ويعمل في سبيل .. (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت) ويسِم هؤلاء بأنهم يعملون تحت لواء الشيطان ، عدو بني آدم ، ومصدر الصراع الرئيسي في العالم ، الا أن كيده يبدو ضعيفاً غير قادر على الصمود ازاء أية جماعة مؤمنة تؤثر الجهاد على الاستسلام

---

٦٢ الأنفال ٥٣ .

والحركة على القعود ، لأنها تنتمي إلى الله الذي يملك كل شي ويقدر على كل شيء ، والذي (يدافع عن الذين آمنوا) [٦٣] ، بينما ينتمي أولياء الشيطان إلى قوة هي في الأساس جزء ضئيل محسور من خلق الله (فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفاً) [٦٤] . ومن ثم يجيء النصر النهائي، دوما ، لصالح المؤمنين المجاهدين الذين يتحركون ابداً بأمر من الله (حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) [٦٥] . لمصارعة القوى المضادة والتغلب عليها :

(ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . انهم لهم المنصورون . وان جندنا لهم الغالبون) [٦٦] .

(كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز) [٦٧] .

(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) [٦٨] .

(يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) [٦٩] .

(فهل ينتظرون الا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم ، قل : فانتظروا اني معكم من المنتظرين . ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا ، كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين) [٧٠] .

وسواء تم هذا النصر لمعسكر الايمان في مراحل تاريخية محددة ، كما

---

٦٣ الحج ٣٨ .
٦٤ النساء ٧٦ .
٦٥ البقرة ١٩٣ .
٦٦ الصافات ١٧١ – ١٧٣ .
٦٧ المجادلة ٢٠ .
٦٨ الصف ٩ .
٦٩ التوبة ٣٢ – ٣٣ .
٧٠ يونس ١٠٢ – ١٠٣ .

حدث فعلاً لعديد من الأديان السماوية الكبرى ، أم انه سيتم – ثانية – لحساب الإسلام ، كحصيلة نهائية للموقف الديني ، في يوم قريب أم بعيد .. فان جهاد المؤمنين ماضٍ في بقاع العالم ، بكل وسيلة شريفة ، وإلى يوم القيامة ، وهو الذي حركهم ، ويحركهم، دوماً، لتحقيق كلمة الله (والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) [71] .

إن الجهاد يضع الأمة الاسلامية أمام مسؤوليتها الحركية الكبرى في العالم ، ويمنحها فاعلية دائمة ازاء التجارب والمواقف البشرية ، تتجاوز حدود الزمان والمكان ، ويرفعها إلى موقع (الشهادة) على الناس .. ذلك الموقع (الوسط) المميز المتفرد ، الذي لن ترتفع اليه إلا عندما تمارس جهادها الدائم على كل الجبهات ، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، وقتالاً بالكلمة وكفاحاً مسلّحاً .. (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) [72] .

* * *

إن القرآن الكريم – بتأكيده العميق – على دور الصراع في تاريخ البشرية وفي حركتها (الصاعدة) أو (الراجعة) ، يمدّ مساحة هذا الصراع إلى أبعد الآفاق ، كما انه لا يجعل الحركة صدوراً عن صراع النقيضين (كما أكد هيغل وماركس وغيرهما) ويقصرها على هذه المساحة الضيّقة ، انما يمدّ جذورها إلى (صراعات) أخرى أشد تعقيداً وأكثر تنوعاً ، كما انه يخرج بها عن نطاق الصراع أساساً ، وذلك عندما تجيء بمثابة استجابة داخلية ، مقرونة بعمل خارجي ، لنداء من فوق .. ان حواراً كهذا بين القيم العليا والوجود السفلي هو الذي يحرّك – في أحيان

---

٧١ يونس ٢١ .

٧٢ البقرة ١٤٣ .

كثيرة – أحداث التاريخ على خط صاعد . ان المثل الأعلى – كذلك الذي طرحه الأنبياء مثلاً – كان دائماً بمثابة هدف يتحرك اليه الذين يتخبطون تحت أو الذين يتقلبون في الظلمات ، أو الذين يتعذبون شتى صنوف العذاب ، وتمنعهم القوى العقائدية المضادة من تحقيق أهدافهم .. ان بحث الضائعين والحائرين والمعذبين عن النجاة ، عن مثل أعلى ، عن هدف يطمحون لبلوغه ، هذا البحث الحادّ كان في أحيان كثيرة (المحرك) الذي يسوق الأفراد والجماعات إلى مصائرهم ويصنع تاريخهم . واذن فإن من الخطأ والتزييف ان نصدر حكماً على كل حركات التاريخ بأنها جاءت نتيجة لصراع النقيضين .

إن (الصراع) نفسه – كما رأينا – يتخذ أشكالاً عديدة لا تقتصر على تقابل الضدين وتغلب أحدهما علـى الآخر في عالم الفكر أو المادة . إنه يبدو – أحياناً – ارادة ذاتية تسعى إلى التوحّد والائتمان الذاتي في وجدان الإنسان ومع المحيط الخارجي ، ويبدو أحياناً أخرى رغبة فعّالة في تحقيق تفاهم متبادل وتعارف وثيق وسلم عام بين الإنسان والإنسان ، أو بينه وبين الوجود .. وهو يبدو – أحياناً ثالثة – عملية استقطاب للقوى والطاقات ، وتنظيم لها ، وحماية لمقدراتها ، من أجل أن تصبّ جميعاً في مجرى المبادىء الجديدة والدعوات الكبرى .

وكل هذه الأشكال من الصراع لا نجد فيها تقابل نقيضين بقدر ما نجد محاولة للالتئام والتوحّد والاستقطاب والتجمّع والانسجام . وبعد هذا – وخلاله أيضاً – لا بد للحركات أن تجتاز صراعاً بين النقائض ، لكنها نقائض على مستويات شتى : نفسية وفكرية وعقيدية ووجدانية وعرقية وثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية .. إلى آخره .. بمعنى آخر أنها نقائض بشرية فيها كل ما في الإنسان من مكونات روحية ونفسية ومادية .. ومن التزييف والتجزيء لتاريخ الحركات ، أن نقصر النقائض

على جانب فحسب ، وتحدّدها في اطار صارم لا يملك أية مرونة ، كالجانب العقلي عند هيغل ، أو المادي الاقتصادي عند ماركس وأنكلز ،لأن هذين الجانبين – على أهميتهما وثقلهما – لا يغطيان كل مساحة الفاعلية الانسانية التي تنبثق عن رغبة ارادية شاملة في مصارعة كل ما يتعارض مع ارادتها ووجودها وأهدافها ومطامحها ، روحياً كان أم مادياً .

هذا إلى ان (الصراع) ليس دائماً قوة ايجابية تشدّ حركة التاريخ إلى الامام ، اننا بمجرد تصورنا ذلك نغرق أنفسنا في نزعة مثالية ، ونتجاوز ما يحدث فعلاً على أرض الواقع ، حيث يتمخض الصراع في كثير من الأحيان عن ردّة عكسية إلى الوراء ، وربما عن تفتّت التجربة التاريخية وسقوطها في صراع غير متكافىء مع قوى تفوقها بكثير .. ان الحركة التاريخية نفسها لا تملك عقلاً كلياً واعياً بذاته يمكنها من مواصلة النضال الأبدي ، صوب الأحسن والأكمل ، كما يرى هيغل وماركس ورفاقهما ، كل حسب تصوره الخاص .

إن الذي يملك زمام العقل والوعي والارادة عبر التاريخ هو الإنسان وحده،وما دام الإنسان حرّاً في اعتماد قدراته هذه فانه كثيراً ما يسيء الاختيار أو يحسنه ابتداءً ، ولكنه لا يحيطه بالضمانات الكافية ، فيجيء (الصراع) لكي يكشف عن نقاط الضعف في التجربة البشرية ، ويوجه اليها الضربة القاصمة التي قد تصدر – أحياناً – عن فئة غاية في البطش والقسوة واللاأخلاقية .. ويؤول الأمر إلى ردّة تاريخية ، رجعية ، مهما كانت نتائجها البعيدة ومغازيها غير المنظورة،ايجابية في شحذ الهمم وتعميق الوعي بالمصير ، الا انها – على أية حال – رجوع وليست تقدماً .

الفَصْلُ الرَّابعُ

سُقوطُ الدُّولِ وَالحَضاراتِ

١

إذا ما انتقلنا إلى المرحلة الأخيرة من هذا البحث والتي تتعلق بمسألة تدهور الدول والحضارات وسقوطها فاننا نجد – كما سبق وأن مرّ بنا – ان معظم مذاهب التفسير الوضعي للتاريخ تكاد تجمع على القول بحتمية سقوط الدول والحضارات ، بشكل أو بآخر . فهيغل – في مثاليته – يرى الناس والمجتمعات والدول في ممارساتهم وتجاربهم التأريخية كأدوات مرحلية يستخدمها العقل الكلّي في فترة زمنية محدودة ، ثم ما يلبث أن يطيح بها صوب الفكرة الأحسن لكي يجيء ذلك اليوم الذي يكون التاريخ فيه ، بشتى معطياته ، تعبيراً متجلياً كاملاً لهذا العقل .

وماركس يخضع حركة التاريخ ، بدولها وحضاراتها وتجاربها ، لحتمية تبدل وسائل الانتاج وانعكاسه على (الظروف) ، وان كل وضع تاريخي مآله الزوال بمجرد هذا التبدل الديناميكي الدائم .. ثم ما يلبث ماركس أن يقع في تناقض أساسي مع نظريته عندما يقرر (الدوام) و (الثبات) لمرحلة حكم الطبقة العاملة (البروليتاريا) حيث لا زوال بعدها .. وهذا يشبه – في إحدى جوانبه – الديالكتيك الهيغلي الذي يؤول بحركة العالم إلى السكون وعدم التغير بمجرد بلوغها مرحلة تجلّي المتوحد !!

أما شبنكلر وتوينبي فيعلنان عن حتمية السقوط كأمر لا مفر منه ، وبينما يغرق شبنكلر في تشاؤميته نجد توينبي يقع في تناقض صريح ، هو الآخر ، عندما يؤكد في الاجزاء الاخيرة من دراسته للتاريخ على ان هنالك أملاً في بقاء الحضارة الغربية المعاصرة بوجه الأعاصير ... فما هو الموقف (الإسلامي) في هذا الصدد ؟

في البداية تبرز أمام الوعي آية حاسمة ذات دلالة خطيرة في هذه المسألة ، والتي تقول (وتلك الأيام نداولها بين الناس) .. إنها ترد في هذا الاطار القرآني تعقيباً على تجربة المسلمين التاريخية في أُحد (قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرحٌ فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) [1] .

ان القرآن يطرح في هذا المقطع التاريخي ذي المغزى العميق ، والذي ترد فيه كلمات ذات علاقة عضوية بالمسألة مثل : سنن ، مداولة ، تمحيص.. قاعدة أساسية في موقفه ازاء الدول والتجارب البشرية والحضارات .. إنه بواقعيته وإحاطته المعجزة يقرر منذ البدء عدم ديمومة أي من هذه المعطيات ، ولا يستثني منها الإسلام والمسلمين (وتلك الايام نداولها بين الناس) .. وقد قال (بين الناس) بمعنى عموم هذه (السنة) التي لا محيص عنها ، والتي تقوم بلا ريب على أسبابها ومقدماتها في صميم الفعل الإنساني نفسه .

وفي أماكن عديدة أخرى يؤكد لنا القرآن هذه الحتمية كأجل لا

---

١ آل عمران ١٣٧ – ١٤١ .

مفرّ من نزوله في وقته المحدّد سلفاً في علم الله ، ويكشف لنا عن صيغها في صميم الممارسة البشرية :

(ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ؟ الا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) [2] .

(وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) [3] .

(ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) [4] .

(وإن من قرية إلا ونحن مهلكوها قبل يوم القيامة ، أو معذبوها عذاباً شديداً ، كان ذلك في الكتاب مسطوراً) [5] .

(ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) [6] .

(قيل : يا نوح اهبط بسلام منّا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسّهم منا عذاب أليم) [7] .

(يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ، ان أجل الله — اذا جاء — لا يؤخر لو كنتم تعلمون) [8] .

ونظراً لارتباط هذه الآجال بمواعيد ثابتة محددة في علم الله ، كجزء من نظام كوني متماسك ووفق مقاييس زمنية قد تبدو للانسان — ذي القدرات النسبية الموقوتة — طويلة ، ونظراً إلى ان ارادة الله سبحانه وحكمته في خلقه ، شاءت أن تمدّ في هذه الآجال كي تمنح الفرصة كاملة لكل جماعة أن تكفّر عن ظلمها وطغيانها ، وأن تسعى لالتزام الطريق العادل

---

٢ هود ٨ .
٣ الحجر ٤ — ٥ .
٤ الحجر ٢٤ .
٥ الاسراء ٥٨ .
٦ الأعراف ٣٤ .
٧ هود ٤٨ .
٨ نوح ٤ .

المستقيم .. نظراً لهذا وذاك ، يتصوّر بعضهم ، انهم غدوا بمنأى عن عقاب الله ، وانه لا تدهور ولا سقوط .. ويتطرف بعضهم الآخر فيستعجل المصير قبل تحققه على سبيل التحدي والاستفزاز .. الا ان هؤلاء وهؤلاء لم يدروا ان كتابهم لم يبلغ أجله ، وانه اذا جاء فليس لهم إلا ان يعانقوا مصائرهم التي صاغوها بأيديهم سلفاً ، والتي مُدّ في أجلها لكي يزيدوها بممارساتهم السافلة ، بلورة ووضوحاً وانطباقاً على هذه الممارسات :

(ولا يحسبنّ الذين كفروا انما نملي لهم خير لانفسهم ، انما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين) [9] .

(ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابّة ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) [10] .

(وربك الغفور ذو الرحمة ، لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً . وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً) [11] .

(ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى) [12] .

(ويستعجلونك بالعذاب ، ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ، وليأتينّهم بغتة وهم لا يشعرون) [13] .

(ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم كان الله بعباده بصيراً) [14] .

(ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم) [15] .

---

٩ آل عمران ١٧٨ .
١٠ النحل ٦١ .
١١ الكهف ٥٨ – ٥٩ .
١٢ طه ١٢٩ .
١٣ العنكبوت ٥٣ .
١٤ فاطر ٤٥ .
١٥ الشورى ١٤ .

والقرآن الكريم يطرح فكرة المداولة كفعل دايناي يستهدف (تمحيص) الجماعات البشرية ، واثارة الصراع الدائم بينها ، الأمر الذي يتمخض عن تحريك الفعل التاريخي ، وخلق التحديات المستمرة أمام المنتمين إلى هذا المذهب أو ذاك .. إنه لا يفرزها تشاؤماً وحزناً كما هو الحال في بعض المواقف التفسيرية الوضعية ، ولا يطرحها عبثاً ولا جدوى كما هو الحال في مواقف أخرى .. ولا يقدمها كحتمية قاهرة يتحول الناس ازاءها إلى عبيد مسلوبي الإرادة ، والعقل الحرّ ، والاختيار المسبق ، كما هو الحال في مواقف ثالثة .. ان التعبير القرآني نفسه يحمل دلالاته العميقة ، كما هو شأن القرآن دائماً ..

إن (المداولة) توحي بالحركة الدائمة ، وبالتجدّد ، وبالأمل .. وتقرّر ان الأيام ليست ملكاً لأحد ، ومن ثم لا داعي لليأس والهزيمة ، فمن هم في القمة الآن ستنزل بهم حركة (الأيام) إلى الحضيض ، ومن هم في القاع ستصعد بهم الحركة نفسها — ومن خلال فعلهم الحرّ وحركتهم واختيارهم — إلى القمة .. ان (المداولة) القرآنية تحمل كافة جوانب ايجابيتها التاريخية : حركة العالم المستمرة ، وتمخّض الصراع الفعّال ، وديمومة الأمل البشري الذي يرفض الحزن والهوان (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) ! !

تكاد الحياة الدنيا تبدو من خلال الموقف الإسلامي ، أشبه بالناعور .. والشجاع الشجاع هو الذي يحصل على (صعدة) أكثر في تاريخ هذه الحياة التي تدور فيها المواقف ولا تستكين لأحد ، من أجل أن يرى البشرية صوراً من حقائق التطبيق الصحيح للمبادىء السماوية .. ان هذه الوضعية الدينامية أشبه — أيضاً — برجل كتب عليه أن يحيا في مدينة ما ، وأتيح له أن يغادرها إلى أي مكان مرتحلاً ، طالما أسعفته امكاناته وارادته ،

الا ان مصيره دائماً هو أن يعود إلى مدينته الأولى .. والإنسان ، كلما كان ذا ارادة أقوى ، وعزيمة أمضى ، وايمان أعمق ، وجهد وابداع أشد تركيزاً، كلما أتيح له السفر إلى منطقة أبعد لاكتشاف مزيد من المجاهيل في الطبيعة والعالم .

ان كلا منا هو هذا الرجل، وبمجموعنا كجماعة ننتمي إلى هذا المبدأ أو ذاك نستطيع أن نرحل دائماً ، ونعلم البشرية أن ترحل معنا إلى تلك الآفاق البعيدة الرائعة ، فاذا ما (حتّم) علينا أن نعود ، لأن حكمة الله سبحانه تقتضي بأن نسمح للآخرين كي يرحلوا بدورهم ، لأن من حقهم أن يرحلوا ، بعد إذ ضعفت ارادتنا وقويت ارادتهم ، وخارت عزيمتنا ومضت عزيمتهم ، وتسطّح ايماننا وتوغل ايمانهم ، وتفكك جهدنا وابداعنا وتركز جهدهم وابداعهم .. إذا ما حدث هذا ، وهو لا بد أن يحدث ، إذا ما أريد للعدل الكوني أن يأخذ مجراه ، فلا بد – وفق منطق المداولة نفسه، ودايناميّته وما يحمله من شحنات الأمل – أن نبذل محاولات ثانية وثالثة من أجل اعادة الكرّة والتهيؤ لمرحلة أكثر غنى وعطاء وشمولاً .. وهذا لا يعني ان المنجزات الحضارية عموماً تصاب بنكسات (دورية) ، على العكس ، انها تبقى في الأغلب الأعمّ ، صاعدة على سلّم لا ترجع عنه إلى وراء ، إلا إذا مارست الأمم القوية لعبة الدمار الشاملة التي يستبعد أن تحدث أساساً .. هذا فيما يتعلق بالإبداع المادي للحضارة أي ما يصطلح عليه باسم (المدنية) .. أما القيم والمبادىء وقواعد السلوك الفردي والجماعي والدولي ، والممارسات الأخلاقية والروحية، والعاطفية، ومعطيات الفكر والوجدان ، فيما يسمى بحقل (المعارف الانسانية) أدباً وفلسفة وفناً وأساليب تفكير ومواقف نفسية واجتماعية ، فهي التي تتعرض للانتكاسات وهي التي لا تستقيم إلا بانتصار المبدأ الأقوى والأكثر انسجاماً مع بنية الإنسان ودوره في الكون . ولن يتأتى هذا إلا بأن يتولى زمام

القيادة الحضارية الشاملة ، ويكون في القمة رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر و(لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً)، والا في أن يتسلّم المسلمون مكانتهم (الوسط) في قلب العالم ليكونوا (شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيداً) !!

إن الذي يفرّق الموقف الإسلامي ويميّزه اذن ، هو أنه يطرح ازاء مسألة سقوط الدول والتجارب والحضارات ، ما يمكن تسميته (الحتمية التفاؤلية) .. انه يقرر حتمية الانحلال والسقوط ، ولكنه يقرر — في الوقت نفسه — امكانية أية أمة أو جماعة أن تعود باستمرار لكي تنشىء دولة أخرى ، أو تمارس تجربة جديدة ، أو تتولى زمام القيادة الحضارية والعقائدية ، بمجرد أن تستكمل الشروط اللازمة لذلك ، وأولها عملية (التغيير الداخلي) التي أكد القرآن على حدها الايجابي بقوله : (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) [16] ، وأكد على حدها السلبي بقوله : (ذلك ان الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم قط حتى يغيروا ما بأنفسهم) [17] ، هذا التغيير الذي يمتد إلى كافة المساحات الأخلاقية ، وسائر المكونات النفسية الاساسية ، وكل العلاقات الداخلية مع الذات ومع الآخرين ، والتي تمكن الإنسان فرداً وجماعة من مواجهة حركة التاريخ .

ان القرآن الكريم يطرح — اذن — مبدأ التغيير الذاتي مقابل حتمية السقوط والمداولة كوسيلة للاستعادة ، ولا نقول للاستمرار ،لأنه ليس بامكان أية جماعة بشرية أن تظلّ متوترة الارادة في مواجهة التحديات الدائمة ، قرناً بعد قرن ، دون أن تضعف أو تغفل أو تفقد توترها هذا ،

---

١٦ الرعد ١١ .

١٧ الأنفال ٥٣ .

فتتخلى عن مكانها المتقدم للجماعة الأكثر استعداداً ، وحيوية ، **وتوتّراً** .

إن تأكيد الإسلام على مبدأ التغيير في جانبيه (السلبي) و (الايجابي) يعني انه يمنح الارادة البشرية فرصتها في صياغة المصير ، في التشبث به أو استعادته إذا ما أفلت من بين أيديها .. ومن ثم فإنه ما ان تتهيأ هذه الارادة للعمل في ميدان التاريخ ، عن طريق الشحذ النفسي والاستعداد الأخلاقي ، حتى تكون قادرة على مواجهة التحديات المادية والخارجية من أي نوع كانت وبأي درجة جاءت ، فتعجنها وتصوغها من جديد لصالح الإنسان . وهكذا يعود الإنسان – في الإسلام – لينتصر على الحتميات وليستعيد قدرته الابدية على التجدد والتطور والابداع .. فيما تقف في مواجهته جلّ المذاهب الوضعية لكي تؤكد انه إذا ما اطيح بتجربة تاريخية ، فانها لا قيام بعدها ، لأنه محتوم عليها أن تواجه هذا المصير في عالم لا يعترف بحرية الإنسان واختياره ، ولا بقدرته على المجابهة والاستعادة والانتصار .

إن التفسير (المسيحي) للتاريخ – مثلاً – والذي كانت له تأثيراته العميقة في أذهان عدد من الوضعيين وعلى رأسهم توينبي [١٨] ، يبني موقفه على فكرة (الخطيئة والخلاص) بعد تحويلها من نطاقها الفردي إلى النطاق الجماعي . واذن فان التاريخ – في هذا التفسير – تحكمه جبرية تجعل الأمم المسيحية تتجه جميعاً ، في حركة صاعدة ، إلى مثلها الأعلى مهما اقترفت من ذنوب وارتكبت من معاصٍ وآثام، حتى لو استعمرت شعوب الأرض جميعاً واستحيت نساءها وذبحت أبناءها ، فما دام السيد المسيح (ع) قد (خلّصها) بصلبه فقد رفعت عنها المسؤولية وسيقت إلى مصيرها دون مقاومة أو عناء .

---

١٨ لاحظ تفسير كولن ولسون في كتابه (سقوط الحضارة) لعبارة توينبي (تمسك وانتظر) ! !

في التفسير الإسلامي تمتد نظرية الإسلام في المسؤولية الفردية فتشمل النطاق الجماعي — كما سبق وان مرّ بنا في الفصل الأول — ولا يتحدد مصير أية جماعة الا نتيجة لما تقدمه من (أعمال) ، وهذا يعني ان التاريخ (الديني) لا تحكمه جبرية تجعل من فعاليات الأمم المؤمنة حركة صاعدة مكتوبة بأحرف من نور ، وانما تتعرض هذه الأمم في سيرها ، للصعود والهبوط ، للنجاح والفشل ، للارتفاع والانهيار ، اعتماداً على ممارستها ومعطياتها ، ومن ثم تبرز (المسؤولية) كعامل أساسي في توجيه مصائر الحركة التاريخية .

إن النذر التي يقدمها الله سبحانه ، تبدو في التفسير المسيحي مسلطة على أولئك الذين لا يؤمنون بفكرة الخطيئة والخلاص ، أما في التفسير الإسلامي فتنصب على كل انسان وكل جماعة تتنكب عن المضيّ على الصراط المستقيم ، وتتوقف عن ممارسة التغيير الذاتي ، وما يعقبها من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وتسنّم مركز (الشهادة) في العالم .. ومن ثم فان النقمة قد تكتسح المسلمين أنفسهم بمجرد خروجهم عن هذا الصراط وتوقّفهم عن تلك الممارسات والفاعليات الداينامية التي ما إن تكف حتى تجد الجماعة الإسلامية نفسها في المواقع الخلفية التي لا تحسد عليها ، وما أكثر ما وجدت نفسها هناك ! !

ليس هذا فحسب ، بل إن القرآن يؤكد في أكثر من موضع ، على ان أية أمة ، مؤمنة كانت أم غير مؤمنة ، انما تحمل مسؤوليتها كاملة إزاء نفسها ، أمام الله وأمام التاريخ ، ولن تحمّل أبداً تبعة أمة أخرى إلا بالقدر الذي تفرضه عليها مسؤوليتها ذاتها تجاه الإنسان والعالم . فكما أنه على المستوى الفردي ، يؤكد القرآن على مسؤولية الإنسان عن أفعاله فحسب ، فكذلك الحال على مستوى الأمم والجماعات :

(تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون)[19] .

(لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به)[20] . . .

وهذه المسؤولية (المستقلة) إزاء الذات الجماعية تجيء تأكيداً للارتباط العادل الوثيق بين التجربة البشرية وبين مصيرها الذي تؤول اليه تقدماً وتطوراً أو تأخراً وانحلالاً .

---

١٩ البقرة ١٣٤ وانظر السورة نفسها ١٤١ .
٢٠ البقرة ٢٨٦ .

٢

وقضية (السقوط) هذه ، خلال الأمة أو الجماعة الواحدة التي كثيراً ما ترد في القرآن بتعبير (قرية) ، انسجاماً مع بنية التقسيم الاجتماعي السائد زمن نزول القرآن ، والتي سوف لا نقصر تحليلنا لها على المستوى الحضاري وحده ، وانما نمده إلى كافة التجارب السياسية والتشكيلات الاجتماعية والكيانات المحلية أو العالمية ، والتجمعات المذهبية .. إلى آخره ..... ومن ثم فلا يتصورن أحد أننا نعني بالسقوط سقوط الحضارات فحسب ، لأن هذه أطول عمراً بكثير من التشكيلات التي أشرنا اليها ، وبخاصة في جوانب انجازاتها المادية ، ولأنه كثيراً ما يحدث أن تسقط امبراطوريات ودول وإمارات ، وتتهافت تجارب سياسية واجتماعية ومذهبية ، بينما الحضارة في اطاراتها الشاملة تواصل ديمومتها وبقاءها ، أو صمودها على الأقل ، فترات طويلة أخرى .

إن قضية السقوط هذه تأخذ اتجاهات عدة : سياسية وادارية واقتصادية وأخلاقية واجتماعية وعقائدية .. وعلينا أن نتذكر أن القرآن هنا لا يطرح تفاصيل وجزئيات ، ولا يلامس الأحداث اليومية العابرة ، أو الموقوتة المتغيرة ، إنما يطرح مبادىء عريضة وقواعد شاملة في مجالات الحياة المختلفة . ولنا نحن أن نتصور ما يمكن أن يتمخض عن هذه المسائل الكلية من فروع وجزئيات . اننا – على سبيل المثال – نستطيع ببساطة أن نضع أيدينا على

حشود السلبيات المدمّرة التي يمكن أن تتمخض عن أية تجربة سياسية أو ادارية تلتقي في قطبيها (القيادة) الظالمة و (القاعدة) الساكنة ، أو أية ممارسة اجتماعية يتقابل فيها بشكل محزن ومخيف : الترف والحرمان ، أو أي مجتمع ينسى أهدافه الكبرى وتفشو فيه الأخلاقيات الهابطة ، أو أية ممارسة تاريخية يفتقد فيها التوازن بين قيم الروح والمادة .. هذه الحشود التي تبدأ جزئيات وتفاصيل يومية صغيرة متقطعة ، مستعصية على الرؤية والضبط ، ولكنها ما تلبث أن تتجمّع وتتجمع حتى تشكل تيارات خطيرة جارفة تدمّر في طريقها كل شيء ، وتوقف كل نشاط فعّال ، وتصيب بالتفكك والدمار كل انجاز وابداع .

ان منحنى الإنجاز الحضاري ، بمفهومه الشامل،يرتبط بهذه المسائل جميعاً ، والتي يكثّفها القرآن الكريم في مسلّمات وخطوط أساسية عريضة .. وحيثما طغت وتراكمت السلبيات المتمخضة عن هذه الخطوط والمسلّمات حيثما كفّت طاقة الإنسان الخلاّقة عن مواصلة صعود المنحنى ، وآل الأمر إلى الهبوط والتحلل والانهيار .

نبدأ بالمسألة الأولى (السياسية) ، حيث نجد المعطيات القرآنية ترمي إلى إلقاء المسؤولية على القيادات والقواعد على السواء ، نظراً للعلاقة المتداخلة بين الطرفين ، ولأن القيادة لا تمارس فاعليتها وأخلاقيتها ، الحسنة أو السيئة ، إلا باقرار مكشوف أو ضمني ، من القاعدة : حركة وسكوناً .

على مستوى القيادة يحدثنا القرآن كيف أن ساعة السقوط تحين يوم يتسنم المسؤولية حفنة من المترفين الفسقة أو الاداريين الظلمة أو المجرمين الطغاة ، فيمارسون من مواقع السلطة تلك كل أسلوب من شأنه أن يؤول إلى إلحاق التفكك والدمار بالجماعة أو الأمة التي (ارتضتهم) قادة لها : الترف، الفسوق، الطغيان ، الفوضى ، الاستغلال ، المكر ، رفض الدعوات

الحديدة ، واستخدام أقصى درجات القسوة والطيش لصدّ قومهم عن الانتماء اليها ، واعتبار مبادئهم ورؤاهم وتشريعاتهم الذاتية القاصرة ، المفككة ، الحدود النهائية لموقف الإنسان في العالم ، وهو اعتبار يقوم على أقصى درجات (الطغيان) وأشد المواقف بعداً عن مفهوم (التوحيد) العادل ، السمح ، الإنساني : (قال فرعون : ما أريكم إلا ما أرى ! ! وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ! !) [1] .

وأروع ما في التعبير القرآني انه يصوّر هؤلاء الطواغيت ، وهم في قمة الجاه والثروة والسلطان ، أدوات بيد الله ، يسخرهم ، من حيث لا يدرون ، لإنزال عقابه العادل بطرفي الجريمة : السلطة التي تظلم والقاعدة التي ترضى بالظلم ..

(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده بصيراً) [2] .

(وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون إلا بأنفسهم ، وما يشعرون) [3] . (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) [4] .

(فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين) [5] .

---

١ غافر ٢٩ .
٢ الاسراء ١٦ — ١٧ .
٣ الأنعام .
٤ الأنعام ١٢٩ .
٥ الأنعام ١٤٧ .

(**وقالوا** : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) [6] .

(وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون وقالوا : نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين) [7] .

(فأصابهم سيآت ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) [8] .

(قال : انما أوتيته على علم عندي ، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ؟ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) [9] .

وفي المقابل ، ومن أجل أن تظل مقاييس السلطة والقيادة موضوعية ثابتة بيّنة في أذهان الجماهير المؤمنة ، يطرح القرآن : البديل ، في أكثر من آية ، وعلى أعرض جبهة يمكن أن يتحرك عليها المسؤولون عن قيادة الأمم والشعوب ، جبهة التاقّي عن الله وحده ، والتزام قيم الحق والعدل ، ومواصلة العطاء على هذا الطريق :

(وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) [10] .

(وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا اليهم فعل الخيرات ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين) [11] .

(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ...) [12] .

وما من ريب في أن المسألة (الادارية) ترتبط أشد الارتباط بممارسات

---

٦ الأحزاب ٦٧ ، ٦٨ .
٧ سبأ ٣٤ ، ٣٥ .
٨ النحل ٣٤ .
٩ القصص ٧٨ .
١٠ الأعراف ١٥٩ .
١١ الأنبياء ٧٣ .
١٢ القصص ٨٣ .

السلطة السياسية في إطارها الشامل ، وتأخذ ازاءها علاقة طردية ، فكلما زادت القيادة ظلماً وطغياناً ، كلما أصيب الجهاز الاداري – الذي هو الأداة التنفيذية لسياسات الدولة – بالتفكك والاضطراب والعجز ، وبالعكس ، وهذا هو الذي دفع حكاماً اسلاميين كالراشدين وعمر بن عبد العزيز ، وغيرهم ، أن يولوا اهتماماً كبيراً إلى هذا الجانب الأساسي في سياسات الأمم ، ويرون في صلاحيته وتماسكه ، ضماناً للأداة التي (تنفّذ) بها القيادة أهدافها الشاملة ، وتجعل من قيم الحق والعدل أمراً واقعاً [13] .

وفي آيات أخرى يحدثنا القرآن الكريم عن بعض أصحاب المذاهب الذين يطرحون أقوالاً تثير الإعجاب ، وآمالاً تفوق الخيال ، وهم بعد في صف القاعدة .. حتى إذا ما أتيح لهم أن يبلغوا القيادة انقلبوا على دعواتهم وأهدافهم وتنكروا لمبادئهم ووعودهم ، وانتموا إلى تيار الفساد والطغيان .. ولكن هؤلاء الذين مارسوا ، ويمارسون ، لعبة الازدواج بين الفكرة والسلطة هذه ، لا يعدون أن يكونوا هم الآخرون أدوات مسخرة بيد الله تقود الجماعة التي سمحت لهم بممارسة اللعبة إلى الدمار والبوار وهم يذكروننا بنماذج النفاق التي تحدث عنها القرآن :

(ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام . واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد) [14] .

(ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً واحلّوا قومهم دار البوار ؟ جهنم يصلونها وبئس القرار) [15] .

---

١٣ أنظر كتاب (ملامح الانقلاب) للمؤلف فصل (الادارة والتخطيط) .

١٤ البقرة ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

١٥ ابراهيم ٢٨ ، ٢٩ .

تلك هي اللعبة ، وهذه هي العاقبة .. وما أكثر ما يتكرر هذا الشكل المحزن من أشكال السقوط بالنسبة لعديد من التجارب (الايديولوجية) . إن (سارتر) يحدثنا في (الدوّامة) وفي (الأيدي القذرة) عن التجربة نفسها .. عن الكتل الثورية في عالمنا الحديث ، تلك التي تطرح أفكاراً حاسمة ومثلاً انسانية واسعة وآمالاً اجتماعية عراضاً وهي تحمل — في الظاهر — نقاءها (الثوري) ، لكنها ما إن تمارس السلطة حتى تتلطخ بأوحالها ، وتجد دنسها يتوغل بعيداً في جلّ ما تتخذه من مواقف وتسلكه من ممارسات ازاء القوى الثورية (الجديدة) التي أدركت أبعاد اللعبة وتحركت لسحقها .

إن (سارتر) وعدداً من كبار المفكرين المعاصرين يعرضون التجربة (من الخارج) ولا يضعون أيديهم ، رغم نفاذهم الوجودي ، على السبب الحقيقي الكامن وراء هذا الازدواج . انه (الأخلاقية) التي تجيء دائماً ضماناً للقيم المعلنة ، وحارساً للممارسات العقائدية من الخيانة أو الغش أو الاستغلال أو التنكّر أو التزوير أو التحريف ، من الوحل والدنس .. بصورة عامة .. وما دامت هذه الاخلاقية غير متحققة أساساً لدى الكتلة الثورية قبل ممارستها الحكم ، فان من المنطقي تماماً ، وقد دفعتها الجماهير إلى السدّة العليا أن تمارس اللعبة ، لأن الأرضية التي تحركت عليها ، قبل هذا وبعده ، موبوءة متفككة ، لا تضبطها القيم والأفكار ولكن تحكمها الأهواء .. إن الآيتين السالفتين ، المنبثقتين عن الرؤية الإلهية المتوغلة في أعماق التجربة البشرية تشيران إلى موطن الداء منذ لحظته الأولى ، لأنها تراه (.. ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام) ! ! بعد ذلك تجد الجماهير ، التي كافحت لإيصال هؤلاء القادة إلى السلطة ، نفسها مسوقة بهم إلى (دار البوار.. جهنم يصلونها وبئس القرار) لأنها تتحمل قسطاً من المسؤولية التي يوزعها القرآن دوماً ،

وفق نظرته الشاملة ، على طرفيْ المسألة .

ونقف قليلاً – قبل المضي في الموضوع – لتفحّص موقف القرآن ازاء المسألة الاجتماعية في جانبها (الاقتصادي) ودوره في التدهور والسقوط .. اننا نلتقي هنا أيضاً ، كما التقينا في أماكن أخرى ، بواقعية التفسير الإسلامي وتأكيده على العامل الاقتصادي تأكيداً متزايداً في حشد من الآيات ، كلها تريد أن تقول لنا إن إتاحة المجال لفئة قليلة أن (تملك) إلى حد الترف بمواجهة كثرة هائلة لا تملك إلى حد التضوّر جوعاً .. مسألة غاية في الخطورة ، سيما إذا كانت الفئة المالكة في مراكز السلطة والمسؤولية (والعلاقة المتبادلة قائمة أبداً – خلا التجربة الإسلامية الأصيلة – بين الترف والسلطة ، فإما أن يقود الترف إلى السلطة أو أن تقود السلطة إلى الترف) ، وهي تنذر – بانحرافها عن الموقف الإنساني الاجتماعي المتوازن – بشرّ مستطير وعقاب يستأصل من الجذور أمة أو جماعة أتاحت بارادتها وسلبيتها ظهور هذا التناقض الخطير بين فئة مترفة حاكمة تملك كل شيء ، وكثرة معدمة مظلومة لا تملك شيئاً .. أليس هذا مجانفة لجوهر الحق والعدل اللذين تقوم عليهما بنية السماوات والأرض ؟

لقد مرت بنا تلك الآية الحاسمة التي تكفي وحدها لتوضيح الأهمية الكبرى التي يوليها القرآن للمسألة المادية في تفسيره لحركة التاريخ (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق القول عليها فدمرناها تدميراً . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده بصيراً [١٦]) ....

كما مرت بنا آية أخرى تؤكد نفس الرؤية القرآنية (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أُرسلتم به كافرون. وقالوا : نحن

---

١٦ الاسراء ١٦ ، ١٧ .

أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين) ونتممها هنا (قل : ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ، إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون) [17] .

لكن القرآن لا يقف عند هذا الحد ، بل يمدّ المسألة ويوسع مساحتها ، ويسلّط عليها مناظيره من زواياها جميعاً .. لكي يخرج — دائماً — بالنتيجة الواحدة التي تفسّر كثيراً من وقائع التاريخ البشري وأحداثه .

انه يريد أن يطرح علينا معادلة واضحة ولكنها خطيرة حاسمة « انه إذا اختفى العدل وانعدم التوازن ظهر الغنى الفاحش والترف .. وإذا كان القرآن قد عالج الترف — والغنى الفاحش بطبيعة الحال [18] — كمسألة هدامة في كيان أي مجتمع ، تنبثق عنها — دوماً — مواقف سالبة رجعية وإجرامية كافرة ، فمعنى هذا أنه يريد مجتمعاً متوازناً كبديل لحتمية ظهور الترف في (حالة اجتماعية غير متوازنة) .. ولقد مدّ القرآن تحليله للظاهرة إلى أعماق النفس وامداء العلاقات الاجتماعية مادية وروحية وفكرية وأخلاقية، وتقدم بها صعداً صوب الآفاق البعيدة والتحليلات الشاملة لكي ما يلبث أن يلقي أضواءه ويقول كلمته في حجم الدور الذي يلعبه الترف ازاء مسيرة التجارب التاريخية والحضارية ونموّها ، وعوامل سقوطها ودمارها .

« ان الترف ممارسة (مدمّرة) سواء للجماعة كلها التي تسكت عليها وتغضّ عنها الطرف ، أو تغلو في انهزاميتها فتتملّق وتتقرب وتداهن ، أو للمترفين أنفسهم الذين يعمي الثراء الفاحش ، وما ينبثق عنه من ممارسة

---

١٧ سبأ ٣٣ ، ٣٧ .

١٨ أنظر بحث (مقال في العدل الاجتماعي) للمؤلف.

مرضية متضخمة — مبالغ فيها ، بصائرهم ويطمس على أرواحهم ، ويسحق كل احساس أخلاقي أصيل في نفوسهم ، ويحجب عنهم — وهذا هو الأهم والأخطر — كل رؤية حقيقية لدور الإنسان في الدنيا ، وموقفه في الكون ، وطبيعة العلاقات المتبادلة بين عالمي الحضور والغياب ، والمادة والروح ، والطبيعة وما وراء الطبيعة ، والأرض والسماء . فما أكسب الترف نفوسهم وحسّهم من خشونة وثقل وغلاظة ، تقلوا فهبطوا فانقطعوا عن كل رؤية بعيدة أو إيمان جادّ يتجاوز بهم عالم الحضور إلى الغياب ، والمادّة إلى الروح ، والطبيعة إلى ما وراءها ، والأرض إلى السماء ، والعلاقات المنفعية إلى المواقع الأخلاقية التي يتميز بها بنو آدم عن عالم النحل والنمل والحيوان . وهذا التحليل القرآني يقف في تضادّ كامل مع الفرضية الماركسية التي تقول ان (الدين) لا يعدو أن يكون جزءاً من الأخلاقيات والممارسات (البورجوازية) !!

« .. (وقال الملأ من قومه — الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا — ما هذا إلا بشر مثلكم ، يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون . ولئن أطعتم بشراً مثلكم انكم اذاً لخاسرون) [19] . فها هي كلمات الله تبين لنا البُعد الحقيقي والأهمّ لما يؤول اليه الترف : إنكار للنبوّات والقيم الغيبية ، وكفر بها ، وتكذيب بلقاء الآخرة ، وعدم مقدرة على استخدام مقاييس دقيقة في وزن الحوادث والدعوات والأشياء غير مقاييس الطعام والشراب .. ثم حكم وقتي خاطىء سريع ، بعد هذا ، يرى في ان الالتزام بأي نداء يخرج الإنسان من دائرة علاقاته المنفعية المباشرة ، ويصدّه عن الانغمار في الطعام والشراب ، انما هو صفقة خاسرة ، هكذا بمنطق التجار !!

١٩ المؤمنون ٣٣ — ٣٤ .

« وما كان للمترفين ، حماية لمواقعهم تلك ، الا أن يحرنوا ، ويتمنوا على حركة التاريخ المحتمة أن تحرن معهم وتسكن . وهم في مواجهة أية دعوة جديدة تدعو الإنسان للتقدم خطوات إلى الأمام ، يرفعون شعارات (السكون) و (الرجوع) إلى الوراء خوفاً من أن تجرفهم الدعوة بعيداً عن أماكنهم . وفي أكثر من موضع يحدثنا القرآن عن (رجعية) هؤلاء المترفين (بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون . قل : أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون) [٢٠] .

ولكن الغلبة تكون دوماً لكلمة الله (فانتقمنا منهم ، فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) [٢١] .

ويمضي القرآن في حديثه عن المؤمنين من خلال وحدة مصائرهم الكالحة في الأرض والسماء ، (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال [٢٢] ؟ في سموم وحميم . وظل من يحموم لا بارد ولا كريم . انهم كانوا — قبل ذلك — مترفين . وكانوا يصرّون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون : أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإننا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون ؟ قل ان الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم . ثم انكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم . فمالئون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم) [٢٣] .

---

٢٠ الزخرف ٢٢ — ٢٤ .

٢١ الزخرف ٢٥ .

٢٢ لاحظ أن الشمال — أي اليسار — هنا ، وفي أماكن قرآنية أخرى يأتي كرمز مقترن بالترف ، لا العكس كما هو معروف ! ! وهكذا ، فان لنا — إذا أردنا الحفاظ على اصالتنا — ان نتميز حتى على مستوى تقسيمات عرضية كهذه ، ما دام القرآن نفسه لا يبخل علينا بها ! ! .

٢٣ الواقعة ٤١ — ٥٥ .

« .. وهذا لا يعني أبداً (تعليق) الجزاء على جريمة الترف إلى يوم الحساب وتجميد الارادة البشرية عن العمل لوقف الجريمة وإعادة حالة التوازن .. وما جاء القرآن لينفخ روح القعود والكسل في نفوس الناس ، ومن السذاجة البالغة أن يمرّ هذا في البال كمجرد خاطر ، وهو الذي تترى آياته تباعاً لتؤكد مسؤولية الإنسان الكاملة عن كل (فعل) يمارسه هو ، أو تمارسه (الجماعة) التي ينتمي اليها ، ويندمج فيها ، ويشتبك مصيره بمصائرها ، على العكس تماماً .. إن القرآن لا يكتفي بعرض المسألة من جانب واحد ويبين ما في تجربة الترف من قبح وكفر وإنكار ، وما سيؤول اليه أصحابها من مصير يوازي بشاعة ممارستهم تلك ، يوم الحساب ، وإنما ينتقل – كما سنرى – إلى الجانب الآخر ، ويندّد بالجماعة التي لا (تتحرك) لوقف الجريمة عند حدها ، وبالجماهير وهي تنظر إلى قلة من طغاتها تمارس المنكر فلا ترفع يداً ولا تنطق بكلمة ، وبالناس الذين يرون رأي العين الدمار الذي يقودهم صوب النهاية المحتومة بسبب ما يمارس بين ظهرانيهم من فساد ، فلا يتجمعون للمجابهة والإصلاح قبل فوات الأوان (فلولا نفر من القرون – من قبلكم – أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض ، إلا قليلاً ممن أنجينا منهم ، وأتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) [24] .

« وتبقى سنّة الله التي لا تتبدّل ولا تتغير تعمل عملها في حركة التاريخ ، وتتخذ من المترفين أداة تسوق بها القرى والدول والجماعات والأمم نحو مصائرها المفجعة (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين . فلما أحسّوا بأسنا إذا هم منّا يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ، ومساكنكم لعلكم تسألون . قالوا : يا ويلنا

---

٢٤ هود ١١٦ – ١١٧ .

إنا كنا ظالمين) [٢٥] .

ولم يترك القرآن ، وهو يتحدث عن المترفين ، الطبقة الأخرى التي تلتصق بهم ، دائماً ، التصاق مصلحة ومنفعة واستنزاف ، دون أن يسلّط عليها أضواءه .. طبقة رجال الدين من (الأحبار والرهبان) الذين يشترون بعقيدتهم ثمناً قليلاً ، ويدجّلون على الناس باسم الدين ليأكلوا أموالهم ويضخموا بها كنوزهم من الذهب والفضة .

إن الدور التاريخي الذي تلعبه هذه الطبقة في السير بالجماعات والحضارات صوب التفسّخ والتدهور والانهيار ، لا يقل خطورة عن دور المترفين ، ان لم يفقه بكثير .. لأنه يمارس خطيئة اجتماعية مركبة تقوم على الاستنزاف في أشد ما يهم الناس في حياتهم اليومية والتزوير في ألصق ما يهمهم في تجربتهم الدينية الشاملة .. وما أكثر الوقائع التي يقدمها لنا التاريخ عن ارتباط هذه الفئة بطبقة المترفين ، وعن الدور المزدوج الذي لعبه الطرفان بمواجهة حق الجماهير المادي والروحي على السواء .. أكثر من هذا ، انهما وقفتا بمواجهة حق الفكر في البحث والتنقيب والاكتشاف كيلا يؤول به الأمر إلى فضح مواقعهما المحصّنة بظلام الجهل والدجل والخرافة ... وهما في الحالتين تقفان بمواجهة حركة التاريخ ونمو الحضارات اللذين لا يتحققان إلا وفق تحقّق حدّ أدنى من شروط العدل والحرية والمساواة .

« لقد أراد القرآن الكريم أن يفتح أعين المسلمين جيداً ، ويستفزّ وعيهم الدائم كيلا يتيحوا لظاهرة هدّامة كهذه أن تبرز في مجتمعهم وبين ظهرانيهم ، مهما كانت على درجة من الضآلة والخفاء ، ويندد بكل من تحدثه نفسه بممارسة الأسلوب الذي مارسه الرهبان والأحبار (طبقة رجال الدين المترفين) طويلاً . وهذا — وغيره من الأسباب — يفسّر

---

٢٥ الأنبياء ١١ — ١٤ .

لنا انعدام (المرتزقة) بالدين في تاريخنا ، وظهور نقيض هذا تماماً : رجال الفكر الإسلامي وهم أشد الناس فقراً وتواضعاً واندماجاً في حياة الناس العاديين ، ورفضاً لمواقع السلطة ، وانكاراً لإغراء الذهب والفضة [٢٦] .

« ليس هذا فحسب بل إن القرآن يوجه تحذيره الرهيب إلى المسلمين أنفسهم ، ألاّ يكنزوا الذهب والفضة ، وأن ينفقوها في سبيل الله ، وانه بدون هذا وذاك سوف تنقلب عليهم وبالاً يوم الحساب .. وأي مترف أو غني تتحول حياته إلى تكديس للمال ، والناس يتضورون جوعاً ، دون أن يتحرك بأمواله لوقف ظاهرة الجوع والحرمان، فإن له أن يتصوّر ان هذا الخطاب موجّه اليه ، وانه غريب عن المجتمع الإسلامي الذي ينتمي اليه ، بل انه مارق عن قيمه وأهدافه : (يا أيها الذين آمنوا ان كثيراً من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) ... [٢٧] .

(وترى كثيراً منهم – أي اليهود – يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت ، لبئس ما كانوا يعملون . لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون) [٢٨] .

« في آيات أخرى من سورة (الفجر) يتكرر هذا التنديد بجمع المال وأكل التراث ويرتبط أساساً بعدم اكرام اليتامى و (الحضّ) على اطعام الفقراء مبتدئاً بكلمة الزجر القرآنية العنيفة : كلاّ : (كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضّون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلاً

---

٢٦ أنظر مقال (مواقف) للمؤلف ، مجلة الوعي الإسلامي ، سنة ٧ عدد ٨١ .
٢٧ التوبة ٣٤ – ٣٥ .

لمّا ، وتحبون المال حبّاً جمّاً) [29] .

ونحن لا نستطيع إلا أن نلحظ السمة الجماعية ، المشتركة في فعل (تحاضّون) ، والمفهوم الحركي الكامن في صيغة المبالغة .

« والآيات الكثيرة التي تأمر بربط (الإشباع) بـ (الاعتدال) ، والتقوى والعمل الايجابي الصالح ، وتنهى عن الاسراف والطغيان والإفساد واتباع خطوات الشيطان ، تعمّق في ذهن المسلم العادي والمشرّع ، وتحذرهما في الوقت نفسه ، من حتمية هذه العلاقة الأساسية المتقابلة بين عدم تنظيم الإشباع وبين كل ما يتمخض عنه من (ظلم اجتماعي) يتمثل بالطغيان والإسراف والإفساد في الأرض . وليس ثمة مجتمع تتحكم فيه قلة من الذين يملكون بكثرة من الذين لا يملكون ، وتتخم فيه بطون معدودة وتتضور الملايين ، يخلو من سمات الإسراف والطغيان والإفساد في الأرض ، ذلك (الإفساد) الذي يتلبّس وسط هذا التناقض الاجتماعي ألف لبوس ويتخذ ، وقد اختفى التوازن ، ألف أسلوب ، لتدمير المجتمع وعرقلة الحركة الحضارية ، ووضع العقابيل في طريقها : (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين) [30] . . . (كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض ...) [31] .. (كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان) [32] .. (كلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله) [33] .. (يا أيها

---

٢٨ المائدة ٦٢ – ٦٣ .
٢٩ الفجر ١٧ – ٢٠ .
٣٠ البقرة ١٦٨ .
٣١ البقرة ٦٠ .
٣٢ الأنعام ١٤٢ .
٣٣ الأنفال ٦٩ .

الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ..) [34] .. (كلوا من طيبات ما رزقناكم ، ولا تطغوا فيه فيحلّ عليكم غضبي ، ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) [35] .

« والآية التي تبين للناس جميعاً ، ان الأرض قد (ذلّلت) لهم بارادة الله سبحانه ، وتدعوهم إلى أن يتحركوا في أمدائها ، ويأكلوا من رزقها ، ولا معذر بعدها لجائع قاعد لا يجهد ، ومسحوق ساكن لا يتحرك (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) [36] ... والآية التي تقرن كارثة الجوع بمأساة الخوف وتبين لهم كم هي عظيمة المنّة التي يمنها الله على الناس عندما ييسّر لهم سبل الشبع والأمن .. أفلا يعبدوه ؟ (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) [37] ... والآيات التي تأمر المسلمين بأن يتجاوزوا أخطاءهم ويكفّروا عنها باعتبارها أعمالاً (سالبة) ، وذلك بتقديم ما يقابلها ويعوّض عنها من (عطاء) باعتباره (عملاً ايجابياً) يمنح المجتمع ما خسره من جرّاء ممارسة الأخطاء . وأي (فعل) أولى بهذا (العطاء) من إطعام الجائعين وتحرير المستعبدين ؟ (أو كفارةٌ طعام مسكين أو عدل ذلك صياماً) [38] . (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفّارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ..) [39] .

---

٣٤ المؤمنون ٥١ .
٣٥ طه ٨١ .
٣٦ الملك ١٥ .
٣٧ قريش ٤ .
٣٨ المائدة ٩٨٥ .
٣٩ المائدة ٨٩ وعن برنامج الإسلام لمجابهة مشكلة الفقر ، بالمقابل ، أنظر بالتفصيل (مقال في العدل الاجتماعي) للمؤلف .

لقد وقف (ابن خلدون) في (مقدمته) طويلاً عند مسألة (الترف) ولا نشك بأنه تأثر بالمناظر والمواقف التي يطرحها القرآن عن المسألة ، فضلاً عن دراساته ومشاهداته للدول التي قرأ عنها أو عاصرها ، وقد اعتبر ابن خلدون الترف (حتمية) ترتبط بعملية (التحضّر) ، بانتقال الجماعات البشرية من الفقر والبداوة والتنقّل في الصحراء ، إلى الغنى والحضارة والاستقرار في الأمصار ، وعالج المسألة من جانبيها الأخلاقي والاقتصادي ، فبيّن في الأولى ما يؤول اليه الترف من تفكك في الأخلاق وركود في الهمة ينعكسان بالضرورة على مسيرة الحضارة ، ويأذنان بتوقف تدفقها الإبداعي ، وبالتالي بانحلالها ودمارها .. وبيّن في الثانية ما يعنيه طغيان الترف في مجتمع ما من اختلال في التوازن بين الإنتاج والاستهلاك ، ومن تضخم للنزعة الاستهلاكية على حساب التنمية والعطاء ، الأمر الذي ينعكس هو الآخر ، سلباً ، على التطور الحضاري العام .

وما أكثر الدويلات الإسلامية ، وغير الإسلامية ، التي كان الترف يكمن وراء تدهورها وسقوطها ، وما أشد الحاجة لأن نعود لتفحّص هذا الجانب المهمّ من تاريخنا على ضوء المعطيات القرآنية واشارات ابن خلدون ، من أجل أن نضع أيدينا على الدور الذي لعبه ذلك التناقض اللاأخلاقي الفاضح بين طبقات حاكمة تملك كل شيء تقريباً، وتمنح الشعراء الذين يمجدونها ، زيفاً وتملقاً وارتزاقاً ، أكياس الذهب والفضة ، وتقضي لياليها الباذخة في أبهى المباني وأفخم القصور ، وبين قواعد محكومة لا تملك شيئاً تقريباً ، لا خبزاً ولا سكناً ..

لقد علمنا الراشدون ، وعمر بن عبد العزيز ، وغيرهم ، من خلال تجربتهم في الحكم ، صيغة أخرى نقيضة تماماً لهذا الجرم [٤٠] ، فلماذا نتردد

---

٤٠ أنظر : (ملامح الانقلاب) و (لعبة اليمين واليسار) و (مقال في العدل الاجتماعي) للمؤلف.

في فضح الجرم الذي مارسه كثير من حكام بني أمية وبني العبّاس وأمراء الدويلات الإسلامية ، فقادهم جميعاً نحو البوار ؟ ولماذا نتخلى عن المبادرة الموضوعية . في إطارها الرحيب ، لكي نسلّمها لتلامذة الفكر المادي الذين (أُشربوا في قلوبهم العجل) فيفسدوا بها تاريخنا كله بتشنجهم المعروف . وأحكامهم المرسومة سلفاً ؟ !

وإذا كان ماركس ورفاقه قد ضيّقوا نطاق المسألة وحصروها بالاطار المادي الصرف : حتمية التناقض الطبقي ، وضرورات التبدّل في وسائل الإنتاج . وهذا صحيح إلى حدّ ما ، فإنهم — بهذا — تجاوزوا البعد الأخلاقي ، ونسوا ان الترف قد يبرز في مجتمع تزول فيه الطبقات ، على يد الفئة الحاكمة ، هذه المرة . بما تملكه من مقوّمات السلطة والقوة ، و (ميلوفان دجيلاس) يعطينا دليلاً قاطعاً على هذا من خلال تحليله للشيوعية اليوغسلافية [41] .

أما القرآن الكريم فقد عرض علينا المسألة من أوسع منظور ، وتوغل في صميم التجربة البشرية ، وربط في عددٍ من آياته بين الغنى والسلطة من جهة . وبين الغنى والطغيان الأخلاقي من جهة أخرى (كلا ان الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) [42] ....

وهذا تأكيد واضح على العلاقة الصميمة بين التجربتين الاجتماعية والأخلاقية وعلى انعكاس العلاقات المادية في صميم السلوك البشري .

وثمة فرق شاسع بين هذا الموقف وبين التشنّج الماركسي الذي يردّ كل التبدلات في أخلاق الناس وسلوكيتهم إلى تبدّل العلاقات المادية ويخضعهم لها اخضاعاً ... بينما يكسر القرآن من خلال حشود آياته هذا الجدار الأصمّ ، ويفتح الطريق أمام الإرادة البشرية لكي تسيطر على

---

٤١ انظر الهامش السابق .

٤٢ العلق ٦ — ٧ .

التبدلات المادية وتصوغها لصالح الإنسان نفسه ، فتحقق بهذا ، التوازن الاجتماعي الذي لا بد من توفره كشرط أساسي من شروط نمو الحضارات وديمومتها ، تماماً كضرورة التوازن السياسي بين القيادات والقواعد ، مما سبق وأن عرضنا له ، وكضرورة التوازن الشامل بين القيم الروحية والمادية مما سنعرض له فيما بعد .. وهذا كله يؤكد الموقف (الوسطي) (المتوازن) الذي يمنحنا القرآن إياه ، والذي يمثل المفتاح الأول والأخير لتفسير التاريخ البشري كله سلباً وايجاباً ..

ونعود مرة أخرى ، إلى تفحّص العلاقة السياسية المتبادلة بين القيادات والقواعد نظراً لارتباطها الوثيق بالمسألة الاقتصادية آنفة الذكر .

إن القرآن – كما رأينا – لا يعلّق المسؤولية على القيادات التاريخية فحسب ، وهي تمارس جرمها وفجورها وترفها وطغيانها وأخلاقياتها الهابطة ، وتلعب لعبة الازدواج تلك .. انما هي (القواعد) التي أعانتها في البدء على (الوصول) ، وهي تعينها الآن بتأييدها المعلن أو الضمني ، المادي أو الأدبي ، الفكري أو الأخلاقي ، أو بسكوتها – على الأقل – على مواصلة المسير بالجماعة صوب البوار .. ومن ثم يصدر القرآن الكريم تحذيراته إلى هذه القواعد من أن يتبلّد وعيها ، ويتجمّد حسها الجماعي ، فتنساق في مجرى (الطاعة) و (الاندماج) في مسار السلطه حيث لا تستطيع حتى ان تقول (لا) بل انها – أكثر من ذلك – تقرّ في سرائرها هذا الطغيان الذي تمارسه السلطة ، ولا تستطيع أن تجد في نفسها أي (مبرّر) للرفض أو المقاومة .

ومن ثم تجد الجماعة نفسها وقد غفلت عن أهدافها وقيمها ومطامحها لأنها لم تدع مسافة كافية بينها وبين (السلطة) للرؤية والنقد والتمحيص والرفض والمقاومة ، بل اقتربت منها ، رغباً ورهباً ، واندمجت بها .. وأصبح محتوماً أن تتحمل معها المسؤولية حتى لو لم تحصل باندماجها هذا

إلا على الفتات ، وأحياناً على الاحتقار والازدراء والصفعات .

إن القرآن الكريم يبين لنا ، بأسلوب ينضح سخرية واحتقاراً ، شكوى هذه القواعد التي دانت بالطاعة (الاختيارية) لحكامها وطواغيتها (وقالوا : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) [43] . وهنالك آيات أخرى كثيرة يدور فيها الحوار على هذا النسق بين التابعين والمتبوعين يمكن أن نجدها في اطار المشاهد التي يعرضها القرآن عن القيامة (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا : لو أن لنا كرّة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) [44] . واذ (برزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا : انا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . وقال الشيطان لما قضي الأمر : ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي ، اني كفرت بما أشركتموني من قبل ، ان الظالمين لهم عذاب أليم) [45] .

إن هذا يذكرنا بمأساة (الدوامة) كما يعرضها (سارتر) ، مرة أخرى ، ان السكرتير — الذي يرمز به للالتصاق الكامل بالسلطة ، ولافتقاد الإنسان بعده الذاتي وتميّزه الوجودي بالكلية — يبقى في مكانه مهما تبدلت الزعامات وتغيرت القيادات .. انه ، لدى تسلّم كل زعيم ثوري جديد مسؤوليته

---

٤٣ الأحزاب ٦٧ — ٦٨ .

٤٤ البقرة ١٦٦ — ١٦٧ .

٤٥ ابراهيم ٢١ — ٢٢ .

أول مرة ، وجلوسه على كرسي الحكم ، يتقدم اليه بالكأس التقليدية لكي يشربها .. وسارتر ، زيادة في السخرية ، وفي تعرية هؤلاء الملتصقين من بقايا انسانيتهم وحطام ذاتيتهم ، يعرض علينا (السكرتير) — بعد تبدلات ثورية ازدواجية عديدة — يداً (فقط) تمتد بالكأس لكي يشربها الزعيم الجديد .. أما من صاحب اليد ؟ ما اسمه ؟ ما هويته ؟ ما شخصيته ؟ فلا أحد يدري لأنه لا يوجد ، أساساً، لهذه اليد صاحب له اسم وهوية وشخصية !!

٣

ما الذي يطلبه القرآن الكريم من القواعد كيلا تلعب (عليها) و (بها) الزعامات الطاغية ، والطبقات المترفة ؟ .

انه – في البداية – يطلب منهم جميعاً أن (يتحركوا) ، ان (يردّوا) على الظلم ، ان (يرفضوا) الانتماء اليه ، أو قبوله كمسلّمة لا تقبل نقضاً ولا جدلاً .. ان بمقدورهم – كذلك – أن يغادروا المواقع التي يسود فيها الطغيان لكي لا يسهموا في الجريمة ، بشكل أو بآخر ، يغادروها إلى أي مكان ، فأرض الله واسعة .. وليس معنى هذا دفعهم إلى الفرار .. أبداً .. انما هو فكهم من هذا الاندماج المخزي بالسلطة ، وابعادهم عن هذا الالتصاق المذلّ بمواقع الطغيان ، فاذا ما تمكنوا أن يحدثوا بحركتهم فاصلاً بينهم وبينها تمكنوا آنذاك من رؤية الموقف على حقيقته ، حتى لو دفعتهم حركتهم إلى الهجرة إلى أقصى الأرض لأنهم سوف لا يلبثون أن يكرّوا عائدين ، مسلّحين – هذه المرة – بالوعي والقوة، لكي يستأصلوا شأفة الظالمين : (ان الذين توفّاهم الملائكة ، ظالمي أنفسهم ، قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً . الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً)[١] .

١ النساء ٩٧ – ٩٨ .

وينعى ، في آية ثانية ، على الذين آثروا السكون على الحركة ، واختاروا الالتصاق بالظلم والعمل تحت يديه ، على رفضه والانشقاق عليه (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم ، وضربنا لكم الأمثال) [٢] . وفي آية ثالثة يبرز هدف هذه الهجرة (الحركية) التي يدعو لها القرآن واضحاً نقياً : ان الإنسان المؤمن يجب ألا يعبد الا الله ... هذا هو دوره الحقيقي في العالم ، بل هذا هو مبرر وجوده في الكون .. وعبادة الله – كما سبق وأن بينّا – ليس في أن نتصل به في شعائرنا اليومية أو الموسمية فحسب ، بل أن نرتبط به في كل فاعليات حياتنا ، وأن نتوجه اليه في كل خطوات وجودنا الداخلي ، وألا نأخذ إلا منه ، ولا ننتمي ونخضع إلا له .. فاذا ما سعت القيادات الجاهلية الطاغية أن تزيّف هذا الدور البشري الأصيل ، فتصدّ القواعد المؤمنة عن التوجه إلى خالقها توجهاً سليماً كاملاً أصيلاً ، من أجل أن تلتصق بها وتمارس خدمتها ، فان على هذه القواعد أن ترفض : (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء) [٣] .. وان عليها أن تتحرك وتهاجر اذا اقتضى الأمر : (يا عبادي الذين آمنوا أن أرضي واسعة فإياي فاعبدون) [٤] .. الهجرة التي تعقب عودة واعية مسلّحة إلى مناطق الطغيان لوقفه قبل أن يقود بقية الناس إلى الدمار (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين) [٥] ... ولنا في هجرة رسول الله (ص) أبرز دليل .

وفي آية حاسمة أخرى ينبّـه القرآن الكريم ، القواعد المؤمنة ، إلى حقيقة على درجة كبيرة من الخطورة ، لكي يكونوا على وعي تام بها ، وعلى حذر كامل منها في الوقت نفسه ، ذلك ان الفتنة التي تتمخض حتماً

---

٢ ابراهيم ٤٥ .
٣ الأعراف ٣ .
٤ العنكبوت ٥٦ .
٥ التوبة ١٤ .

عن ممارسة الطغيان وانحراف القيادات عن أمانة المهمة التي عهدت اليها لن تنزل على رؤوس هذه القيادات فحسب .. انها ليست ممارسة (هندسية) لكي تجيء منطبقة تماماً على مساحة الواقع التي يحتلها الطغيان ، لأنها تجربة اجتماعية ، والتجربة الاجتماعية تجيء دائماً متداخلة المساحات ، متشابكة الممارسات ، مرتبطة الوشائج بحيث يصعب تفكيكها وتجزيئها بأسلوب رياضي صارم .. وان مسؤولية الطغيان لا تقع – كما يؤكد القرآن دائماً – على عاتق القيادات ، وانما تتحمل القواعد نصيباً كبيراً منها لسكوتها واقرارها وعدم رفضها ومقاومتها وتحركها ..

لهذا كله ، فان الفتنة أو العقاب الذي سينجم عن ممارسة الطغيان والظلم سوف ينزل على رؤوس الجميع ، مدوّماً ، مزلزلاً ، شاملاً ، لا يعرف (احداً) في البنية الاجتماعية التي يمارس فيها الانحراف ، ظالماً كان أم مظلوماً ، ولم يكن العقاب ، أو تكن الفتنة ، في يوم من الايام ملكاً أو نبيّاً .. ان القرآن الكريم يحذر القواعد المؤمنة ويمنحها الوعي الكافي كذلك : (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون . واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب)[٦] .

وآيات القرآن الكريم ، خلال هذا ، تترى ، مانحة القواعد المؤمنة ، مزيداً من المواقف التي تمكنهم من عملية المجابهة الحركية هذه ، وهم مطمئنون إلى صلابة الأرضية التي يتحركون عليها .. إن القرآن يدعونا ، على المستوى النفسي الداخلي (العمودي) لأن نمارس باستمرار اخلاقية أو (عملية) التغيير الذاتي ، أو ما سماه الرسول (ص) الجهاد الأكبر لكي نكون قديرين دائماً على المجابهة ، مستعدين أبداً لكشف المواقف

---

٦. الأنفال ٢٤ – ٢٥ .

اللاأخلاقية وتعريتها وعزلها (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال) [7] .. (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم والله سميع عليم) [8] .

كما يدعونا ، على المستوى الجماعي الخارجي (الأفقي) ، إلى أن نتمسك بالوحدة ، وألا نمارس تفكيك وحدتنا هذه بالانشقاقات والمنازعات (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذْ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تهتدون) [9] ... (ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) [10] ... (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا ، فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ان الله مع الصابرين) [11] .

كيف تستطيع الجماعة المؤمنة أن تحفظ وحدتها من التفكك والتمزق والدمار ؟ إن القرآن يطرح أمامنا التزامين أساسيين ، لا لضمان هذه الوحدة وديمومتها فحسب ، بل لتنميتها وتوسيعها عمقياً وعمودياً ، لتحويلها إلى (صيرورة) دائمة نحو الأحسن والأرقى في ممارساتها وفي معطياتها على السواء .

الالتزام الأول التزام أخلاقي ، يرمي إلى تكوين أخلاقية خاصة بالجماعة المؤمنة تنبثق في أعماق الفرد لكي ما تلبث أن تعطي لونها للعلاقات

---

٧ الرعد ١١ .
٨ الأنفال ٥٣ .
٩ آل عمران ١٠٣ .
١٠ آل عمران ١٠٤ – ١٠٥
١١ الأنفال ٤٦ .

الاجتماعية كلها .. واذا كنا قبل قليل قد تكلمنا على أخلاقية التغيير الذاتي ، وهي جهد نفسي ارادي دائم لحماية قيم المجتمع المسلم وتنميتها ، فاننا هنا نشير إلى هذه القيم نفسها التي تمثل مراكز الثقل في حضارات الأمم وشحنات الدفع في مسيراتها ، وتكاد علاقتها الضرورية للنمو الحضاري تبدو طردية باستمرار على مستويي الكيف والكم .. فكلما التزمت جماعة ما بمزيد من القيم الأخلاقية ، وكلما سعت إلى صقل هذه القيم وتأصيلها في أعماق البنية الاجتماعية ، كلما تمكنت من حماية وحدتها ومن تأخير عمرها الحضاري وإبعاد شبح التدهور والسقوط بالتالي .. وكلما بدأت جماعة ما بالتخلي عن هذه الالتزامات ، واطراحها جانباً ، وعدم السعي لبلورتها وتعميقها في الممارسة الجماعية ، كلما عرضت وحدتها للتفتت ، وآذنت نشاطها ومعطياتها الحضارية الشاملة بمصير سيئ قريب .

اننا نرى اليوم بأم أعيننا كيف ان بقايا القيم الأخلاقية التي يتميز بها رجل (العالم المتقدم) ومجتمعاته ، من صدق وأمانة وتحمل للمسؤولية وشجاعة واخلاص وصبر وتضحية ، ومن رفض للكذب والغش والخيانة والتهرّب والجبن والجزع والأثرة ، هي التي تلعب دورها الواضح على المستوى العملي (البراغماتي) في تفوق هذا الرجل وذلك المجتمع ، في عالم لم يعد يعترف — على المستوى النظري — بالاخلاقيات ، مما يشير إلى مدى الثقل الواقعي لهذه القيم وارتباطها العضوي بأية ممارسة حضارية .

ان القرآن الكريم يطرح سلّماً من القيم الأخلاقية ، كثير الدرجات ، بعيد الامتداد ، من خلال مئات الآيات المنبثة هنا وهناك ، والتي لا يسعنا الاشارة اليها ، والتي تجيء في معظم الأحيان ملامسة لواقعه تاريخية قريبة أو بعيدة ، معلقة عليها ، مستمدة منها قيماً جديدة .. وذلك من أجل أن ترتبط (القيمة) الخلقية ارتباطاً شرطياً في ذهن المسلم ونفسه، وتزداد توغلاً في أعماقه ، وتأصلاً في علاقاته مع المجتمع الذي يتحرك فيه .

ولا جدال في ان القيم الخلقية المنبثقة عن الرؤية الايمانية والحسّ الديني ، تكتسب موضوعية في ميدان العلاقات وعمقاً في ميدان الذات لا نجد عشر معشارها في الأخلاقيات الوضعية المبنية على الموقف المصلحي والتبرير البراغماتي (العملي) .. انها آنذاك سوف تفقد موضوعيتها وشموليتها ، وتقع في أسر التحيّز والنسبية ، فتحوّر وتزيّـف ، حيناً ، من أجل أن تلائم مصلحة ما أو منفعة معينة ، وتلغى أو تستبعد ، حيناً آخر ، لأنها لا تنسجم أساساً ومتطلبات الموقف النسبي .

هذا إلى ان هذه القيم ستفقد بُعدها العمقي ، وتغدو أكثر قلقاً واهتزازاً ، الأمر الذي يفقدها قوتها الالزامية ، وثباتها وديمومتها .. واننا بمجرد القاء نظرة عجلى على التاريخ البشري ، سنتبين بوضوح هذا الفرق الحاسم بين قيم أخلاقية دينية موضوعية شاملة عميقة متأصلة ، وبين قيم أخلاقية وضعية نسبية محدودة سطحية قلقة .. ولشدّ ما لعب هذا التقابل الأخلاقي دوره في التاريخ ، وغطى مساحات واسعة لا تبررها بأية حال النظرة المادية الضيّقة أو المثالية الفضفاضة .

ان مقياس التفوق الحضاري لا يكمن في حجم الانتاج الكمي بقدر ما يكمن في مدى (أخلاقية) الجماعة المتحضرة ، وسعيها لخدمة الأهداف الإنسانية الشاملة .. واننا بمجرد أن نلقي نظرة سريعة على حضارتنا الإسلامية في عصور تألقها ، ونقارن ذلك بمعطيات الحضارة المعاصرة ، على المستوى الإنساني ، سنضع أيدينا على قيمة هذا (المقياس) وأهميته القصوى .. ان الحضارة المعاصرة تتجاوز ، حتى على مستوى الفكر والفلسفة ، حدود الموضوعية الشاملة ، وتهبط كثيراً عن أخلاقية الإنسان ، بما هو انسان ، فتحصر أهدافها ومعطياتها في نطاق دولة أو عرق معيّن كما هو الحال عند هيكـل ، أو طبقة معينة كما هو الحال عند ماركس ورفاقه ، أو على أحسن تقدير ، في اطار وحدة حضارية معينة كما هو الحال عند توينبي

هذا بينما تطرح الحضارة الإسلامية وحدهـــا شعاراتها الإنسانية الشاملة الرحيبة المنبثقة عن قيم الحق والعدل التي صاغها القرآن :

(ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ..) [١٢]

(واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) [١٣] .

الصدق ، الأمانة ، تحمل المسؤولية ، الشجاعة ، الصبر ، الاخلاص ، التضحية ، الإيثار ، مقاومة اغراءات الشهوة ، التجرّد ، الصمود ، التزام الحق والعدل بمقاييسها الموضوعية لا المنفعية .. إلى آخره .. ويطرح القرآن –بالمقابل– النقائض السالبة لهذه الاخلاقيات كالكذب والغش والتزوير والتهرب والجبن والجزع والأثرة والانسياق وراء اغراءات الشهوة والمنفعية .. إلى آخره .. داعياً المسلمين ، أفراداً وجماعات ، إلى مكافحتها دون هوادة ، وإلى استئصالها من أعماق نفوسهم وأمداء علاقاتهم الاجتماعية ، رابطاً إياها بمسألة الصراع الدائم الذي لا يكف بين الإنسان والشيطان .. بين الخير والشر .. من أجل أن يمنح الإنسان المسلم قاعدة واسعة لتصوّر الموقف ، وايماناً عميقاً بضرورة المقاومة ، واستجاشة لكل طاقاته من أجل الانتصار ، الذي مهما كان جزئياً ، فانه في النهاية سيضيف قوة إلى الرصيد الأكبر في صراع الخير ضد الشر ، والإنسان ضد الشيطان .

وتكاد المسألة تبدو في المجتمع المسلم أو في أي مجتمع ، أشبه بمعادلة رياضية واضحة : كلما تجاوز الإنسان والمجتمع ، في حضارة ما ، درجة أكثر في سلّم القيم الخلقية ، كلما تقدم خطوات إلى الأمام وامتلك مزيداً من ضمانات الديمومة والتطور .. وبالعكس ، يجيء الرجوع ، أو السكون ، أو التفتت والانهيار ، بالإشاحة عن هذه القيم واسقاطها ، في ميادين الذات والمجتمع واحدة بعد أخرى . .

---

١٢ المائدة ٨ .

١٣ الأنعام ١٥٢ .

لقد كان خليفة المسلمين الأول ، أبو بكر الصديق ، واضح الرؤية عندما خاطب منتخبيه في كلمته الأولى لهم « انه ما شاعت الفاحشة في قوم قط إلاّ ضربهم الله بالذلّ » ، وواضح الرؤية أيضاً عندما أردف « وانه ما ترك قوم الجهاد قط إلاّ عمهم الله بالبلاء » وهذا ينقلنا إلى الالتزام الآخر .. (الجهاد) ..

والجهاد كما هو معروف ، وكما أكدنا أكثر من مرة ، والذي يرد هو الآخر في عدد كبير من الآيات لا نجد ضرورة للاشارة اليها ، هو حركة المسلمين الدائمة في العالم لإسقاط القيادات الجاهلية الضالّة ، واتاحة حرية الاعتقاد للانسان حيثما كان هذا الإنسان ، بغضّ النظر عن الزمن والمكان والجنس واللون واللغة والثقافة والانتماء .. انه — في الحقيقة — مبرر وجود الجماعة الإسلامية في كل زمان ومكان ومفتاح دورها في الأرض وهدفها العقيدي ، ومعامل توحدها ، وضامن ديمومتها وتطورها .. وبدون هذه الحركة الجهادية ، يسقط هذا المبرّر ويضيع المفتاح ، وتفقد الجماعة المسلمة قدرتها على الوحدة والتماسك والاستمرارية والبقاء .

إن الجهاد ، ، كهدف ايماني حركي دائم ، أشبه بمعامل عقائدي — اجتماعي يشد أفراد المجتمع الواحد بعضهم إلى بعض ، ويوجههم صوب بؤرة واحدة ، ويدفعهم إلى تجاوز السكون والتحرك الدائم إلى أهداف أبعد فأبعد ، وهذا — بطبيعة الحال — يجيء بمثابة ضمان أكبر لوحدة الجماعة المسلمة وتماسكها واستمرارها وصيرورتها التحريرية المبدعة .

وعلى العكس ، ما ان تفتّر روح الجهاد في نفوس المسلمين ، أفراداً وجماعات ، قيادات وقواعد ، حتى تتفكك عرى وحدتهم ، وتتعدد أهدافهم ، وتميل تجربتهم الاجتماعية إلى التباطؤ فالسكون ، وتتساقط مواقعهم الأمامية ، وبدلاً من أن يسددوا ضرباتهم إلى القوى الجاهلية ،

ويمتلكوا زمام المبادرة الاستراتيجية في العالم ، إذا بهم يتلقون الضربات من هذه القوى ، ويتراجعون صوب المواقع الدفاعية في الخطوط الخلفية .

فهي الهزيمة — إذن — على كل المستويات السياسية والعسكرية والاستراتيجية والعقائدية ، والحضارية في نهاية المطاف .. واننا لننظر إلى تاريخنا فنرى في هذا الالتزام الكبير الآخر ، معادلة رياضية أخرى ، فحيثما سادت روح الجهاد مجتمعاً اسلامياً ما تمكن من حماية وجوده ، وتعزيز وحدته ، وضمان ديمومته العقائدية ، وابداعة الحضاري ، واتساع ميادين نشاطه في العالم .. وحيثما افتُقدت هذه الروح الجهادية وطمس عليها في مجتمع آخر حيثما فقد مبرر وجوده ، وتمزقت وحدته ، وتباطأت اندفاعيته العقائدية ، واضمحلت منجزاته الحضارية ، وتقلص دوره في العالم ، وآل أمره إلى التدهور والسقوط .. وان تاريخنا المعاصر ليقدم لنا عشرات الأمثلة التطبيقية على صدق هذه المعادلة ... لقد كان أبو بكر — مرة أخرى — واضح الرؤية عندما قال مخاطباً منتخبيه « انه ما ترك قوم الجهاد قطّ إلاّ عمّهم الله بالبلاء » !! .

٤

وثمة حقيقة أساسية أخرى ، من بين حقائق القرآن الأساسية بهذا الصدد يجب رؤيتها والوقوف عندها بعض الشيء : انه ما دام القرآن الكريم قد قدم لنا – من خلال نسيج آياته جميعاً – صيغة للنشاط البشري على الأرض تتميز بالتوازن والتداخل والتكامل بين قيم الروح والمادة ، انطلاقاً من تكويننا الآدمي المنبثق عن (نفحة الروح) في (قبضة التراب) ، وحدثنا من خلال حشود سوره ومقاطعه عن تجربة المسلم ، فرداً وجماعة ، تلك التي لن تأخذ مسارها الصحيح المنسجم مع موقف الاستخلاف في الأرض ، إلا بموازنة متطلباتها الروحية والمادية على السواء .. وعن القيمة الكبيرة التي أولاها القرآن للمسألة الجسدية والمادية مما لا نلمح عشر معشاره في معظم التجارب الدينية التي جنحت باتجاه الروح ، ونظرت إلى المسألة الجسدية أو المادية نظرة احتقار واستعلاء وازدراء .. فأن معنى هذا أن أي خلل في هذا التوازن ، الذي يؤكده القرآن ويدعو اليه كشرط أساسي للاستخلاف ، سيؤول – بالضرورة – إلى تفكك وانحلال الفرد والجماعة وتمزقهما وتشتتهما بهذا الاتجاه أو ذاك .. الأمر الذي يقود ولا ريب إلى تأزم في الفاعلية البشرية وبالتالي في تدفق معطياتها الحضارية ، مما يعرض (الجماعة) لانتكاسة قاسية قد تأتي عليها من القواعد .

إن مسألة (التوازن) عميقة في نسيج القرآن بحيث اننا نراها تأخذ أكثر من اتجاه ، وتتلبس بأكثر من شكل .. إن إحدى الآيات تتحدث بصراحة عن (الزينة) ، آمرة بني آدم أن يمارسوها ، وأين ؟ عند كل مسجد ، حيث يؤدي الإنسان غاية تجربته في التجرد والانسلاخ عن زخرف الحياة الدنيا (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) تعقب ذلك دعوة صريحة – أيضاً – إلى الأكل والشرب شرط ألا يبلغ ذلك حد الاسراف (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) [1] . ثم ما تلبث التي تليها أن تتساءل بصيغة استنكارية واضحة (قل : من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) [2].

إن المحرّم والمرفوض في الإسلام هو الفاحشة ، أياً كان مصدرها ، الجسد أم الروح ، وليس ثمة رفض أوتحريم أو احتقار موجه ابتداء إلى الجسد بما أنه جسد ، وإلى غرائزه وحاجاته بما انها غرائز وحاجات تقف في طريق الروح !! إننا نقرأ في الآية التي تلي ذلك – وهذا الارتباط بين الآيات الثلاث يحمل مغزاه الواضح – نقرأ (قل : انما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغي بغير الحق ، وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وان تقولوا على الله ما لا تعلمون) [3] .

وما أكثر الآيات التي تستنكر على بعض أتباع الديانات المنحرفة السابقة تحريمهم الكثير من الطيبات التي أحلها الله ، وما أكثر الآيات التي تدعو الإنسان إلى استغلال الطيبات دون افراط أو تفريط .. وإلا لم كان خالق الله سبحانه لها ، وتفجير خيراتها وتنويعها في أنحاء الأرض ؟ !

---

١ الأعراف ٣١ .
٢ الأعراف ٣٢ .
٣ الأعراف ٣٣ .

(كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل ، إلا ما حرم اسرائيل على نفسه) [٤] .

(قل : هلمّ شهداءكم الذين يشهدون ان الله حرّم هذا) [٥] .

(ثمانية أزواج ، من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن البقر اثنين !! قل الذكرين حرّم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين ، نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ؟ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ، قل الذكرين حرّم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين . قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ...) [٦] .

(قل : أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل الله اذن لكم ؟) [٧] .

(وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفاً أكله ، والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر ، وأتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين)[٨] .

(لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) [٩] .

(لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ، نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شيء) [١٠] .

إن الآيتين الأخيرتين تضعان التحريم الاعتباطي جنباً إلى جنب مع الشرك بالله ، وتنعى على أولئك الذين يمارسون هذا التحريف بشأن الحقائق

---

٤ آل عمران ٩٣ .
٥ الأنعام ١٥٠
٦ الأنعام ١٤٣ — ١٤٥ .
٧ يونس ٥٩ .
٨ الأنعام ١٤١ .
٩ الأنعام ١٤٨ .
١٠ النحل ٣٥ .

الكونية وبحق أنفسهم على السواء ، قائلين إن هذا قدر لا مفر لهم منه .. إن كبت الغرائز هو تزوير للموقف الإنساني في الأرض ، والشرك بالله هو أكبر تزوير ، ومن ثم كانت الممارسة البشرية التي تعتمد التزوير مرفوضة في القرآن مهما صغر حجمها أو كبر .

أكثر من هذا : اننا نجد في الآية التي تقول (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) [11] ، أن كبت بعض جوانب الغريزة أو الحدّ من اشباعها القائم على ضرورة التنويع يجيء بمثابة (عقاب) وليس – كما قد يتصور البعض – قاعدة من قواعد الدين .. على العكس إن إحدى كبريات البداهات الدينية التي نتعلمها من القرآن الكريم ، أن الحلال هو القاعدة العريضة في ميادين الاشباع الغريزي جميعاً : طعاماً وشراباً وجنساً ، وأن التحريم مسألة (استثنائية) محدودة المساحة ، ضيقتها ، حتى إن القرآن ليعتبر توسيعها بشكل اعتباطي كفراً وافتراء على الله : (وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ...) [12] .. (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب : هذا حلال وهذا حرام) .. [13] .. ويحذر المؤمنين من هذا السلوك المنحرف المعارض لطبيعة التركيب البشري الذي صاغه الله وهو أدرى به (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) [14] .. (يا أيها النبي لم تحرم ما أحلّ الله لك ؟) [15] . . ويبين لهم ان إحدى مهام الأنبياء الأساسية ، أن يجيئوا – دائماً – لكي يعيدوا الأمور إلى نصابها ويقفوا بمواجهة التزوير..وهنا في مجال التجربة الغريزية، يجيئون لكي يفتحوا الطريق العريض أمام متطلباتها مرة أخرى لكي يمضي الإنسان

---

١١ النساء ١٦٠ .
١٢ الأنعام ١٤٠ .
١٣ النحل ١١٦ .
١٤ المائدة ٨٧ .
١٥ التحريم ١ .

المؤمن إلى أهدافه الروحية دون أن تعيقه الضرورات أو تفرض على لاوعيه الباطن الف تصور مدمر وخيال منهوم لا يعرف شبعاً ولا ارتواء (ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم) [16] .. (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) [17] .

ان نداء يطرحه القرآن لبني آدم في مواضع كثيرة (كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً) [18] ... يقودنا إلى بديهة أخرى ، كثيراً ما غفلنا عنها ، لشدة ظهورها ووضوحها ، ان الله سبحانه قد (سخّر) لنا الأرض بما ينسجم وتركيبنا الآدمي ، من أجل أن نواصل مسيرتنا لاعمار العالم وعبادة الله وحده ، ذلك (التسخير) الذي يتحدث عنه القرآن في مئات المواضع .. وانه لمن التناقض الفاضح ، المرفوض في القرآن قطعاً ، أن يركب الإنسان — من قبل الله — تركيباً معيّناً ، وأن تسخر الأرض — بارادة الله — لتلبية متطلبات هذا التركيب ، ثم تجيء الأديان — من عند الله أيضاً — لكي تنصب الحواجز وتضع الأسلاك الشائكة بين متطلبات التركيب الآدمي وبين خيرات الأرض ومنافعها المسخّرة .

ان هذا التناقض انما يجيء — حينما يجيء — على ايدي طبقات رجال الدين التي يقوم دورها التاريخي على التزييف ووضع الحواجز ونصب العراقيل في دروب المؤمنين من أجل أن تضطرهم اضطراراً للجوء اليها وطلب معونتها ، قبل السماح لها بالذهاب إلى الله .. وهناك يبدأ الاستغلال والاستنزاف والأكل بآيات الله ثمناً قليلاً .. وقد قطع الإسلام الطريق على بروز طبقات محترفة كهذه ، ومن ثم فلا داعي للحديث أساساً عن تزوير كهذا يقف بمواجهة ارادة الله في تحقيق الانسجام الكامل بين الإنسان والعالم .

---

١٦ آل عمران ٥٠ . ١٧ الأعراف ١٥٧ .
١٨ البقرة ١٦٨ .

وما يقال عن حاجة الإنسان إلى الطعام يمكن أن يقال عن حاجته إلى الجنس ، سواء بسواء . . ولقد وقفنا بعض الشيء عند المسألة الأولى ، لكي تبدو للقارىء بمثابة معيار موضوعي مستمد من القرآن الكريم مباشرة ، يقيس به موقف الإسلام من سائر الحاجات المادية للانسان ، لكي لا يخرج بنا ذلك عن وحدة الموضوع الذي بين أيدينا وعن متطلباته المنهجية .

إن القرآن الكريم يبين لنا – أكثر من مرة – ان علاقة الإنسان بالحاجات المادية – الجسدية هذه علاقة صميمة ، وان حبه لاشباعها مركوز في جبلته التي يشكلها الجسد تماماً كما تحركها الروح والارادة والقدرات العقلية : (زُيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسوّمة والأنعام والحرث) [19] .. إلا ان الخطوة الحاسمة التي يخطوها القرآن ، متميزاً بها عن سائر المذاهب والنظريات انه يضع أهدافاً أعلى ، وقيماً أوسع وأكثر شمولاً من مجرد تضييق نطاق الحياة البشرية في البحث عن اشباع الحاجات الجسدية ، على ثقلها وواقعيتها وضروريتها ، لأن تركيز الهدف النهائي للانسان في الاشباع وحده ، يشده إلى الأرض ويلصقه بترابها ، ويبعده عن مواقع الاستشراف الإيماني الشاملة الرحيبة (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) [20] .. ولأن توسيع نطاق المناشط والأهداف البشرية ، وتنويعها وربطها بآفاق أرقى وأشرف وأكثر سمواً يعطي الحياة قيمتها الحقيقية ، ويمكن الإنسان من تأدية مهمة الاستخلاف الأرضي بحالة من التوازن الفذ الذي يحميها من الالتصاق الساكن بالأرض ويمنعها كذلك من التهويم الاتكالي السالب في سماوات الروح : (ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل : أأنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات

---

١٩ آل عمران ١٤ .

٢٠ محمد ١٢ .

تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله والله بصير بالعباد ، الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار)[21] .

اننا نستطيع أن نتلمس بوضوح موقف القرآن الكريم ازاء (المسألة المادية) عموماً ، من خلال حشد كبير من سوره ومقاطعه وآياته .. إن أي حديث عن الكون والطبيعة والعالم ، وتسخير السماوات والأرض .. ومسائل الرزق والكسب والسعي ، وأمور الغرائز والدوافع الجسدية ، والدعوات المستمرة للتنقيب عن أسرار الطبيعة لصالح الموقف البشري على الأرض ولأداء مهمته كخليفة جاء لاعمار العالم .. ونداءات التسلح واعتماد القوة المادية – إلى جانب القوى الروحية – لصد العدوان ، أو لتنفيذ متطلبات حركة الجهاد الدائمة،وتنظيمات الحياة اليومية المتشعبة،وغيره كثير ، تأكيد واضح تماماً للأهمية التي يوليها القرآن الكريم للمسألة المادية .. إلا أنه يضع دائماً في صميم هذه العلاقات والممارسات ، ولا نقول بمواجهتها إذ أن القرآن يرفض الثنائية والازدواج،يضع قضايا الروح والقيم والأهداف البشرية العليا ، التي تحفظ توازن الموقف البشري في الأرض وتمكنه من أداء مهمة الاستخلاف الضخمة المنوطة به وتحركه صوب الهدف الأوحد والأشمل الذي خلق من أجله،ألا وهو عبادة الله وحده والتلقي عنه والتوجه اليه .. أخذاً وعطاءً .

وفي مقابل (حالة التوازن) هذه التي يرسمها القرآن ، ويدعو المؤمنين الى التشبث بها ، والتحرك وفق مقاييسها الموضوعية العادلة .. تبدو أية تجربة بشرية تجنح باتجاه المادية ، مهملة الروح ، أو تتشبث بالروحية مهملة المتطلبات المادية ، شذوذاً وانحرافاً لأنه تزوير وتزييف للموقف

---

٢١ آل عمران ١٤ – ١٧ .

البشري في الأرض ، وقسر لتجربة الإنسان الفردية والجماعية ، على التشكل فيما يأباه تكوينها الأساسي القائم على التداخل والتكامل والتوازن بين قيم الروح وقيم المادة على السواء ..

ولن تكون نتيجة هذا الانحراف الذي يأخذ في الحالة الأولى ، اتجاهاً مادياً صرفاً ، أو علمانياً مزدوجـاً ، يفصل بين شؤون الدين والدنيا .. ويأخذ في الحالة الثانية اتجاهاً رهبانياً هروبياً يرفض الدخول في قلب العالم لتغييره بما ينسجم ومهمة الإنسان في الأرض .. لن تكون نتيجة هـذا الانحراف إلا تمزيق الذات الإنسانية على المستوى الفردي ، والنفسي ، الأمر الذي ينعكس على طبيعة النشاط الاجتماعي ، فيصيبه هو الآخر بالتمزق والتشتت والازدواج وفقدان الهدف ، وانتشار الاحساس السالب بالعبثية وبلا جدوى وتحطم الأمل بالمصير ، وسيادة نزعة التشاؤم والانشقاق .. وهي مسائل تبلغ — بتصاعدها الدوري المستمر — درجة من الحدة يغدو معها النشاط الجماعي — الحضاري الموحد ، مستحيلاً أو في حكـم المستحيل .. ثم ما تلبث الجماعة أن تجد نفسها عاجزة عن مواصلة الابداع والانجاز ، ويؤول أمرها إلى التدهور والانهيار والسقوط [٢٢] .

القرآن الكريم — إذن — يطرح قاعدة التوازن العريضة لكي يحمي التجربة البشرية في العالم من التفكك والتشتت والدمار ، ولكي يمنح الإنسان ، فرداً وجماعة ، الطريق الذي ينسجم تماماً مع تكوينه من أجل التقدم صعداً لأداء مهمته الأساسية في الأرض .. وهذا — بالمقابل — يقدم لنا ، على المستوى التاريخي ، أحد الأسباب الكبرى التي تفسر نشوء الحضارات ونموها من جهة ، وتوقفها وتحللها وانهيارها من جهة أخرى .

وبينما يتشبث كل من هيغل وماركس بمسألة التناقض والصراع

---

٢٢ انظر بالتفصيل كتاب (تهافت العلمانية) للمؤلف .

في عالمي الفكر أو المادة ، كمفتاح لتفسير النشوء أو السقوط الحضاري ، وبينما يبلغ تأكيد توينبي على مسألة التحدي والاستجابة حداً يصل به الى التزام موقف الصراع والتناقض بين الانسان والبيئة ، نجد القرآن الكريم – على اهتمامه بمسألة التناقض والصراع كمحرك للنشاط الحضاري ، وتخصيصه لها المساحات الواسعة من مواقفه ، كما سبق وأن مرّ بنا – يقف هذه المرة موقفاً متميزاً مستقلاً مغايراً تماماً للموقف الغربي عموماً والذي ينعكس هناك حتى على المستوى اليومي والصحفي ، فتجيء محاولات الصعود إلى القمر والكشف عن الفضاء باسم (غزو) القمر أو الفضاء ، الأمر الذي يفسره بعض المفكرين بأنه امتداد للصراع القديم الذي شهدته قارة أوربا الضيقة بين الأقوام المتصارعة وبين الأرض الشحيحة !!

ان القرآن هنا يرسم خطاً جديداً في تصويره للعلاقة بين الإنسان والعالم .. خطاً يقوم على الوئام والانسجام والتكامل والوفاق والتجانس والالتحام بين الروح والمادة ، بين العقل والقلب ، بين الأرض والسماء ، بين الجبرية والقدرية ، بين الفعل والتأمل ، بين الغريزة والوجدان ، بين الحضور والغياب وبين الطبيعة وما وراء الطبيعة ... فما دام الإنسان مزيجاً معقداً فذاً معجزاً بين الروح والجسد فإن تلاؤم وتوافق هذين الجانبين ، وما يتفرع عنهما من قوى وطاقات ، هو الوضع الطبيعي الذي يمكن الإنسان من بذل الحد الأقصى لطاقاته وقدراته ، وبالتالي تسيير العجلة الحضارية بسرعة أكبر ، وانجاز أبدع .. وان الصراع بين هذين الجانبين أمر شاذ يؤول إلى تفكيك وحدة الذات البشرية وتمزيقها ، الأمر الذي ينعكس – بالضرورة – على الفاعلية الجماعية فيصيبها بأكثر من خلل يعرقل مسيرتها الحضارية ..

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه ما دامت قوى الطبيعة وطاقاتها قد سخرت أساساً لخدمة الإنسان ، ومساعدته على الرقي الحضاري

واعمار العالم ، فإن العلاقة بينهما ليست بالضرورة علاقة قتال وصراع وغزو وبغضاء .. انما علاقة انسجام وتقابل وتواصل وتعاون وتكامل وكشف وتنقيب ، انها علاقة الخادم المطيع بالسيد القدير .. انه في هذه الحالة لا يصطرع مع خادمه أو يستفزه أو يرفع السلاح بوجهه .. انما (يستخدمه) بحصافة وذكاء لتأدية واجباته جميعاً ، في أجواء تسودها علائق الطاعة والمحبة والابداع .

ان الصراع بين الإنسان والعالم نظرة غربية منفعية صرفة مهما وضعت في اطر فلسفات شاملة تبدو للوهلة الأولى منطقية ومبررة ، ولكننا بمجرد التوغل في دقائقها ومنحنياتها ، فإننا سنعثر على منطق الصراع الذي تبني عليه معطياتها .. صراعاً يضعه هيغل في عالم الفكر ، ويبرر به أية جريمة شوفينية يمارسها شعب أوربي متفوق لاستعباد وقتل الشعوب المستضعفة ، ويفسره ماركس على انه عالم المادة ليبرر به أية مذبحة تمارسها طبقة ضد طبقة.. أكثر من هذا ، انه يجرد الإنسان ، في قلب هذا الصراع والتغير المادي ، من حريته وارادته ، ويجعله تابعاً مطيعاً لمنطق الصراع المادي هذا ، يأتمر بأمره ويتشكل بقواعده ، حتى في أشد ممارساته بعداً عن المادية : الدين والفن والعواطف والأخلاق والمطامح والرؤى .

ان القرآن الكريم ، على العكس من هذا كله، يمنحنا معادلة حيوية ومنطقية لا خلل فيها ولا اضطراب .. اننا ما دمنا قد خلقنا وفق هذه الصيغة التي تشتبك فيها قوى الروح والمادة ، فان لنا أن ننطلق في نشاطاتنا وممارساتنا من نقطة التوازن التي لا تجنح ولا تنحرف ، ولا تميل .. التوازن الذي ينتفي فيه الصراع ، ويتحول الجهد الإنساني الدائم إلى سعي خلاق من أجل التوحد والتكامل والانسجام .. وانه ما دامت قوى العالم — من جهة أخرى — قد سخرت لمهمتنا الأرضية تسخيراً ، فإن علاقتنا بها ليست أبداً علاقة صراع وتناقض واقتتال .. انما هي محاولة الكشف والتنقيب

والاندماج للوصول إلى أكبر قدر ممكن من التفاهم بين الإنسان وبين العالم ، بعد الكشف عن سننه ونواميسه الطبيعية .

اننا بمجرد أن نتفهم الأبعاد الحقيقية لمسألة التوازن والانحراف هذه ، فسنضع أيدينا على أحد المفاتيح الأساسية لتفسير جانب كبير من تواريخ الأمم والشعوب والجماعات والحضارات .. انه حيثما افتقد الإنسان ، فرداً وجماعة ، توازنه في أمة أو حضارة ما ، حيثما حل محله (الانحراف) كبديل لا مفر منه ، انحرافاً من شأنه أن يزداد ويتسع كماً ونوعاً بمرور الزمن وبمقدار الابتعاد عن نقطة التوازن تلك ... الأمر الذي يجعل الجماعة البشرية تجنح باتجاه جانب ما من جوانب النشاط البشري ، وتجابه بالكبت والقمع والاستئصال الجوانب الأخرى ، الأمر الذي يعيق مسيرة الحركة الحضارية وتوازنها الخلاق .. ويؤول بها إلى التدهور والسقوط ..

* * *

ان القرآن — إذن — يطرح مقولاته عن عوامل تدهور الحضارات وفق أوسع الجبهات وأكثرها شمولاً وامتداداً .. انه هنا ، كما هو في كل مكان ، يتجاوز ما يمكن تسميته بالتشنج المذهبي الذي تعانيه نظريات التفسير الوضعية : يفترض (احدهم) صيغة معينة أو يحدد هيكلاً مسبقاً أو يتخذ زاوية ثابتة .. ثم يجيء إلى حركة التاريخ لكي يرغمها على الانطباق الهندسي الكامل على صيغته تلك ، أو دخول هيكله ذاك ، أو المرور عبر زاويته الثابتة ، وما لا ينطبق أو يدخل أو يمر ، زُيف وحُور ، أو شذب واستبعد ، لكي لا يتبقى إلا الوقائع التي تجيء منسجمة منطبقة على الموقف المسبق .

ولن يكون هذا التشذيب والتحوير والاستبعاد إلا على حساب الوقائع التاريخية .. لقد ذكرنا هذه الحقيقة في مقدمة البحث ، ونعود لنؤكدها مرة أخرى ، لأنها في الواقع أخطر ما تتمخض عنه النظريات الوضعية ..

وان بعضهم ليصل أحياناً حد (التشنج) في رفض وتكذيب كل واقعة تند عن رؤياه المسبقة ، وبعضهم الآخر تضغط عليه الوقائع (المضادة) أو (المغايرة) فيجد نفسه مضطراً للعودة إلى القاعدة الخاطئة نفسها ، والسعي لتوسيع زاوية الرؤية ، ومد نطاق الصيغة المرسومة سلفاً وتوسيع ردهات وممرات الهيكل المسبق .. أكثر من هذا اننا نرى من تلاميذ التفسير المادي للتاريخ اليوم ، موقفاً عجباً : انهم يخطّئون كل من يأخذ على الماركسية صرامة موقفها المسبق ، ورد كل الوقائع التاريخية إلى القاعدة التحتية المتمثلة بتبدل وسائل الإنتاج فحسب .. بل انهم يتهمون هؤلاء النقاد — وقد أحرج التلاميذ — بالقصور وعدم القدرة على فهم النظرية المادية بما فيه الكفاية .. والواقع ان هؤلاء التلاميذ يرتكبون هذه المرة تزييفاً آخر ولكن تجاه التفسير المادي نفسه !!

ومهما يكن من أمر فان القرآن ، وفق منهجه (البعدي) الشامل ، المنبثق عن الرؤية الإلهية المحيطة ، والذي يسعى إلى عرض مقولاته اعتماداً على حركة التاريخ البشري عبر ضفافه جميعاً ، قدم لنا — كما رأينا — قواعد عريضة ، لتبرير السقوط ، وقادنا إلى الأسس الواضحة والعميقة في الوقت نفسه ، والتي تؤول بالأمم والحضارات إلى الدمار .. انها — باختصار — تكمن في صميم الموقف البشري نفسه ، لا في الطبيعة أو العلاقات المادية .. انما في اطار الارادة الانسانية .. وهذا يجيء — بطبيعة الحال — امتداداً لنظرية الإسلام الأساسية في استخلاف الإنسان في الأرض لأداء دوره الحضاري فيها .. وما دام هذا الإنسان قد اختار ، برفضه لتعاليم الله التي وعد بها آدم وذريته لاستكمال مهمتهم الأرضية ، الطريق المعكوس فمعنى هذا أن يقف على النقيض من دوره المرسوم ..

ويمد القرآن مسألة الموقف من الدور البشري في الأرض إلى مساحاته

الحقيقية الشاملة : الفرد والجماعة ، القيادات والقواعد .. فمن خلال الممارسات المعقدة المتشابكة التي تمارسها كل من القيادة والقاعدة ، ويعايشها الفرد والمجتمع ، ومن خلال (الأخلاقية) التي تتميز بها هذه الأطراف ، وعبر العلاقة (الجدلية) بينها جميعاً ، يصدر القرآن حكمه ، ويمنحنا في الوقت نفسه ، المقياس الدقيق العادل لاصدار الحكم على أن هذه الأمة أو الحضارة ، أو تلك ، في طريقها إلى التقدم والصعود أو إلى التأخر والتفكك والدمار ...

٥

وثمة من يتصور – بصدد موقف القرآن من سقوط الحضارات – ان عقاب الله الجماعي – الذي يرد مراراً في كتاب الله – مقصور على يوم الحساب ، وانه قد غادر مواقعه في الدنيا منذ عصور التاريخ المتقدمة ، بعد أن دمّر عدداً من القرى الظالمة والمجتمعات الضالّة .. ان أي واحد يقرأ آية كهذه ، يرد على خاطره هذا التصوّر ، الذي سيتّضح خطؤه من الاساس (ألم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار ؟ جهنم يصلونها وبئس القرار) [1] .

إن المتمعّن في آيات القرآن الكريم ، حول هذه المسألة ، وفق نظرة شمولية عريضة ، يتبين له مدى خطأ هذا التصوّر المنبثق عن موقف جزئي محدود ، ونظرة جانبية مفكّكة .. إن القرآن الكريم يؤكد على ان (العصيان) بشتى أبعاده تُجنى ثماره المرة ليس في الآخرة فحسب ، وهو المآل الأكبر والأخطر والأهم بطبيعة الحال بسبب ديمومته وخلوده ، وانما هنا في الدنيا أولاً .. ان العذاب ينتظر العصاة هنا وهناك ، في الأرض والسماء ، ويتنزّل – قوة وضعفاً لكي يكافىء – بعدلٍ إلهي دقيق – مدى العصيان وحجمه وطبيعته . فالمصير – في القرآن – واحد – لأنه ينبثق من أعماق

---

١ ابراهيم ٢٨ – ٢٩ .

الإنسان ، والجماعة البشرية ، من مسؤوليتها الحرّة ومن اختيارهما ، هذا الاختيار الذي ينعكس على الفعل الإنساني ، وبالتالي على التاريخ ، ومن ثم يعود ليطوّق الإنسان والجماعة الخاطئة ، لأنهما رهينان بما كسبت يداهما .

المصير واحد !! وتلك قمة الانسجام مع طبيعة الوجود الإنساني والنشاط الحضاري ، فليس ثمة تعليق (للجزاء) على المستوى الجماعي التاريخي ، إلى يوم البعث ، إذ أن هذا يعني تناقضاً واضحاً مع أبسط القوانين والبداهات التي تسيّر الحياة والأشياء .. إذ لا يمكن أن يزرع الإنسان حسكاً وشوكاً ثم يقطف ثماراً حلوة طريّة .. ما دام قد زرع العلقم فلا بدّ أن يقطف العلقم ويزدرد الشوك ويتجرع المرارة ، بناء على طبيعة سنن الحياة ذاتها ... السنن التي تؤكد على ان (الجزاء) يتشكل من جنس العمل سواء هنا في الأرض أم هناك في السماء .

بعبارة أخرى ، ان المصير الفردي والجماعي ، الذي ينبثق عن الاختيار ، سرعان ما يتشكل هنا أولاً وفي السماء بعد ذلك ، وفقاً لتسلسله الزمني ، ربما كان الفرق بين المصيرين في الدرجة والنوع لا في الكينونة .. فالمصير كائن هنا وهناك ، والخارجون عن طريق التوجيه الإلهي — الذي أعلن القرآن عن دوره الحاسم في اختيار الحياة السعيدة أو الشقية في أعقاب هبوط آدم (ع) — هؤلاء الخارجون سيجدون العذاب ينتظرهم في الأرض ، قبل أن يحاسبوا في السماء ، عذاباً يأتيهم من بين أيديهم وأرجلهم ينصب عليهم من فوق ويتفجر من أعماقهم ، ، يزلزل عليهم وجودهم ويسقط مؤسساتهم ويمرّغ حضاراتهم بالتراب .. عذاباً يوجه سياطه تارة إلى النفس وأخرى إلى الجسد ، ويعمل معاوله حيناً بعد حين في في جلّ المعطيات التي قدمها مجموع الأفراد على السواء .

وهكذا نجد مواقف العصيان تسعى إلى مصيرها الفاشل هنا أولاً ،

فتحبط ، ثم تعود لتمتحن مرة أخرى – فيما بعد – هناك يوم الحساب ، فتحبط مرة أخرى (أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وما لهم من ناصرين)[٢] .. الإحباط والعذاب ، دونما نصير .. ومن يتقدم لنصرة الخاطئين الذين اختاروا الطرق المعوجّة وصدروا عن نيات سوداء ازاء خالقهم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ؟ ! .

المصير واحد إذن – وفق تعليمات القرآن وتحذيراته – ليس ثمة تجزئة ولا ازدواج وليس ثمة فاصل أو جدار بين الأرض والسماء ، ولا بين جزاء الإنسان هنا وجزائه هناك .. إن المؤمنين من جهة أخرى يجدون مصيرهم السعيد هنا أولاً : بركات تتنزل عليهم من السماء ، وأمناً ويقيناً يتنزّل من الأعماق (ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون)[٣] ...

(ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون ..)[٤] وأية سعادة تعدل سعادة الإنسان الذي تحرّر من الخوف والحزن ؟ ان كل عذاب يهون ازاء عذاب الخوف والحزن ، وكل مصير يحتمل ازاء فتك الحزن ونذير الخوف .. إن الخائفين والمحزونين لا يقرّ لهم قرار ولا يتذوقون سعادة ، ولا يحسّون طعم الحياة ، انهم ليسوا أحياء ولكنهم ميّتون ، قتلهم الخوف والحزن .. ان هذا الخوف وهذا الحزن يبدآن بالأفراد ، ولكنهما سرعان ما ينعكسان على الواقع الجماعي ويعطيان التاريخ لونه القاتم والحضارة وجودها القلق المهزوز .. اننا نلحظ اليوم هذا الحزن

---

٢ آل عمران ٢٢ .
٣ الأعراف ٩٦ .
٤ فصلت ٣٠ – ٣١ .

وهذا الخوف على مساحات واسعة من خارطة العالم المعاصر ، وهو مصير كان لا بد من تحقّقه ازاء العصيان وازاء الفساد الذي غطى معظم مساحات الأرض (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) [٥] .

ان المؤمنين ، أفراداً وجماعات ، كانوا دائماً سعداء ، قبل أن ينتقلوا إلى السماء ليضاعف لهم الجزاء ، ويكتسب صفة الكثافة والدوام والخلود ، وقد أتاحت لهم هذه السعادة العميقة ، وهذا التوحّد الذاتي ، وهذا التماسك ، فرصة حقيقية لتجميع طاقاتهم كلها ، وتوجيهها وجهة بناءة لتصبّ في مجرى الحضارة الواسع اللانهائي . وهكذا انعكس اختيار الأفراد ومصائرهم ، على طريق الجماعة والأمة ومصيرها ، فكانت الأمم المؤمنة أكثر الأمم فاعلية وايجابية واسهاماً في اغناء حركة التاريخ ، وكان (الدين) — كما يؤكد كثير من الباحثين — الشرارة التي تشتعل في قلب الإنسان فتنير له الطريق لصياغة العالم وتحضيره وتطويره .

ان القرآن الكريم يقدم لنا ، في أكثر من مكان ، صيغاً واضحة عن هذا الارتباط بين المصيرين : الايمان بالله على ضوء التعاليم التي حملها الأنبياء جيلاً بعد جيل ، والذي يؤول بالضرورة إلى التلقّي الكامل عنه والتوجّه اليه ، وحـــده ، ومن ثم السعادة في الدارين .. السعادة بمفهومها الأشمل والأعمق.... أو الكفر بالله — والذي يؤول بالضرورة كذلك — إلى التلقّي عن الزعامات الطاغية والتوجه اليها والاندماج بها ، ومن ثم الشقاء في الدارين .. الشقاء بمفهومه الأشمل والأعمق .. وفي كلا الحالين تجيء التجربة مصداقاً لما وعد الله به آدم وذريته ، يوم هبوطه إلى الأرض وتوبته عليه : (فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا

---

٥ الروم ٤١ .

خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)[٦] ... (فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكاً . ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى)[٧] .

ثم ما تلبث الآيات والمقاطع القرآنية أن ترى — بعد ذلك — محدثة ايانا عن الارتباط الوثيق بين المصيرين :

(وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ...)[٨] .

(ويا قوم استغفروا ربكم ، ثم توبوا اليه ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين)[٩] .

(للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين)[١٠] .

(والذين هاجروا في الله من بعد ما ظُلموا ، لنبوئنهم في الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)[١١] .

(من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى — وهو مؤمن — فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)[١٢] .

(وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون)[١٣] .

---

٦ البقرة ٣٨ — ٣٩ .
٧ طه ١٢٣ — ١٢٤ .
٨ هود ٦٠ .
٩ ٥٢ .
١٠ النحل ٣٠ .
١١ النحل ٤١ .
١٢ النحل ٩٧ .
١٣ النحل ١١٢ .

(ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً) [١٤] .

(قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ، الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً ؟ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ، فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) [١٥] .

(فآتاهم الله ثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) [١٦] .

(من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) [١٧] .

(ولو ان أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفّرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو انهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم ، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) [١٨] .

(الذين آمنوا ولم يُلبسوا ايمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) [١٩] .

(فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) [٢٠] .

(ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين) [٢١] .

(واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ...) [٢٢] .

(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) [٢٣] .

---

١٤ الاسراء ٧٢ .
١٥ الكهف ١٠٣ – ١٠٥ .
١٦ آل عمران ١٤٨ .
١٧ النساء ١٣٤ .
١٨ المائدة ٦٥ – ٦٦ .
١٩ الأنعام ٨٢ .
٢٠ الأعراف ٣٥ .
٢١ الأعراف ١٥٢ .
٢٢ الأعراف ١٥٦ .
٢٣ يونس ٦٢ – ٦٤ .

(وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وان تولوا فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير) [٢٤] .

(وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) [٢٥] .

(كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)[٢٦] .

(فقلت استغفروا ربكم انه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) [٢٧] .

ثم تجيء الآية الحاسمة في هذا المجال (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) [٢٨] .. ويسقط عندهـا السؤال (الاستنكاري) الذي طالما فرض نفسه على أذهان المؤمنين ، قبل الكافرين .. وكيف يكون ذلك ونحن نرى الأمم التي كفرت بالله تتولى أزمة القيادة والتحضر على السواء ؟ ... يسقط هذا السؤال على وجاهته وخطورته ، لأن المقاييس التاريخية لا تأخذ بالآني أو المرحلي وتصدر منه أحكامها ومقولاتها ، انما هي تجيء أساساً تكثيفاً وتقعيداً لحركة التاريخ البشري كله في ماضيه وحاضره ، مضافاً اليه في الرؤية القرآنية ، وفي بعض الرؤى الوضعية، البعد المستقبلي .. ان اصحاب المواقف الوضعية نفسهم يتجاوزون من أجل أن يكونوا موضوعيين وعلميين ، الاحكام المرحلية والنظرات الآنية المحدودة إلى ما هو أشمل وأعم وأبعد مدى .. وانهم هم أنفسهم يحدثوننا ، في كثير مما كتبوا ، عن حضارتهم الراهنة وكيف انها تجابه

---

٢٤ هود ٣ .
٢٥ القصص ٤٢ .
٢٦ الزمر ٢٥ – ٢٦ .
٢٧ نوح ١٠ – ١٢ .
٢٨ غافر ٥١ .

من داخل بنيانها بعوامل التدمير والتفكيك التي تسير بها قدماً نحو المصير السيّيء .. هذا ما يؤكدونه هم ، فكيف بالنسبة لنا ، ونحن ننطلق في أحكامنا التاريخية من الموقف القرآني الأكثر شمولاً والأبعد نفاذاً لأنه كلمات الله الذي وسع كل شيء علماً ؟ !

ان علينا ومن أجل أن نكون موضوعيين مع أنفسنا ومع قرآننا ومع حركة التاريخ نفسه أن نشمل في استقرائنا التاريخي للتأكد من صدق النظرية القرآنية ، تاريخ البشرية كله ، وأن نمدّ رؤانا وأحكامنا الاستنباطية المقارنة صوب المستقبل كذلك وحينذاك ستتكشف لنا حقائق عدة . فمن جهة كان مصير جميع الرسالات السماوية النجاح الحاسم ، ومصير جميع القيادات الطاغية الباغية الدمار الكامل .. ومن جهة أخرى كانت الجماعات المؤمنة ، حتى في مرحلة كفاحها ومواجهتها لقوى الكفر التي تفوقها عدة وعدداً، أكثر سعادة وفرحاً ، وأعمق أمناً ويقيناً ، وأشد ايماناً بالمستقبل والمصير من الجماعات الكافرة ، حتى وهي تتولى القيادة وتضع يديها على مصادر القوة والمال في العالم .... ومن جهة ثالثة ليست (السعادة) مسألة جزئية موقوتة ولا نسبية محدودة ، انما هي تجربة شاملة معقدة متشابكة ، تمد فعلها إلى كل مساحات النشاط البشري وتتوغل تعابيرها إلى سائر مكونات الإنسان عقلاً وجسداً وروحاً وعاطفة وغرائز ووجداناً ، وإلى شتى مناشط الجماعة البشرية في علاقاتها الداخلية والخارجية وفي طبيعة موقفها في العالم .

ومن ثم لا يمكن القول بأن الجنوح الماديّ الذي طالما تميزت به قوى الكفر منذ فجر التاريخ وحتى القرن العشرين ، كضرورة من ضرورات التصاقها بالأرض ورفضها اي ايمان بالغيب أو المثل العليا ، انما يمثل تعبيراً عن السعادة بمفهومها الشامل .. على العكس ، ان هذا الجنوح يمثل نقصاً كبيراً وانحرافاً خطيراً في تجربة هؤلاء ، يملأ خلاياها وشرايينها بالتعاسة

والشقاء .. وهي من أجل أن تغطي على هذه الهزيمة الحقيقية في تجربتها تزداد تجبراً وطغياناً .. وهذا كثيراً ما يحدث على المستويين الفردي والجماعي ، حيث يزداد الطغيان وفق نسبة طردية مع زيادة الشقاء البشري ، كنوع من التغطية والتعويض والاسقاط الذي يحدثنا عنها علم النفس وهو يحلل التجارب البشرية المرضية الشاذة ، لا الصحية المستقيمة ..

وهنا نحن نرى ، بأم أعيننا ، من خلال التجارب الاجتماعية والذاتية التي يمارسها العالم المتقدم ، مدى اتساع نطاق التعاسة والشقاء البشريين ، في أتون حضارة جانحة تقف — على كثرة وتنوّع معطياتها — قبالة السعادة الانسانية بمفهومها الشامل العميق الذي يتجاوز مآسي الخوف والحزن والتمزق والاحساس بالعبث والملل واللاجدوى .. وسواء عايشنا هذه التجارب القاسية في أرضها وبلادها معايشة حيوية واقعية مباشرة ، أم قرأنا عنها في المرايا التي تعكسها أدباً وفكراً وفناً .. فاننا لن نخرج الا بنتيجة واحدة مؤكدة : ان الإنسان والمجتمع الغربيين الراهنين ليسا من السعادة بمفهومها الكلّي الشامل ، كما يتصوّر بعض الملتصقين بعصرهم ، الناظرين عبر مقاييس مرحلية ، جزئية آنية ، لا يمكنها بحال أن تعكس لنا الصيغة النهائية لحركة التاريخ البشري ومصير حضاراته المتعاقبة .. ولن يكون موضوعياً بحال من يقف عند حدود تجربة تاريخية ، أو حضارية ، تمت في القرن العاشر أو الخامس عشر أو العشرين ثم يقول : هذا هو تاريخ البشرية كله وهذا هو مصيرها المحتوم !! [٢٩] .

انه ليس بإمكان أي مفكر أو باحث أن يحكم سلفاً ، حكماً ايجابياً يقينياً جازماً على مصير الحضارة الراهنة — أو أية تجربة بشرية أخرى — سيما وان عدداً من علمائها ومفكريها أنفسهم يضعون الكثير من التحفظات على موقف اعتباطي كهذا .

---

٢٩ عن مسألة أزمة الحضارة الغربية المعاصرة أنظر بالتفصيل (تهافت العلمانية) .

ومن كان يتصور – على سبيل المثال – انه خلال نصف قرن من حركة التاريخ طويلة المدى ، ستسقط المانيا الجبّارة مرتين وتنهض مرتين أو أن تغادر الصين الشيوعية واليابان الرأسمالية مواقعهما في الخطوط الخلفية لكي تقفا في مقدمة الدول العالمية وتلعبا دورهما الحاسم على المستويين السياسي – العسكري والحضاري .. بينما تظل أمم أخرى من العالم الثالث نفسه تعاني التخلف والتبعية في عالمنا الراهن ؟ ومن كان يشك في ان اسبانيا التي ورثت عنفوان الحضارة الإسلامية ، وأضافت اليها – دفعة عسكرية جغرافية – أوصلتها وشقيقتها البرتغال إلى أطراف العالم ووضعت يديهما على مشارق الأرض ومغاربها .. ستؤولان بعد عقود عديدة من الزمن إلى أن تكونا في ذيل الحضارة الغربية المعاصرة وفي خطوطها الخلفية بحيث ان أحداً لا يكاد يرى لهما أي دور في ميادين هذه الحضارة ؟ بل من كان يشك في ان الامبراطورية البريطانية التي لم تكن الشمس تغيب عن أراضيها الشاسعة أبداً ، والتي بلغت قمة قوتها وجبروتها وامتدادها في الربع الثاني من هذا القرن في أعقاب جهود مستمرة دامت القرون الطوال ، ستتفتت وتنكمش ، منذ مطلع النصف الثاني ، في مدى لا يزيد على العقد أو العقدين .. ثم ما تلبث أن تدخل في دوامة الأزمات السياسية والاقتصادية والقومية التي ما زالت تطحنها في عقر ديارها طحناً لا يرحم ؟ !

ثم ما كان لنا – قبل أن نمضي في موضوعنا هذا إلى غايته – الا أن نلتفت – كرة أخرى – صوب ماضينا نحن ، لكي نرى بوضوح ، في حركة تاريخنا المدهشة نفسه ، وفي تفجّر طاقاتنا الحضارية الفذّة ، وفي تسلمنا مواقع القيادة الأمامية على كل المستويات ، عبر قرون الإسلام الأولى ، قرون الايمان والالتزام والابداع ، والتلقي عن الله وحده والتوجه اليه دون أي شريك .. ثم ما حدث – في القرون التالية – من تعثر كاد يصل إلى حد (السكون) في حركتنا التاريخية ، ونضوب يصل حد

التقليد الممسوخ في معطياتنا الحضارية ، وخضوع وذلّة يصلان حـد الاستسلام الكامل للقوى الغازية .. بسبب مغادرتنا – بدرجة أو أخرى – مواقع الايمان والالتزام والابداع .. ما يؤكد لنا – على مستوى الواقع – أطروحات القرآن الكريم بهذا الصدد ، ويملؤنا يقيناً بالمصير الذي تحدثنا عنه والذي تتوجه الآية السالفة (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) .

ثمة نقطة مهمة يجب الالتفات اليها بصدد الحديث عن ارتباط المصيرين في القرآن ، تلك هي ان المصير هنا في الأرض ينبثق – قبل كل شيء – عن ارادة الأفراد واختيارهم ، ولكنه سرعان ما ينساح على الجماعة ليعطيها صفاتها وملامحها بما انها البحر الذي تصبّ فيه كل الارادات والاختيارات الفردية ، ومن ثم فان الجزاء سينصب على الأفراد والجماعات على حدّ سواء . وهكذا فان العذاب في الأرض قـد يصيب (عصاة) بالذات كأفراد ، وقد يدمدم على الجماعة كلها فيمزقها شرّ ممزق .. كما ان السعادة في الأرض قـد تمنح المؤمنين بالذات كأفراد ، وقد تتنزل على الجماعة المؤمنة كلها فتوحدها وتجعلها جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ..

أما في السماء فيتقدم الإنسان وحيداً ليحاسب أمام الله ، يحمل معه كتابه الذي خطّ فيه اختياره وسطّر على صفحاته أعماله ، فينال – بعد حسابه – مصيراً مكافئاً لهذا الاختيار وذلك العمل .. في اليوم الآخر تتفكك الجماعات وينصب الحساب على المنطلق الأول ، حجر الزاوية في العمل البشري : الفرد ، الذي لا مفرّ له من أن يجابه مصيره هناك (لقد أحصاهم وعدّهم عدّاً . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً) [٣٠] .. (لقد جئتمونا فرادى

---

٣٠ مريم ٩٤ – ٩٥ .

كما خلقناكم أول مرّة) [31] .

ولكن ، وبين الحين والآخر ستشهد المحاكمة الكبرى يوم القيامة ، أمماً شتى أسهم كل أفرادها أو جلّهم في (العصيان) ، صدروا عن نيّات سوداء ، وقدموا أعمالاً لا وزن لها عند الله . أو أن بعضهم على الأقل سكت ، ولم يحرك يداً ولا لساناً ولا قلباً ، ازاء العصيان الذي يمارس أمام عينيه ، والفجور الذي يتمخض عن سكوته ، والظلم الذي يطيح برقاب القلّة المؤمنة التي تتعرض للتصفية ، وهو واقف ينظر دونما حراك (قال : ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار . قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) [32] !!

---

٣١ الأنعام ٩٤ .

٣٢ الأعراف ٣٨ .

٦

وليس لنا – في ختام هذا الفصل – إلا أن نشير إلى (الاشكال) أو (الصيغ) التي يعرضها القرآن عن (العقاب) أو (السقوط) ، ويجب أن نلاحظ دائماً ان العلاقة بين التعبيرين واضحة وعميقة ، اذ ان سقوط أية تجربة لن يجيء إلا بمثابة عقاب إلهي مباشر ، أو غير مباشر،عن طريق السنن التاريخية التي تعمل من خلال الإنسان نفسه ، بسبب نكول الجماعة عن أداء دورها المطلوب ، وتملصها من مسؤولية الاستخلاف المعقدة المتشابكة .

ولا يظن أحد ان الصيغة الوحيدة التي يطرحها القرآن عن السقوط هي تلك التي يحدثنا فيها عن الدمار المباشر الذي حاق بعدد من القرى والمجتمعات ، عبر عصور التاريخ المتقدمة ، بسبب مواقفها الجائرة من دعوات الأنبياء (ع) والتي سبق وأن عرضنا لها في الفصل الأول حيث أشرنا – بصدد الحديث عن الفعل الإلهي المباشر – إلى أننا أمام قوتين يسخرهما الله لتحقيق كلمته : قوة الطبيعة المادية المنظورة ، وقوة الروح غير المنظورة ، واننا – في الأولى – نلتقي بنماذج شتى من اعتماد القوى الطبيعية لمواجهة الصلف والكفر والغرور البشري : السيل ، الجفاف ، الحاصب ، الصيحة ، الخسف أو (الزلزال) أو الرجفة ، الغرق ، الصاعقة ، الطوفان ، الحشرات ، المطر العنيف ، الأوبئة ، الريح العاتية ، الإماتة

الجماعية ، تمزيق المجتمعات ، الخوف والجوع ، ثم الدمار الشامل دون اشارة إلى (وسيلة) بالذات .

ذلك ان القرآن الكريم ، كما سبق وأن بينا هناك أيضاً ، ما يلبث أن يحدثنا بواقعيته الصادقة ان هذا الاسلوب لم يجد مع كثير من الأقوام السابقة ، وانه أحرى به إلاّ يجدي مع الأقوام اللاحقة ، وبضمنهم العرب الذين بعث إليهم محمد صلى الله عليه وسلم ومن ثم كانت معجزة القرآن وحدها شكلاً ومضموناً ، كافية لحمل أجيال البشرية إلى طريق الإسلام على مرّ القرون (وما منعنا أن نرسل بالآيات الا ان كذّب بها الأولون . وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفاً) [1] .

وتبقى بعد هذا ، (الصيغ) الأكثر شمولاً وديمومة ، والتي تجيء تعبيراً غير مباشر عن الارادة الالهية من خلال الإنسان نفسه ، والذي يقود بممارساته الخاطئة ، وبرفضه الالتزام بدوره كخليفة لله على الأرض ، وبأخلاقياته السالبة : الأمم والشعوب والحضارات إلى الدمار .. ومن ثم فاننا كثيراً ما نلتقي ، في أمداء القرآن ، بالعقاب المقدر والسقوط المحتوم اللذين يتأتيان عن طبيعة الفعل الإنساني .. نلتقي مراراً بهذا وذاك ، ولكننا لا نلتقي بأسباب محدودة وصيغ صارمة كتلك التي عوملت بها قرى وأقوام جابهت دعوات الأنبياء (ع) بالصلف والتمرد والغرور .. كما اننا نلمس في هذه الآيات الأكثر عـدداً والأطول مدى ، تعابير وكلمات كالجرم والكفر والغرور والبطش مما يشير إلى مدى تعليق القرآن الكريم لمسألة السقوط على الفعل البشري نفسه [2] .

ان هذا العقاب ، أو السقوط بمفهومها الشامل ، لا يجيئان إلا بعد

---

١ الإسراء ٥٩ .
٢ أنظر ما سبق من هذا الفصل .

أن تكون الجماعة قد استنفذت كافة مبرّارات بقائها ، كما سبق وأن بيّنا في الحديث عن عوامل السقوط ، ومن ثم ، فان أية ضربة توجه إليها تكون كافية لإزاحتها من الوجود وفسح الطريق أمام الجماعات الأكثر فاعلية ، وفق مفهوم المداولة القرآني .... وهكذا فقد تجيء هذه الضربة النهائية على شكل غزو خارجي (من قبيل ما يسميه توينبي البروليتاريا الخارجية) أو عصيان داخلي (من قبيل ما يسميه توينبي البروليتاريا الداخلية) ، أو تمزق طبقي ، فيما يسميه ماركس وأنكلز (صراع الطبقات) .. كما انه قد يجيء على شكل كارثة طبيعية قاسية تفوق في تحدّيها قدرة الجماعة المفككة على الرد والصمود ، فتتمزق وتتلاشى :

(قل : هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعاً ، ويذيق بعضكم بأس بعض ، أنظر كيف نصرّف الآيات لعلهم يفقهون ؟) [3] .

(أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ؟ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحىً وهم يلعبون) [4] .

(أفأمن الذين مكروا السيئآت أن يخسف الله بهم الأرض ، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ؟ أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين ؟ أو يأخذهم على تخوف فان ربكم لرؤوف رحيم) [5] .

(أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البرّ ، أو يرسل عليكم حاصباً ، ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ؟ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ، فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً) [6] .

(أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هي تمور ؟ أم أمنتم

---

٣ الأنعام ٦٥ .
٤ الأعراف ٩٧ — ٩٨ .
٥ النحل ٤٥ — ٤٧ .
٦ الاسراء ٦٨ — ٦٩ .

من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير) [7] .

(أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ؟) [8] .

ولا يتصورنّ أحد ان العقاب أو السقوط بمفهومهما القرآني الشامل هذا يعقبان ابادة نهائية للجماعة أو تصفية جسدية لا تبقي لها أثراً ، كما كان الحال مع عدد من الأقوام المتقدمة التي أشرنا اليها .. انما هو التمزيق والتفكيك والتشتت الذي يتسبّب في ارغام جماعة ما على التنازل عن مركزها القيادي والتراجع إلى الخطوط الخلفية لكي تمارس التبعية للجماعات الأقوى ، بعد أن كانت متبوعة مطاعة :

(وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ، كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) [9] .

(فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربي قوماً غيركم ، ولا تضرّونه شيئاً ، انّ ربي على كل شيء حفيظ) [10] .

(ألم تر ان الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز ؟) [11] .

(يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) [12] .

(فلا أقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون على أن نبدّل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين) [13] .

(نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلاً) [14] .

---

٧ الملك ١٦ — ١٧ .
٨ يوسف ١٠٧ .
٩ الأنعام ١٣٣ .
١٠ هود ٥٧ .
١١ ابراهيم ١٩ — ٢٠ .
١٢ فاطر ١٥ — ١٧ .
١٣ المعارج ٤٠ — ٤١ .
١٤ الإنسان ٢٨ .

ولشدة واقعية القرآن وتأكيده على المسؤولية البشرية ، فإنه يخاطب الجماعة الإسلامية نفسها ، كما يخاطب أية جماعة مؤمنة ، بأنها ستلقى نفس المصير بمجرد تخلّيها عن أداء دورها الفعّال في العالم ، والذي قادها إلى مواقع القيادة المتقدمة والمسؤولية البشرية الشاملة :

(.. وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) [15] .

(إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً) [16] .

(يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) [17] .

(إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ، ولا تضرّوه شيئاً والله على كل شيء قدير) [18] .

وتبقى علاقة (الاستبدال) الجدلية هذه ، ماضية إلى أهدافها ، تداوِل الأيام بين الناس ، بارادة الله ، وتضع قوماً وترفع آخرين (كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) [19] .

وهذا الاستبدال التاريخي ، أو الحضاري ، الذي يحدثنا عنه القرآن في أكثر من موضع ، لن يجيء وفق أساليب معتسفة ومباشرة ، وبمقتضى حدود زمنية صارمة كالأرقام .. انما هي سنن الله في التاريخ وإرادته النافذة

---

١٥ محمد ٣٨ .

١٦ النساء ١٣٣ .

١٧ المائدة ٥٤ .

١٨ التوبة ٣٩ .

١٩ الدخان ٢٥ – ٢٩ .

من خلال (النواميس) ذاتها ، التي تؤول ، وفق مساراتها المنطقية المرسومة البعيدة المعقدة غير المباشرة ، إلى تحقيق هذا الهدف الخطير :

(فأوحى إليهم ربك لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم في الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) [٢٠] .

(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون. ان في هذا لبلاغاً لقوم عابدين) [٢١] .

(وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها) [٢٢] .

(... ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) [٢٣] .

(ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ...) [٢٤] .

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر ، بعد ذلك ، فأولئك هم الفاسقون) [٢٥] .

وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى ، ازاء نظرية (الاستخلاف) الأساسية التي عرضنا لها في أول البحث ، والتي طرحها القرآن لحظة خلق آدم .. وازاء (الوعد) الدائم بعودة أبنائه البررة إلى مركز (القيادة) والشهادة ،

---

٢٠ ابراهيم ١٣ – ١٤ .
٢١ الأنبياء ١٠٥ – ١٠٦
٢٢ الأعراف ١٣٧ .
٢٣ الأعراف ١٢٨ .
٢٤ القصص ٥ – ٦ .
٢٥ النور ٥٥ .

أولئك الذين (يجاهدون) على كل الجبهات لتنفيذ مقتضيات خلافتهم في الأرض ، والالتزام بشروطها التي لن تستقيم بدونها ، لبني آدم ، حياة :

(وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) [٢٦] !!

---

٢٦ البقرة ١٤٣ .

فهرس الأعلام

(أ)

إبراهيم (عليه السلام): ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٢٦، ١٥٢، ٢٠٧، ٢٦٩، ٢٨٣، ٢٨٦، ٣٠٧، ٣٢٢، ٣٢٤

إبليس (الشيطان): ٧٤، ٩٩، ١٠١، ١٣٦، ١٤٢، ١٩١، ١٩٧، ٢١٩، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٧٨، ٢٨٣، ٢٩١

آدم (عليه السلام): ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١١٩، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٦، ١٥٠، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٨، ١٧٤، ١٧٥، ١٩٠، ١٩٤، ١٩٥، ٢١٢، ٢٢١، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٩٥، ٢٩٨، ٣٠٨، ٣٢٤، ٣٢٥

آدم (سمث): ٤١

اديسون: ٥٢

اسخيلوس: ١٤٨

اسماعيل (عليه السلام): ١٠١

أفلوطين: ٨٥

اقبال (محمد): ١٨

الكترا: ١٣٥

الياس (عليه السلام): ١٠٢

انتكوف (ف): ٤٧

انكلز (فردريك): ١٢، ١٨، ٢٠، ٣٥، ٤٠، ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٥٦، ٥٨، ٦٦، ١٧٩، ٢٠٧، ٢٣١، ٢٥١، ٣٢١، ٣٢٦

اوديب: ١٣٥

اينسلي (دوغلاس): ٣٨

اينشتين: ١١٩، ١٢٣

أيوب (عليه السلام): ٧٤، ١٠٢

(ب)

بابك (الخرّمي): ٤١

بابويف: ٤٠

باسكال: ٦٩

البراوي (راشد): ١٨، ٤٤

برلين (ايسايه): ٤١

بري: ٤١

بكت: ١٤٨

بلاتكي: ٤١

البهي (محمد): ٦١، ٦٢

بوبر (كارل): ١٣
بوذا: ٨٠
بورشييف: ٦٩
بولس: ٨٠
بيج (جارلس): ٥١، ١٦١

(ت)

تارد: ٩٢
ترايتشه: ٣٥
تومبسون: ٤١
توينبي (أرنولد): ١٥، ١٦، ١٨، ١٩، ٣٣، ٣٤، ٥٣، ٦٨، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ١٦٨، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٩، ١٩٩، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٥٦، ٢٦٢، ٢٩٠، ٣٠٢، ٣٢١، ٣٢٦
تيري: ٤٠
تيمورلنك: ١٦٢

(ج)

جالوت: ١٠١
الجوادي (كاظم): ٢٣
جود: ٥٩
جورج (لويْد): ٥٤
جيل (بيتر): ٨٩، ٩٣
جينز (جيمس): ٧٤

(ح)

الحسن (محمد سلمان): ٦٩

(خ)

خالد بن الوليد (رضي): ١٦٢
الخضر (عليه السلام): ١٠١
ابن خلدون: ٩، ١٠٩، ١٦٨، ١٧٣، ١٧٤، ٢٨٠
خوري (منح): ١٩، ٧٠، ٧٤، ٨٩

(د)

داروِن: ٤٥، ١١٩
دانتي: ٥٤
داود (عليــه السلام): ١٠١، ١٠٢، ١٤٢، ٢٠٨، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٤، ٢٣٦
دجيلاس (ميلوفان): ٢٨١
دركايم: ٩٢
دروزة (محمد عزة): ١٠٠
دهرنك: ٥٨
ديكارت: ٦٩

(ذ)

ذو القرنين: ١٠١، ١٠٣، ٢٢٤

(ر)

روبسبيير: ١٦٢
روبي (جورج): ٥٤

(ز)

زايد (محمود): ٦٩
زكريا (عليه السلام): ١٢٦
الزمخشري: ١٠

(س)

سارتر: ٢٧٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤
سارغوس: ٦٩
السامري: ٢٣٦
سانت سيمون: ٤٠
سبينوزا: ٤٠
ستالين: ١٦٦
سقراط: ٨٥
سليمان (عليه السلام): ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٢٤ ، ١٤٢ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠
سوروكن (بترم): ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣
سيسموندي: ٤٠

(ش)

شبنغلر: ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ٥٦ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ١٠٥ ، ١٧٤ ، ٢٥٦
شعيب (عليه السلام): ١٠١

(ص)

صالح (عليه السلام): ١٠١ ، ١٢٦
الصديق (أبو بكر رضى): ٢٩٢ ، ٢٩٣
صديقي (عبد الحميد): ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٥٩

(ط)

طالوت: ١٠١
الطبري: ١٠

(ع)

العبادي: ٦٧
عبد الحميد (الثاني): ١٦٢
عبد اللطيف (سيد): ٣٣
عبده (غانم): ٦٤
عثمان (فتحي): ٦٧
العزير: ١٢٦
العلي (صالح احمد): ١٠٠
عمر بن عبد العزيز: ٢٦٩ ، ٢٨٠

(غ)

غارودي (روجيه): ٤١
غاليليو: ٦٩
غري (الكساندر): ٥٣ ، ٥٤
غلبرت: ٦٩
غنسبرغ: ٣٣

(ف)

فاوست: ٧٤
فايتلنغ: ٤١
فريدريك (وليم الثالث): ٣٧
فرعون: ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ٢٣٦ ، ٢٦٧
فرمات: ٦٩
فرويْد: ١٨ ، ١٣٥
فورييه: ٤١
فون شتاين: ٤٠
فون ماورد: ٥٦
فويرباخ: ٤٠
فيدرن (كارل): ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧

(ق)

قابيل: ١٠١
قارون: ١٠١، ١٠٣
قمبيز: ١٦٢

(ك)

كاريل (الكسيس): ٥٩، ١٦٣
كالڤن: ٥٤
كانت: ٣٥
كبلر: ٦٩
ابن كثير: ١٠
كروجه: ٢٩، ٣٠، ٣٥، ٣٦، ٣٨
كوكلمان: ٤٢
كول (ج.د. إيج): ٥٥
كولن ولسون: ١٦، ٢٦٢
كيزو: ٤٠
كيسرلنج: ١٦
كيلوباترا: ١٦٢
كيونو: ٥٦، ٥٧

(ل)

لانكه (أوسكار): ٦٩
لقمان (عليه السلام): ١٣٣، ٢٠٨، ٢٣٤
لندساي: ٣١
لوط (عليه السلام): ١٠١، ١٠٢، ١٠٣
لوغر (ج): ٦١
لوك: ٤١
لوي بلان: ٤١
لينين: ٥٤، ٦٣

(م)

ماركس (كارل): ١٢، ١٨، ٢٠، ٢٣، ٣١، ٣٧، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٦٦، ٦٨، ٦٩، ١٠٥، ١٣٥، ١٦١، ١٦٦، ١٧٣، ١٧٩، ٢٠٧، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٨١، ٢٩٠، ٣٠٣، ٣٢١، ٣٢٦
ماكيفر: ٣٣، ٥١، ١٦١
محمد (ﷺ): ٥٤، ٨٠، ٨٦، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٧، ١١١، ١١٥، ١٢١، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٤٧، ١٥٢، ١٦٤، ٢١١، ٢٣٨، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٦١، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٢٠، ٣٢٣
مريم (بنت عمران): ١٠١، ١١٥، ١١٨، ١٢٦، ١٥٢، ٢١٠، ٣١٧
مزدك: ٤١
المسيح (عيسى عليه السلام): ٧٤، ١٠١، ١٠٢، ١٢٦، ٢٦٢
مكتبة: ٤٠
مورغان: ٥٦
موسى (عليه السلام): ٨٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٨، ١٢٦
موسلي: ٣٧
موسوليني: ٣٨

(ن)

نابليون: ٣٧، ١٦٢، ١٦٥

نصر الله (محمد علي): ٦٩
نوح (عليه السلام): ١٠١، ١٠٢، ٢٥٧، ٣١٣
نوكس: ٥٤
نيتشه: ٣٨
نيرون: ١٦٢
نيف (جون): ٦٧، ٦٩

(هـ)

هابيل: ١٠١
هارفي: ٦٩
هانيبال: ٧٧
هتلر: ١٦٢
هرنشو: ٦٦، ٦٧
هود (عليه السلام): ١٠١، ١٠٧، ١٢٩، ١٤٦، ١٧٧، ١٩٤، ١٩٧، ١٩٨، ٢١١، ٢١٢، ٢٤٠، ٢٥٧، ٢٧٥، ٣١١، ٣١٣، ٣٢٢
هوك (سدني): ١٦٦
هولباخ: ٤٠
هولجسكن: ٤١
هيبوليت: ١٩
هيس: ٤٠
هيغل: ١٢، ١٨، ١٩، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٢، ٤٣، ٥٦، ١٠٥، ١٦١، ١٦٦، ١٧٣، ١٧٩، ٢٠٧، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٩٠، ٣٠٣، ٣٢٦

(و)

واط: ٥٢
وبر (ماكس): ٩٢
ويدجري: ١٨

(ي)

يعقوب (عليه السلام): ١٠١
يوسف (عليه السلام): ١٠١، ١٠٧، ١١٢، ٢١١، ٢١٢، ٣٢٢
يونس (عليه السلام): ١٠٢، ١١٩، ١٢٦، ١٣٩، ١٤٥، ١٥٢، ١٧٧، ١٩٣، ٢١٠، ٢١١، ٢١٦، ٢٣٠، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٩٦، ٣١٢
يونسكو: ١٤٨

فهرس الأماكن

(أ)

الاتحاد السوفياتي (روسيا): ٣٤، ٤١، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ١٦٥

اثينا: ٢٤، ٥٣

أحد: ١٢، ٢٥٦

اسبانيا: ٣١٦

آسيا: ٧٥

افريقيا: ٧٥

اكد: ٨٥

المانيا: ٣٤، ٣٥، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٦٢، ٦٥، ٣١٦

أمريكا (اللاتينية): ٧١

أمريكا (الولايات المتحدة): ٣٤، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٧١، ١٦٦

أوربا: ٦٤، ٦٥، ٦٨، ٧١، ٩٢

ايطاليا: ٥٢، ٨٠

(ب)

الباسفيكي: ٧٧

بدر: ١٠٤، ١٠٣

البرتغال: ٣١٦

بروسيا: ٣٥، ٣٧

بريطانيا (انكلترا): ٣٤، ٧٠، ٧٢، ٨٠، ٣١٦

بغداد: ٨٥

بين النهرين:

(ت)

تراقيا: ٥٢

(ح)

الحديبية: ١٠٤

حنين: ١٢، ١٣٠

(خ)

خالكيس: ٥٢

خيبر: ١٠٤

(د)

دجلة: ٧٣

(ر)

روما: ٢٤، ٧٧

(س)

سبأ: ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٥٢ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢
سبارطة: ٥٢ ، ٥٣
السند: ٧٣
سومر: ٨٥

(ص)

صقلية: ٥٢
الصين: ١٦٥ ، ٣١٦

(ع)

العراق: ٧٣

(ف)

الفرات: ٧٣
فلسطين: ١٠١ ، ١٦٣

(ك)

كورنثوس: ٥٢

(ل)

لندن: ٦٦

(م)

مدين: ١٠٨
مصر: ٧٣
مكة (المسجد الحرام، الكعبة): ١٠١ ، ١٠٤

(ن)

النهر الأصغر: ٧٥
نياز الأند: ٧٦
النيل: ٧٣ ، ٧٥

(هـ)

الهند: ٥٧

(ي)

اليابان: ٣١٦
ينا: ٣٧
اليونان: ٢٣

الفهرست

المقدمة ٥
الفصل الأول: التفاسير الوضعية الأساسية: عرض ونقد ٢١
التفسير المثالي: هيغل ٢٣
النقد ٢٩
التفسير المادي: ماركس وانكلز ٤٠
النقد ٤٩
التفسير الحضاري: توينبي ٧٠
١ - نشوء الحضارات ٧١
٢ - نمو الحضارات ٧٧
٣ - سقوط الحضارات وانحلالها ٨١
النقد ٨٩
الفصل الثاني: الواقعة التاريخية ٩٥
الفصل الثالث: المسألة الحضارية ١٧١
الفصل الرابع: سقوط الدول والحضارات ٢٥٣